الدكتورة نادية حسني صقر

مطلع العصر العباسي الثاني

السياسية والحضارية في خلافة المتوكل على الله

٢٣٢ - ٢٤٧ هـ

دار الشروق

مطلع العصر العبّاسي الثاني

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م



للنشر والتوزيع والطباعة

تليفون : الادارة : ٦٣١٠٠٣٢ (٠٢) المكتبة ٦٤٢٦٦١٠ (٠٢)
برقيا : مشكاتنا ● تلكس SHORCO SJ ٤٠١٢٠٩ ص. ب ٤١٤٦

جدة ـ المملكة العربية السعودية .

مطلع العصر العبّاسي الثاني

(الاتّجاهات السّياسيّة والحضاريّة في خلافة المتوكّل على الله)

٢٣٢ - ٢٤٧ هـ

الدّكتورة نادية حسني صقر

دكتوراه في التاريخ الإسلامي بمرتبة الشرف الأولى
وأستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بجامعة أم القرى
بمكة المكرّمة



للنّشر والتوزيع والطباعة

إهـــداء

إلى الباحثين عن الحق من أجل الحق . . .

إلى الراغبين في البناء لا في الهدم . . .

إلى المتجردين من الأهواء والغايات . . .

إلى من يخشون الرحمن عن يقين وثبات . . .

دكتورة نادية حسني صقر

فهرس

مقدمة ١١
بحث في مصادر الكتاب ١٩

الباب الأول
الاتجاهات السياسية في الدولة العباسية
في عهد المتوكل على الله

١ ـ اثر ظروف نشأة المتوكل وتوليته الخلافة في اتجاهاته السياسية ٢٧
٢ ـ بداية العصر العباسي الثاني وعصر نفوذ الاتراك ٤٦
٣ ـ موقف المتوكل من الأتراك والعرب ومشروع نقل الخلافة إلى بلاد الشام ... ٦١
٤ ـ تطور نظم الخلافة وولاية العهد في عهد المتوكل ٧٨
٥ ـ بداية ضعف نظام الوزارة في الدولة العباسية ٩٣
٦ ـ موقف المتوكل من العلويين والشيعة ١٠٦
٧ ـ تطور العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية في عهد المتوكل .. ١٢٣

الباب الثاني

الاتجاهات الحضارية في الدولة العباسية

في عهد المتوكل على الله

١ ـ عهد تشييد وعمران : تطوير مدينة سامراء وانشاء مدينة المتوكلية . . . ١٣٩
٢ ـ التطورات الاجتماعية في عهد المتوكل ١٥١
٣ ـ موقف المتوكل من اهل الذمة ١٦٣
٤ ـ الاتجاهات المالية والاقتصادية في عهد المتوكل ١٧٣
٥ ـ الاتجاهات الدينية: موقف المتوكل من مذهب السنة
ومن مذهب المعتزلة ومن قضية خلق القرآن ١٩٢
٦ ـ موقف المتوكل من الامام احمد بن حنبل ٢٠٤
٧ ـ الاتجاهات الفكرية في عهد المتوكل ٢١١

الملاحق ٢٢٥

المصادر والمراجع

اولا : المصادر الاصلية ٢٣٤
ثانيا: المراجع العربية الحديثة ٢٤١
ثالثا: مصادر افرنجية مترجمة الى اللغة العربية ٢٤٥
رابعا: المراجع الافرنجية ٢٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا هو تقديم لكتاب (الاتجاهات السياسية والحضارية في الدولة العباسية في عهد الخليفة المتوكل على الله) . أقدم فيه المؤلفة والكتاب على السواء . وقديماً قالوا (الكتاب يقرأ من عنوانه) ولكني أرى أن الكتاب يقرأ من عنوانه ومؤلفه . وهذا الكتاب في الأصل بحث علمي منهجي ، نال درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة عين شمس ، بمرتبة الشرف الأولى ، وقد ناقشته لجنة من خيرة أساتذة التاريخ والحضارة الإسلامية .

ولا حرج في أن يكتب الأستاذ عن تلميذته ، والأب عن ابنته ، والأستاذية أبوة . وقد عرفت مؤلفة هذا الكتاب ، الدكتورة نادية حسني صقر ، وهي في مرحلة دراستها الجامعية الأولى ، فوجدت فيها فطنة وذكاء ، ولمست فيها تديناً عميقاً ودماثة خلق . ثم اختارت (التاريخ الإسلامي) حقلاً لدراستها العليا ، وسعدت بالإشراف على رسالتها للدكتوراه ، ولمست جهادها العلمي ، وحماستها الجارفة ، في البحث والفحص والتعمق .

واتجهت الدكتورة نادية إلى التاريخ العباسي المجيد ، واختارت فترة قصيرة ، هي فترة خلافة المتوكل على الله التي استمرت نحو خمس عشرة سنة (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) ودرست الاتجاهات الجديدة في السياسة والحضارة ، مما يميز تاريخ هذه الفترة عن غيرها من العصور . ونظرت الباحثة النابهة إلى

مصادرنا الأصلية نظرة جديدة ، فاحصة واعية ، تستمد منها الحقائق التاريخية بوعي وحذر واستيعاب . وكشفت النقاب عن كثير من الحقائق التاريخية ، وقدمت صوراً نفسية وخلقية لشخصيات هذه الفترة التاريخية ، وهي صور حية ناطقة واقعية . ونجحت الدراسة في الوصول إلى أعماق وأغوار أحداث العصر ، لتفلسف هذه الأحداث ، وتخضعها لجوانب النقد العلمي . ولذا جاء البحث حافلاً بالتحليل والتعليق ، والاستنتاج ، والدراسات المقارنة .

وفترة خلافة المتوكل ، على قصرها نسبياً ، فترة تحول وانتقال ، في مجالات السياسة والحضارة ، فهناك مواقف مشهودة محددة نحو العناصر الجنسية في الدولة ، ونحو الأسرة العلوية ، ونحو أهل الذمة ، ونحو مذهب الاعتزال المذهب الرسمي للدولة قبل المتوكل ، ثم نحو الدولة البيزنطية . وفي هذا العصر ارتفع شأن العرب وتضاءل مركز الأتراك ، ودخل نظام الوزارة في عهد جديد متميز . وهو عهد تشييد وعمران ، ونهضة فكرية ، والدراسة تربط ما بين العصور العباسية المختلفة ، وتقارن بينها .

ولذا أستطيع أن أقرر أن الكتاب هو إضافة علمية طيبة لمكتبتنا التاريخية ، العربية الإسلامية. وهو يفيد الباحث ويمتع القارىء ، إذ يقدم الكتاب دراسة علمية منهجية تتوفر فيها عناصر التشويق وجاذبية القراءة .

وفقنا الله عز وجل إلى إبراز أمجاد تاريخنا الإسلامي ، إنه سبحانه وتعالى ولي كل توفيق .

دكتور علي حسني الخربوطلي

أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة عين شمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة

يدرس هذا البحث (الاتجاهات السياسية والحضارية في الدولة العباسية في عهد الخليفة المتوكل على الله ٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) . وتاريخ الدولة العباسية تاريخ طويل مجيد (١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ) ولا يزال منبعاً لا ينضب ، ينهل منه الباحثون في التاريخ الإسلامي . وقد شهد العالم الإسلامي ، في العصر العباسي أمجاداً سياسية ، ونهضات حضارية . ولما كانت الدولة العباسية قد عاشت أكثر من خمسة قرون ، فقد تفاوتت درجات المجد السياسي والتقدم الحضاري . وحفلت هذه القرون الخمسة بصور تاريخية عديدة ، متنوعة . مما يعطي للباحث في التاريخ الإسلامي فرص الاختيار والانتقاء .

ووفقني الله تعالى ، بعد بحث طويل ، وتفكير عميق ، إلى اختيار عصر الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) موضوعاً لبحْثي .

والمتوكل أول خليفة تسوق الأقدار الخلافة إليه ، دون أن يتولى بناء على بيعة بولاية العهد في عهد سلفه الواثق بالله . فقد شهدت خاتمة العصر العباسي الأول تحولات سياسية خطيرة ، خلقت مراكز قوى جديدة ، أصبح في أيديها مقاليد الأمور ، وأصبح في قدرتها التحكم في مسار الخلافة ، وفي اختيار الخليفة ، مما جعل الواثق لا يعهد بالخلافة بعده لأحد من أبنائه أو لفرد من أبناء الأسرة العباسية .

وقد أحدث الخليفة المعتصم بالله (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) انقلاباً سياسياً خطيراً في الدولة العباسية حين تحول عن سياسة الاعتماد على العناصر الفارسية في السياسة والإدارة والجيش إلى سياسة الاعتماد على الأتراك . وترتب على هذا الانقلاب السياسي بناء عاصمة تركية جديدة ، هي سامراء ، لتحل مكان العاصمة العباسية القديمة ، بغداد ، التي اتخذت الطابع الفارسي . وتكاثر عدد الأتراك ، في عهد المعتصم ، حتى تولوا المناصب الرئيسية في الدولة العباسية . وكانت قوة شكيمة المعتصم تقف أحياناً حائلاً أمام انطلاق هؤلاء الأتراك ، واستئثارهم بالسلطة دونه . ولكن الخليفة الواثق بالله لم يكن كسلفه في الحزم والوزن مما أتاح الفرصة للأتراك للاستبداد بالنفوذ الحقيقي حتى تولى أحدهم منصب (السلطان) لأول مرة فكان أول خليفة يستخلف سلطاناً . وكانت فترة حكم الواثق القصيرة (٢٢٧ هـ ـ ٢٣٢ هـ) فترة ثبّت فيها الأتراك أقدامهم ووطدوا سلطتهم . ويبدو أن الواثق قد شعر باليأس والقنوط ، فترك منصب الخلافة بعده خاوياً ، إذ أدرك أن مراكز القوى التركية قد أصبح لها حق الاختيار .

وهكذا ورث المتوكل على الله تركة مثقلة ، فقد أصبح الأتراك قوة سياسية وعسكرية حتى انهم هم الذين اختاروه للخلافة ، رغم أنه لم يكن ولياً للعهد ، كما لم يسع هو إلى الخلافة أو يفكر في تولّيها . ولكن المتوكل كان من الخلفاء الأقوياء ، ولو كان قد تولى في ظروف أخرى أفضل لقام بدور أبرز وأعظم في التاريخ العباسي ، وأصبح لا مفر من الصدام بين المتوكل والأتراك .

ولم يكن للأتراك ما كان للفرس من حضارة عريقة أصيلة . وقد استفادت الدولة العباسية حتماً من الحضارة الفارسية . أما حضارة الأتراك فهي في الأصل حضارة بدوية بدائية ، ولذا عانت الرعية العباسية من غلظة الأتراك وخشونتهم . ولم يكن للأتراك تراث حضاري يقدمونه للدولة ، ولذا اضطربت أحوالها السياسية والإدارية والاقتصادية ، وظهر الاضطراب واضحاً في عهد الواثق القصير ففسدت الإدارة المالية ، وظهر نظام المصادرات ، حيث صادر الواثق

أموال كبار شخصيات الدولة . وهو نفس النظام الذي سار عليه المتوكل ، وبالغ في تنفيذه أحياناً .

ورأى المتوكل أن هؤلاء الأتراك قد أصبحوا مصدر قلق واضطراب ، وأنه لا حول له ولا قوة في ظل سيادتهم واستبدادهم . وبدأ بسياسة حفظ التوازن بين العناصر التركية والعناصر الفارسية ، فكانت سامراء تضم كثيراً من السكان الفرس ، كما ضم الجيش العباسي فرقاً عسكرية فارسية . ولكن تغلغل الأتراك في الإدارة والجيش لم يكتب النجاح الكامل المنشود لسياسة المتوكل . فرأى أن يحدث انقلاباً سياسياً فيتحول من سياسة الاعتماد على الأتراك ، إلى الاعتماد على العنصر العربي ، فأنشأ فرقة عسكرية عربية وضم اليها المرتزقة والمتطوعة . ثم رحل إلى دمشق العاصمة الأموية العربية القديمة لتكون عاصمة له ، ومقراً لخلافته . ولكن الانقلاب لم ينجح ، فقد تكاتفت عدة عوامل أدت إلى إخفاق المشروع . فقد دبر الأتراك مؤامرة لاغتياله ، وتكرر شغب الجند الأتراك ، وكانت العصبية القبلية والشعوبية قد أضعفت العنصر العربي ، ولم تجعله صالحاً لتعتمد الدولة العباسية عليه ، من جديد ، كما كان الحال في العصر الأموي . فضلاً عن قرب الشام من الدولة البيزنطية ، حيث تكرر الهجوم البيزنطي على الشام ومصر في عهد المتوكل .

ورأى المتوكل أن يحل المشكلة التركية حلاً ثالثاً ، فقام ببناء مدينة جديدة شمال سامراء . اتخذها عاصمة له . ومركزاً للخلافة العباسية ، وأطلق عليها اسمه ، وهي مدينة المتوكلية أو الجعفرية ، فهو جعفر المتوكل على الله . وحرص المتوكل على انتقاء عناصر السكان وتنظيم إقامة أهل الأسواق ، حتى يشعر بالأمن والأمان .

واستمر المتوكل في صراعه مع الأتراك ، وأراد تحقيق الاستمرار والاستقرار للدولة العباسية ، فعهد بولاية العهد لأبنائه الثلاثة : المنتصر ، والمعتز ، والمؤيد . ولكن هدفه لم يتحقق ، فقد كرر خطأ أسلافه من الخلفاء الأمويين والعباسيين . وتكررت مأساة صراع الأخوين الأمين والمأمون ابني هارون الرشيد . ونجح الأتراك في استمالة ولي العهد الأول المنتصر اليهم ،

فأصبح عميلاً لهم . وغضب الأب المتوكل إذ انضم ابنه ولي عهده إلى أعدائه الأتراك ، ورأى تقديم المعتز على أخيه المنتصر ، وبدأ يضطهد المنتصر الذي رأى التعجيل بانهاء حياة أبيه ، فتعاون مع الأتراك على اغتيال المتوكل . فكان أول خليفة تنتهي حياته بهذا الاغتيال السياسي . وأصبح هذا الحدث سابقة خطيرة تكررت بعد ذلك طوال العصر العباسي ، وأدت إلى اضطراب واضح في مسار التاريخ العباسي .

ولم يكن صراع المتوكل مع الأتراك مشكلة سياسية فحسب ، بل أدى الصراع إلى كثير من النتائج منها موقفه الخارجي من الدولة البيزنطية ، التي استفادت من انشغال المتوكل بصراعه مع الأتراك ، فتجرأت عليه ، وتكرر هجومها على الأراضي العباسية ، وظهرت جرأة البيزنطيين واضحة في هجومهم الغادر العنيف على مدينة دمياط في مصر ، حيث كثر التخريب والقتل والأسر والسبي ، كما قامت قبائل البجة في النوبة بالإغارة على صعيد مصر . كما انعكس الصراع بين المتوكل والأتراك على أحوال البلاد الإدارية والاقتصادية .

والمتوكل خليفة المتناقضات . فهو يبدو غالباً متديناً حين يعمل على إحياء السنة ، فينتعش المذهب السني ، ويمنع الجدل في قضية خلق القرآن ، وهو يضطهد أهل الذمة ، ويهدم كنائسهم ويحول أراضيها إلى مساجد . وهو يأمر بعقاب كل من يسب أحداً من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام . كما كان المتوكل من رواة الأحاديث النبوية الشريفة . ولكن المتوكل في نفس الوقت ، يسرف في عقد مجالس اللهو والمجون ، ويقبل على شرب الخمر ، ويجمع حوله الندماء والخلعاء ويسرف في امتلاك الجواري والسراري ، ويكون اغتياله في ليلة لهو وعبث ، أغرق فيها في احتساء الخمر . والمتوكل يبغض الأتراك ، ولكنه ـ في نفس الوقت ـ يوليهم قيادة الجيوش ، ومناصب الإدارة ، وتضم حاشيته الكثير من الحجاب والخدم والحراس الأتراك ، فأدخل بذلك النار إلى قصره ، وكان اغتياله على أيدي هؤلاء الخدم والحجاب .

والخليفة المتوكل أيضاً شخصية قوية ، يريد أن يجمع السلطة في يده ، رغم ما ساد في الدولة العباسية من نفوذ تركي واسع . فرأى إضعاف نظام

الوزارة ، لأول مرة في التاريخ العباسي . وهو يسرف في تعيين وعزل الوزراء ورؤساء الدواوين والمصالح ، حتى لا يوفر لهم فرص الاستبداد بالسلطة . وهو يسرف أيضاً في مصادرة أموالهم كوسيلة لإرهاب غيرهم . ولا يجد حرجاً في التنكيل بوزرائه وكبار رجال الدولة ، فيسجنهم ويعذبهم .

والمتوكل يحب جمع المال ، ولكنه يسرف غالباً في إنفاقه . وهو يشتد في جمع الضرائب وخاصة الجزية والخراج ، ولكنه في نفس الوقت يخفف عن الفلاحين ويؤخر موعد النيروز حيث يسدد المزارعون ضرائبهم . والمتوكل رجل تشييد وعمران ، أنشأ عاصمة جديدة ، وحفر عدة أنهار ، وأقام كثيراً من المباني ، والجوامع ، والقصور ، والأسواق . وهو يحب الترف والرفاهية . ويبالغ في كرمه أحياناً ، ويعتدل في البذل غالباً . وتميز المتوكل بعقلية يتولد عنها الابتكار والابداع ، فهو يبتكر أزياء الملابس ، وطرز البناء .

ورغم حرص المتوكل على إحياء السنة ، والنهي عن شتم الصحابة ، إلا أنه يوقع الاضطهاد على العلويين ، رغم أنهم من آل البيت ، ويسرف في الاضطهاد حتى انه يأمر بهدم ضريح الحسين بن علي ، فيثير بذلك عليه سخط المسلمين جميعاً . كما غضب كثير من المسلمين على المتوكل لموقفه من الإمام أحمد بن حنبل ، أحد الأئمة الأربعة البارزين .

هذه هي صور عديدة للمتوكل ، الخليفة القوي ، المتدين احياناً ، والماجن احياناً أخرى . المسرف تارة ، والمقتر تارة أخرى . وهو صورة لظروف عصره ، فقد ورث تركة مثقلة بالأعباء ، وحكم في فترة تحول وانتقال ، فهو أول خلفاء العصر العباسي الثاني ، وقد اختلف هذا العصر عن العصر الأول في كل جوانب الحياة . ويكاد يكون المتوكل آخر الخلفاء الأقوياء الحازمين الذين شهدهم تاريخ الدولة العباسية .

ورغم أن فترة خلافة المتوكل كانت نحو خمسة عشر عاماً إلا أنها كانت حافلة بالأحداث التاريخية ، في الداخل والخارج ، وفي السياسة والإدارة والاجتماع والاقتصاد والدين والفكر . وقام المتوكل بالدور الأول في كل الأحداث ، فهو الخليفة القوي الحازم .

وليس بحثنا ترجمة للخليفة المتوكل ، بل هو دراسة لفترة حاسمة من فترات التاريخ العباسي . وهي فترة تحول وانتقال . شهدت محاولات لإنقاذ الدولة العباسية من الضعف والتدهور . وعاصرت صراعات شعوبية بين الأتراك والفرس والعرب . وشهدت تغيرات في نظم الخلافة ، وولاية العهد ، والوزارة ، والإدارة ، وتطورات في العلاقات العباسية البيزنطية . ولما كان التاريخ العباسي سلسلة متصلة الحلقات ، فقد ربطنا عصر المتوكل بما سبقه أو لحقه من عصور ، حفاظاً على تكامل الوحدة التاريخية .

وبحثنا يهتم بالاتجاهات السياسية والحضارية في الدولة العباسية ، في مطلع العصر العباسي الثاني ، حين تولى المتوكل الخلافة . ولذا ركزنا اهتمامنا على هذه الاتجاهات الجديدة والتطورات المستحدثة مما ميز العصر العباسي في خلافة المتوكل بميزات خاصة ، وسمات تختلف عن سمات سائر مراحل العصور العباسية . وعقدنا كثيراً من الدراسات المقارنة ، في كثير من الموضوعات السياسية والحضارية بين عصر المتوكل وعصور السابقين واللاحقين له في الخلافة ، حتى نقف على ما استحدثه المتوكل في مجالات السياسة والحضارة ، فهذه الاتجاهات نابعة من شخصيته ، وعقليته ، ونفسيته ، وأخلاقه ، وتفكيره السياسي ، ومناهجه في الإدارة والاقتصاد .

وكان تبويبنا لبحثنا أمراً حتمياً ، فرضته طبيعة الموضوع ، ومساحته ، وظروفه . فقسمنا بحثنا إلى بابين كبيرين ، درس الباب الأول الاتجاهات السياسية في الدولة العباسية في عصر المتوكل ، ودرس الباب الثاني الاتجاهات الحضارية في هذا العصر . وانقسم كل باب إلى عدة فصول ، اتبعنا في دراستها الطريقة الموضوعية . ولم نسرف في تقسيم البحث إلى موضوعات فرعية ، كما لم نسرف في العناوين الجانبية ، حفاظاً على المنهج العلمي ، وتجنباً لتفتيت المادة العلمية . وقد اهتممنا بمنهج الربط بين الموضوعات الرئيسية والفرعية ، تحقيقاً للتكامل الفكري والوحدة الموضوعية والتاريخية . فالسياسة والحضارة قد تفاعلت في بوتقة الدولة العباسية ، وهناك تبادل تأثيري فيما بين السياسة والحضارة . والعلاقات الخارجية والسياسة الداخلية تسيران على طريق واحد . كما أن كلاً من الاقتصاد والاجتماع والفكر يتأثر بسياسة

الخليفة ويؤثر كل عنصر في سائر العناصر . والحضارة الإسلامية حضارة عامة شاملة ، تتكامل أركانها وتتفاعل .

اهتممنا بمنهج التفسير النفسي لأحداث التاريخ ، فقدمنا فصلاً عن أثر ظروف نشأة المتوكل وتوليته الخلافة في اتجاهاته السياسية . فقد كانت الاتجاهات المستحدثة في عهد المتوكل نابعة من تكوينه النفسي والخلقي والفكري . وقمنا بتحليل نفسي لشخصية المتوكل ، وأبرزنا تناقضاته ، ونزعاته المختلفة .

ودرسنا كثيراً من القضايا التاريخية التي حفل بها عصر المتوكل ، مثل قضية العلويين ، وقضية أهل الذمة ، وقضية تجرؤ الدولة البيزنطية ، والقضايا الدينية والفكرية ، وخاصة مشكلة خلق القرآن ، ومحنة الإمام أحمد بن حنبل . وطرحنا كل الآراء حول هذه القضايا ، واهتممنا بالتحليل والنقد والاستنتاج وأعطينا المتوكل حقه حين أصدرنا أحكاماً تاريخية ، فأبرزنا ما له ، وما عليه ، بروح الحياد الإيجابي . وقد كانت ظروف عصر المتوكل أقوى أحياناً من حزمه وعزمه . كما عانى المتوكل من مخلفات وتراكمات الماضي العباسي . وعبر مائة سنة سالفة . ولكن المتوكل أراد التجديد والتطوير فنجح أحياناً وأخفق أحياناً أخرى .

أردت بدراستي تلك أن أقدم بحثاً علمياً منهجياً ، لموضوع من موضوعات تاريخنا الإسلامي ، ولفترة من فترات العصر العباسي ، أضيفها إلى سلسلة الأبحاث الجامعية المنهجية التي قدمها الباحثون السابقون إلى مكتبتنا العربية الإسلامية ، عن تاريخ الدولة العباسية . والبحث يمثل حيوية الأمة الإسلامية عبر العصور التاريخية المختلفة . ويعبر عن رغبة هذه الأمة العريقة في التجديد والتطوير ، من أجل تحقيق الاستقرار السياسي ، والتقدم الحضاري . وأدعو الله عز وجل أن يكون التوفيق قد حالفني فيما أردت وهدفت ، إنه سبحانه وتعالى ولي كل توفيق . ونسأله تعالى أن يهدينا إلى ما فيه خير أمتنا الإسلامية .

مكة في ٤ شعبان ١٤٠١ هـ — د . نادية حسني صقر

٦ يونيه ١٩٨١ م

بحث في مصادر الكتاب

كما تفرض طبيعة واتجاهات موضوع البحث منهج التبويب ، تفرض أيضاً نوعية المصادر والمراجع ، وعددها ، وتقديم بعضها على البعض الآخر . ونحن ندرس مرحلة تاريخية استغرقت خمسة عشر عاماً (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) من تاريخ الدولة العباسية فكان من الحتمي الاستفادة من المصادر والمراجع التي تهتم بهذه الفترة التاريخية . كما كان علينا أن نهتم بالمصادر المعاصرة أو القريبة من المعاصرة ، حتى تنقل لنا الصور التاريخية كاملة ، وتقدم لنا التفاصيل الوافية . كما كان علينا أن نفضل ونقدم المصادر التي تقدم التفصيلات السياسية والحضارية ، حتى تتوفر لنا المادة العلمية اللازمة للبحث .

وواجهنا عدة مشاكل خلال اطلاعنا على المصادر الأصلية واعتمادنا عليها . ومن أبرز هذه المشكلات أن التاريخ الإسلامي قد تم تدوينه في العصر العباسي . فكانت بصمات العباسيين تبدو واضحة في صفحات التاريخ العباسي . ووقع بعض المؤرخين والمؤلفين الأقدمين تحت تأثيرات الرغبة أو الرهبة . فوجدنا تملقاً وممالأة أحياناً ، ومبالغات تاريخية لا يقبلها العقل والمنطق أحياناً أخرى . وكان من اليسير الكشف عن هذه المغالطات والمبالغات ، حين نقارن النصوص التاريخية الواردة في عدد من الكتب لعدة

مؤرخين ، ولذا لم نعتمد إلا على النصوص والروايات التي كان عليها إجماع من المؤرخين ، أو ما يقرب من الإجماع .

ومن الصعوبات التي عانينا منها ، أن العصر العباسي ، وخاصة عصر المتوكل ، كان عصر الشعوبية ، ما بين الترك والفرس والعرب ، وقد أثّرت عنصرية المؤرخ القديم في كتاباته واتجاهاته العلمية . وشهد عصر المتوكل صراعه مع الأتراك ورغبته في العودة إلى الاعتماد على العنصر العربي . ولذا اختلفت الأحكام التاريخية التي أصدرها المؤرخون الأقدمون على سياسة المتوكل .

ومن المشاكل العلمية أيضاً ، تأثر كثير من المؤرخين الأقدمين بالمذاهب الدينية المختلفة . فمنهم من يؤيد الرأي بخلق القرآن ، ومنهم من يؤيد مذهب المعتزلة ، ومنهم من يؤيد مذهب أحمد بن جنبل ، أو يتعاطف معه في محنته في عهد المتوكل ومنهم من يعطف على العلويين باعتبارهم من آل البيت ويسخط على سياسة المتوكل نحوهم ، وانتهاكه لضريح الحسين بن علي . فقد شهد عهد المتوكل عدة مواقف من كل هذه القضايا التاريخية ، الدينية والمذهبية والفكرية . وكان لكل مؤرخ قديم رأيه المتميز ، ونزعته الخاصة .

ومن المشاكل العلمية والعامة والمعروفة ، أن مصادرنا التاريخية القديمة الأصلية تهتم بالسياسة والإدارة والحروب أكثر من اهتمامها بالجوانب الحضارية من اقتصاد واجتماع وفكر . كما تركز هذه المصادر اهتمامها بالخلفاء والوزراء وكبار شخصيات الدولة أكثر من اهتمامها بعامة الناس وبأبناء الشعب . ولذا أصبح من واجبنا الاطلاع على المصادر الأدبية وكتب الخراج والمال . ومؤلفات الجغرافيين والرحالة ، حتى نستنبط منها الاتجاهات الاقتصادية والصور الاجتماعية ، والتطورات الفكرية . وحتى نجد أحكام الرأي العام على سياسة واتجاهات المتوكل ، فنحقق بذلك (شعبية) البحث العلمي .

ومصادرنا الأصلية القديمة تهتم بالسرد التاريخي وبإبراز الحقائق التاريخية فحسب . ولا تهتم ـ كما نعلم ـ بالنقد والتحليل والاستنتاج ، ولا تصدر أحكاماً

تاريخية . كما أن هذه المصادر تورد أحياناً عدة روايات ، تختلف في تفصيلاتها وقد تتناقض الروايات أحياناً أخرى . ونذكر على سبيل المثال الروايات التي تناولت رحيل المتوكل إلى دمشق ، فقد اختلف المؤرخون الأقدمون في رواياتهم . كما نشير أيضاً إلى الروايات التي تحدثت عن اغتيال المتوكل في قصره على يد ابنه المنتصر وأنصاره من الأتراك . فقد اختلف المؤرخون في رواياتهم اختلافاً واضحاً عميقاً . بل إن الطبري وحده قدم لنا عدة روايات مختلفة تماماً . مما أثار أمامنا عدة صعوبات علمية ، نجحنا ـ بحمد الله وتوفيقه ـ في تذليلها .

اعتمدنا على كتابين لليعقوبي ، وهو مؤرخ وجغرافي ، له وزنه وشأنه . وهو معاصر لعهد المتوكل ، فقد توفي سنة ٢٨٤ هـ . فاعتمدنا على كتابه في التاريخ حيث قدم صوراً حية لسياسة الاعتماد على الأتراك ، ودرس تطور العلاقات بين الأتراك وكل من المعتصم والواثق والمتوكل . أما كتاب البلدان ، فهو أفضل كتاب يقدم صوراً تفصيلية واضحة لمدينة سامراء ، منذ إنشائها في عهد المعتصم ، ويدرس تطورها في عهد المتوكل . كما قدم لنا اليعقوبي دراسة وافية عن عاصمة المتوكل الجديدة ، وهي مدينة المتوكلية (الجعفرية) ، فقدم لنا تفصيلات عن طرز البناء وعن التقدم العمراني كما قدم اليعقوبي أيضاً دراسة اقتصادية طيبة لمدينة سامراء . ولكن اليعقوبي يعطف دائماً على العلويين وقد كان للمتوكل موقف عدائي من العلويين . الأموات منهم والأحياء .

واستفدنا كثيراً من تاريخ الطبري ، فقد عاش بين سنتي ٢٢٤ هـ و ٣١٠ هـ ، فعاصر المتوكل . وقدم الطبري تفصيلات تاريخية أكثر مما قدمه سائر المؤرخين عن عصر المتوكل ، محافظاً على التسلسل الزمني فهو ـ كما نعلم ـ يتبع طريقة التأريخ بالسنين . فدرس الطبري مواقف المتوكل من وزرائه ورجال دولته . وقدم تفصيلات وافية عن المصادرات كما قدم الطبري أيضاً دراسات تفصيلية للعلاقات العباسية والبيزنطية وركز الاهتمام على فداء الأسرى . كما قدم لنا صورة كاملة لمأساة الهجوم البيزنطي على دمياط . ويكاد الطبري ينفرد

بذكر تفصيلات شغب البجة ، وثورة ابن البعيث كما اهتم الطبري بوصف مدينة المتوكلية ، التي عاصر إنشاءها .

ومن المؤرخين القريبين للمعاصرة للمتوكل ، المسعودي ، المتوفى سنة ٣٤٦ هـ وقد قدم لنا حقاً دراسة تفصيلية وافية لعصر المتوكل في كتابه (مروج الذهب) ودراسة موجزة مقتضبة في كتابه (التنبيه والاشراف) . والمسعودي قضى ربع قرن في رحلات حول العالم الوسيط ، خارج العراق ، وحين أراد الاستقرار فضل الإقامة في مصر ، حيث وضع كتبه ثم مات ، ومارس المسعودي الحرية في تجواله ، وفي كتاباته . ولم يقع تحت رغبة أو رهبة وهو لا يجد حرجاً في نقد الخلفاء العباسيين المعاصرين له نقداً مراً . وقد استفدنا كثيراً من كتاب (مروج الذهب) ، فقد قدم المسعودي لنا صوراً اجتماعية كثيرة ، واهتم بالتعليق على الأحداث . وكانت أحكامه مجردة من الميل والهوى ، وأعطى المتوكل حقه بالقسطاس ، فذكر حسناته وسيئاته ، وكان نقده موضوعياً ، صريحاً ، واضحاً . كما قدم المسعودي أيضاً صوراً للحياة الفكرية وتحدث عن الشعراء والأدباء في عصر المتوكل .

ومن المؤلفين الأقدمين المعاصرين للمتوكل ، الجاحظ ، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ . وقد استفدنا من رسالته عن مناقب الترك ، التي قدم فيها صوراً نفسية وخلقية وجسمانية للأتراك ، وتحدث عن استئثارهم بالسلطة . كما أن كتب الجاحظ الأخرى تقدم صوراً اجتماعية وفكرية واقتصادية لعصر المتوكل .

واستفدنا من كتاب الأغاني **للأصفهاني** المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ، فقد قدم لنا تفصيلات عن الحياة الفكرية والاجتماعية في عصر المتوكل وعشنا في هذا الكتاب في قصور المتوكل ، وفي مجالس لهوه ، بين خدمه وغلمانه وجواريه .

واستفدنا من كتاب (الديارات) للشابشتي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ في الحصول على تفصيلات وافية عن مدينتي سامراء والمتوكلية .

ومن كتب التواريخ المحلية والإقليمية ، استفدنا من كتاب (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، فقد قدم فصلاً كاملاً عن

المتوكل ، يجمع بين السياسة والحضارة . وقد اهتم بطريقة تولية المتوكل الخلافة ، وقدم لنا عدة روايات تصور نفسية وأخلاق المتوكل . كما اهتم الخطيب البغدادي بالجوانب الدينية ، فدرس حرص المتوكل على إحياء السنة ، كما أبرز دور الشاعر البحتري في حياة المتوكل .

واستفدنا من كتاب (الفخري في الآداب السلطانية) لابن طباطبا في دراسة نظام الوزارة في عهد المتوكل . ونحن نعرف اهتمام هذا المؤرخ بالوزارة في العصر العباسي كما أمدنا بتفاصيل عن المصادرات وعن كُتّاب المتوكل .

واطلعنا على المصادر الجغرافية الإسلامية وخاصة كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ الذي قدم دراسة طيبة عن سامراء . كما استفدنا حقاً من كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٣٦ هـ ، فقد قدم فصلاً كاملاً طويلاً مفصلاً عن سامراء والمتوكلية . كما اطلعنا على كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد) للقزويني المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، وكتاب (صورة الأرض) لابن حوقل المتوفى سنة ٣٦٧ هـ . ولكن الكتابين الأخيرين لم يقدما ما قدمه الكتابان الأولان .

وهناك مصادر تاريخية أخرى استَفدنا منها ، وتأتي في المرتبة الثانية ، مثل كتب ابن الأثير ، وابن مسكويه ، وابن كثير ، وأبي الفداء ، وابن قتيبة ، بترتيب أهميتهم لنا .

أما عن المراجع الحديثة ، فإننا لم نجدها تهتم كثيراً بعصر المتوكل . إذ إن المراجع التي اهتمت بالعصر العباسي الثاني ، أوجزت الحديث عن المتوكل ، فهذا العصر الثاني ، طويل ، يبدأ سنة ٢٣٢ هـ ويستمر إلى سنة ٦٥٦ هـ ، أي أكثر من أربعة قرون . وتعدد خلاله الخلفاء العباسيون ، وتكررت صور عزل وقتل الخلفاء ، واعتبر المؤلفون المحدثون المتوكل حلقة واحدة في سلسلة طويلة ضمت العديد من الخلفاء . ولذا لا نجد دراسة كاملة متكاملة شاملة عن المتوكل في كتاب حديث ، فمؤلف يهتم بموقف المتوكل من الدولة البيزنطية إذ هو يركز الحديث عن العلاقات العباسية البيزنطية . ومؤلف

آخر يشير إلى المتوكل إشارات محدودة عند دراسته لقضية خلق القرآن أو لمذهب المعتزلة . ومؤلف ثالث يشير إلى المتوكل وهو يدرس تاريخ وفقه احمد ابن حنبل ، ومؤلف رابع يشير إلى هذا الخليفة وهو يدرس تطور العلاقات بين العباسيين والعلويين ، وهكذا . واختلف المؤلفون في الحكم على المتوكل ، فكانوا بين مادحين أو قادحين .

كما أن المستشرقين لم يهتموا كثيراً بالخليفة المتوكل ، فقد ركزوا اهتمامهم بالعصر العباسي الأول ، أو بالقرن الرابع الهجري . ولذا يتضاءل جداً اهتمامهم بالمتوكل إذا قارنا بين إشارتهم المحدودة إلى المتوكل ، ودراساتهم الواسعة عن المنصور والرشيد والمأمون . وربما كانت دائرة المعارف الإسلامية ابرز منبع لنا لدراسات المستشرقين عن المتوكل . إلى جانب إشارات (ترتون) في كتابه (أهل الذمة في الإسلام) ، أو (ديمومبين) في كتابه (النظم الإسلامية) . كما أن (آدم ميتز) في دراسته للحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري قد أشار أحياناً إشارات عابرة إلى عصر المتوكل عند دراسته لموضوعات الحضارة المختلفة .

الباب الأول

الاتجاهات السّياسيّة في الدّولة العبّاسيّة في عهد المتوكّل على الله

١ ـ أثر ظروف نشأة المتوكل وتوليته الخلافة في اتجاهاته السياسية .
٢ ـ بداية العصر العباسي الثاني وعصر نفوذ الأتراك .
٣ ـ موقف المتوكل من الأتراك والعرب ومشروع نقل الخلافة إلى بلاد الشام .
٤ ـ تطور نظم الخلافة وولاية العهد في عهد المتوكل .
٥ ـ بداية ضعف نظام الوزارة في الدولة العباسية .
٦ ـ موقف المتوكل من العلويين والشيعة .
٧ ـ تطور العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية في عهد المتوكل .

الباب الأول

الاتجاهات السياسية في الدولة العباسية في عهد المتوكل على الله

١ ـ أثر ظروف نشأة المتوكل وتوليته الخلافة في اتجاهاته السياسية

لكل عصر ظروفه السياسية واتجاهاته الحضارية . وهذه الظروف والاتجاهات تخضع لمؤثرات عديدة . فهناك خصائص وأحوال البيئة والمؤثرات الإقليمية ، وهناك مستوى المعيشة ودرجة الرخاء الاقتصادي . وهناك مقدار الحضارة ومدى الاستعداد الحضاري . ثم هناك نوعية الحكومة واتجاهات الجهاز الحكومي .

والدولة العباسية دولة عريقة ، في السياسة والحضارة ، بدأ تاريخها الزاهر في سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) واستمر حتى كان الغزو المغولي سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وما تبعه من سقوط الدولة العباسية .

ومرت الدولة العباسية بمراحل مختلفة ، عبر نيف وخمسة قرون ، وأصبح لكل مرحلة خصائصها السياسية ومميزاتها الحضارية . وتعددت صور القوة والضعف ودرجات التقدم أو التأخر الحضاري . وقام الخليفة العباسي بالدور الأول في الاتجاهات السياسية والحضارية ، وكانت شخصية الخليفة ، وأخلاقه ، وعقليته ، ونفسيته ، تؤثر تماماً في هذه الاتجاهات ، وتشكلها

تشكيلاً خاصاً متميزاً ، ووضح هذا التأثير في العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ومطلع العصر العباسي الثاني .

وينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب[١] ، عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهم عرب قرشيون هاشميون ، وقد عارضت الأسرة الهاشمية قيام الدولة الأموية (٤٠ هـ) ، وقادت الأسرة العلوية حركة المعارضة ، وتعددت ثورات العلويين وأنصارهم من الشيعة[٢] ، ولكنها انتهت كلها بالإخفاق ، وبدأ تطلع العباسيين إلى الخلافة منذ سنة ٩٨ هـ[٣] ، وبدأ العباسيون دعوتهم السرية سنة ١٠٠ هـ ، واستفادوا من اخطاء الثورات العلوية فتلافوها ، ووفّروا لدعوتهم وسائل النجاح ، واهتموا بالتنظيمات السرية ووسائل الدعاية والإعلام ، وبتكوين قوة عسكرية ، ووضعوا برامج للإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

وقامت الدولة العباسية في الكوفة سنة ١٣٢ هـ وظهر السواد شعار العباسيين ووقف أبو العباس أول خلفاء بني العباس يوضح حق العباسيين في الخلافة ويصفهم بأنهم حماة الإسلام « وأهله وكهفه وحصنه ، والقوّام به والذابين عنه والناصرين له » . ثم أشار إلى قرابة العباسيين من الرسول عليه الصلاة والسلام وأن الله خصهم « برحم رسول الله وقرابته » . ثم تلا أبو العباس عدة أيات قرآنية كريمة تشيد بذوي القربى من الرسول عليه الصلاة والسلام[٤] .

---

(١) كان مولد العباس قبل الهجرة بنحو خمسين عاماً (٥٧٠م) ونشأ في مكة ، وتولى في الجاهلية منصب السقاية وتوفير المياه للحجاج (ابن عبدربه: العقد الفريد جـ١ ص ٣٨).

(٢) مثل حركة الحسين بن علي وحركة المختار الثقفي وحركة التوابين وحركة زيد بن علي وابنه يحيى وحركة عبدالله بن معاوية بن عبدالملك بن جعفر بن أبي طالب وغيرها .

(٣) في هذه السنة دبر الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك مؤامرة اغتيال زعيم الشيعة الكيسانية ابي هاشم بن محمد بن الحنفية بالسم فاتجه إلى (الحميمة) بالشام وعهد بوصيته للإمام العباسي محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ، واعتبر العباسيون هذه الوصية تنازلاً من العلويين للعباسيين عن حق المطالبة بالخلافة (اليعقوبي جـ٣ ص ٤٠ ، الأصفهاني : مقاتل **الطالبيين** ص ١٢٦).

(٤) هذه الآيات القرآنية الكريمة هي : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم **تطهيراً**﴾ ، ﴿ قل لا اسألكم عليه من أجر الا المودة في القربى﴾ ، ﴿ وأنذر عشيرتك =

وقال أبو العباس عن الهاشميين: « وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم وبصّرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحق ، وأدحض بنا الباطل . وأصلح بنا منهم من كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة ، وأتم بنا النقيصة وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة ، في دينهم ودنياهم »[1] .

واعتبر العباسيون توليهم الخلافة ميراثاً عن النبي عليه الصلاة والسلام ، فقد وقف داود بن علي ، عم الخليفة أبي العباس ، على منبر الكوفة يقول « الحمد لله ، شكراً شكراً شكراً ، الذي أهلك عدونا ، وأصار الينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ »[2] .

وتوالى الخلفاء العباسيون ، وكانت شخصية كل خليفة عباسي تطبع عصره بطابع خاص . فقد كان الخليفة العباسي يقوم على رأس الحكومة باعتباره مصدر كل السلطات ، والملجأ الأخير في كل شئون الحكومة[3] . والمرجع لكل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة[4] . واعتبر الخليفة العباسي في العصر الأول نفسه ظل الله على الأرض ، فقد قال أبو جعفر المنصور : « إنما أنا سلطان الله في أرضه » بما يشبه نظرية الحق الملكي المقدس عند الفرس ، حيث أصبح الخليفة يحكم بتفويض من الله لا من الشعب[5] .

أصبحت خصائص الخليفة العقلية والخلقية والنفسية ، هي التي تحدد اتجاهاته السياسية والحضارية . فالمنصور ـ مثلاً ـ اتصف بالحزم والوقار والعلم[6] ، فأصبح عهده عهد جد والتزام خلقي . كما اشتهر المنصور أيضاً

= الأقربين ﴾ ، ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى ﴾ ، ﴿ اعلموا انما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى ﴾ .

(١) انظر نص خطبة أبي العباس في تاريخ الطبري جـ ٦ ص ٨١ ـ ٨٣ .

(٢) الطبري جـ ٦ ص ٨٣.

(٣) حتي : تاريخ العرب ص ٣٩٥ .

(٤) سيد امير علي : مختصر تاريخ العرب ص ٢٢١ .

(٥) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ص ٢٠٥ .

(٦) وصف ابن طباطبا (الفخري ص ١٤١) المنصور : « وكان المنصور من الحزم وصواب الرأي وحسن السياسة على ما تجاوز الوصف» كما قال ايضا : « كان المنصور من عظماء الملوك =

بالتقتير الشديد ، فكان عهده عهد اقتصاد في النفقات . ونشأ ابنه المهدي نشأة عربية ، فاتصف بالتدين والفصاحة والبلاغة والعدل والتسامح ، وانعكست صفاته وأخلاقه على ملامح عصره ، فأصبح عصر تسامُح وعدل وأمن ورخاء[1] . أما الخليفة الهادي ، فقد وصفه المسعودي[2] بأنه كان « قاسي القلب ، شرس الأخلاق » ، ووصفه صاحب الفخري بأنه كان « شديد البطش »[3] . كما قال السيوطي عنه « كان جباراً ، وهو أول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والأعمدة ، والقسي الموترة ، فاتبعه عماله به في ذلك ، وكثر السلاح في عصره »[4] . ورغم قصر مدة خلافة الهادي ، فقد اتصف عهده بالبطش والقسوة والإرهاب ، كما حدثت في عهده مأساة فخ التي استشهد فيها الحسين بن علي ، أحد أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب ، وهي تشبه فاجعة كربلاء في العصر الأموي التي استشهد فيها الحسين بن علي بن أبي طالب[5] .

أما هارون الرشيد ، فقد كان « من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم »[6] . وأصبح عصره هو العصر الذهبي ، الذي اشتهر بالنشاط الاجتماعي والرخاء الاقتصادي ، والازدهار الفكري . أما الأمين ، فهو عربي الأب والأم ، فأبوه هارون الرشيد ، وأمه زبيدة التي تنتسب إلى الأسرة العباسية

= وحزمائهم ، وعقلائهم ، وعلمائهم ، وذوي الآراء الصائبة منهم والتدبيرات السديدة وقورا شديد الوقار » .

(١) قال المسعودي (مروج الذهب جـ٣ ص ٢٣٢) : « وكان المهدي محبباً الى الخاص والعام لأنه افتتح امره بالنظر في المظالم ، والكف عن القتل ، وأمن الخائف وانصاف المظلوم ، وبسط يده في الاعطاء » .
انظر ايضا : الفخري ص ١٦١ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧١ .

(٢) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٣٥ .

(٣) الفخري ص ١٧١ .

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٩ .

(٥) الطبري جـ ٦ ص ٤١٠ وما بعدها ، اليعقوبي جـ ٣ ص ١٣٦ ، الاصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٤٤٣ وما بعدها .

(٦) الفخري ص ١٧٥ .

الهاشمية ، ولذا انطبع عصره بالطابع العربي ، ورجحت كفة العرب على الفرس . ولما كان الأمين يميل إلى الترف واللهو ، فقد انعكست صفاته على المجتمع[1] . ولما كانت أم المأمون فارسية (وهي مراجل) فقد ساد النفوذ الفارسي في عصره[2] . ولما كان المأمون عالماً محباً للعلم والثقافة ، فقد أصبح عهده عهد نهضة فكرية[3] .

والإنسان ابن أسرته ، فهو يتأثر بالأب والأم . والأم هي المدرسة الأولى التي يتلقى فيها دروس الحياة الأولى . والإنسان يكتسب خصائصه العقلية والنفسية عن الوراثة والتربية والبيئة . ولذا سندرس هذه العوامل الثلاثة ومدى تأثيرها في شخصية المتوكل على الله .

الأب والأم :

كان مولد المعتصم سنة ١٧٨ هـ ، وأبوه الخليفة العباسي المشهور هارون الرشيد . وأمه أم ولد[4] تركية هي (ماردة) . نال ثقة أخيه الخليفة المأمون . فولاه حكم بلاد الشام ومصر ، فاستفاد خبرات إدارية واسعة[5] ولما مرض المأمون ، رأى أن يعهد بالخلافة بعده لأخيه المعتصم[6] ، وعدل عن تولية ابنه العباس ، رغم شعبيته الواسعة بين الجنود ، فقد رأى المأمون في شدة شكيمة المعتصم ومتانة خلقه ما يضمن تنفيذ السياسة التي رسمها للدولة[7] .

وتقدم المأمون لأخيه المعتصم بوصيته الأخيرة ، وفيها يرسم له أبعاد السياسة ، وأبرز ما في هذه الوصية ، توصيته بالرعية ويسميهم المأمون (العوام) ويقصد (عامة الناس) ، فقال المأمون للمعتصم : « يا أبا اسحق ،

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ٣ ص٣٩٦ وما بعدها .
(٢) الطبري : جـ٧ ص١١٧ وما بعدها .
(٣) المسعودي : مروج الذهب جـ٤ ص ٤٠ وما بعدها .
(٤) كانت الجارية اذا انجبت من سيدها، تعتق غالباً ويطلق عليها اسم (ام ولد).
(٥) المسعودي : مروج الذهب جـ٣ ص٣٤٨ .
(٦) ابن طيفور : كتاب تاريخ بغداد ص ٢٢٥ .
(٧) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ٢ ص ٦٩ .

أدن مني واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك في القرآن[1] ، واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله ، الخائف من عقابه وعذابه ، ولا تغتر بالله ومهلته ، فكأن قد نزل بك الموت ، ولا تغفل أمر الرعية ، الرعية الرعية ، العوام العوام ، فإن الملك بهم ، وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم ، الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين . ولا يتهين إليك أمر فيه صلاح المسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك . وخذ من أقويائهم لضعفائهم ، ولا تحمل عليهم في شيء ، وانصف بعضهم من بعض بالحق بينهم ، وقربهم وتأمنهم . وعجل الرحلة عني والقدوم إلى دار ملكك بالعراق[2] وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم ، فلا تغفل عنهم في كل وقت . والخرمية[3] فاغزهم ذا حزامة وصرامة ، واكنفه بالأموال والسلاح والجنود ، من الفرسان والرجالة ، فإن طالت مدتهم ، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك واعمل في ذلك مقدم النية ، راجياً ثواب الله عليه »[4] .

تمت البيعة للمعتصم بالخلافة في الثامن عشر من شهر رجب سنة ٢١٨ هـ . وقامت في وجهه حركة معارضة ، كان لها تأثيرها في اتجاهه بعد ذلك إلى سياسة الاعتماد على الأتراك . فقد رفض الجند إعلان ولائهم له ، وأرادوا تولية العباس بن المأمون ، ولكن العباس حسم الأمر ، حين سارع إلى البيعة لعمه المعتصم بالخلافة فخمدت حركة المعارضة ، وأقبل الجند يبايعون المعتصم[5] .

---

(١) أي بسياسة المأمون في قضية خلق القرآن مما سنورده تفصيلاً في الباب الثاني من هذا البحث .

(٢) توفي المأمون سنة ٢١٨ هـ في شمال مدينة طرسوس بالحمى خلال رحيله لفتح القسطنطينية وكان المأمون في الثامنة والأربعين من عمره . (الطبري جـ٧ ص ١٩٧) .

(٣) الخرمية طائفة كبيرة خطيرة من الزنادقة ، اشهرهم جماعة بابك الخرمي الذي ثار في عهد المأمون واستمرت ثورته في عهد المعتصم وحاول الاتصال بالدولة البيزنطية للتعاون ضد الدولة العباسية (المسعودي : مروج الذهب جـ٣ ص ٣٥٠) .

(٤) الطبري جـ٧ ص ٢٠٠ .

(٥) الطبري جـ٧ ص ٢٢٣ ، اليعقوبي جـ٢ ص ٥٧٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٠ ص ٢٨٧ .

وإذا علمنا أثر الوراثة ، فهذه هي صفات المعتصم كما ذكرها المؤرخ ابن طباطبا[1] : « كان المعتصم سديد الرأي ، شديد المِنَّة ، يحمل ألف رطل ويمشي بها خطوات ، وكان موصوفاً بالشجاعة ، وسمي المثمن من أحد عشر وجهاً ، هو الثامن من ولد العباس ، والثامن من الخلفاء ، وتولى الخلافة في رجب عام ثماني عشر ومائتين ، وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر ، وتوفي وله ثمان وأربعون سنة ، وولد في شهر شعبان وهو الشهر الثامن وخلف ثمانية ذكور وثماني بنات ، وغزا ثماني غزوات ، وخلف ثمانية ألف ألف درهم » .

وعلق المؤرخ المسعودي[2] على سياسة المعتصم فقال : « وللمعتصم أخبار حسان ، وما كان من أمره في فتح عمورية ، وما كان من حروبه قبل الخلافة في السفارة نحو الشام ومصر ، وغير ذلك ، وما كان منه بعد الخلافة ، وما حكي عنه من حسن السيرة واستقامة الطريقة » .

وأفاض السيوطي[3] في إيراد صفات المعتصم العقلية والنفسية والخلقية ، وفي تقييم علمه وثقافته ، فقال : « وكان ذا شجاعة ، وقوة ، وهمة ، وكان عرياً من العلم »[4]. وقال السيوطي أيضاً : « وله محاسن ، وكلمات فصيحة وشعر لا بأس به غير أنه إذا غضب لا يبالي من قتل » . ونقل السيوطي قول نفطويه عن المعتصم « وكان من أشد الناس بطشاً ، كان يجعل زند الرجل بين إصبعيه فيكسره » . كما نقل السيوطي أيضاً قول الذهبي عن المعتصم : « كان المعتصم من أعظم الخلفاء وأهيبهم ، لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن » .

وحكم المعتصم الدولة العباسية حكماً استبدادياً مقروناً بشيء من العطف

---

(١) الفخري ص ٢٥٩ .

(٢) مروج الذهب جـ ٤ ص ٦٤ .

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٣٤ .

(٤) روى السيوطي : « كان مع المعتصم غلام في الكتاب يتعلم معه ، فمات الغلام ، فقال له الرشيد ابوه : يا محمد مات غلامك . قال: نعم يا سيدي واستراح من الكتاب ، فقال: وإن الكتاب ليبلغ منك هذا ، دعوه لا تعلموه . قال : فكان يكتب ويقرأ قراءة ضعيفة» .

وحسن التدبير[١] . وتمثلت في المعتصم روح الجندية ، فقد كان من أبرز صفاته : الصراحة وحب البساطة . وظهرت مقدرته الحربية في قضائه على أعدائه السياسيين وفي انتصاراته على البيزنطيين[٢] .

أما أم المتوكل ، فهي أم ولد تسمى (شجاع) وصفها الخطيب البغدادي[٣] بأنها « كانت من سروات النساء سخاء وكرماً » . ويذكر المسعودي في كتابه (مروج الذهب)[٤] أن (شجاع) كانت « أم ولد خوارزمية » ، بينما يذكر في كتابه (التنبيه والاشراف)[٥] أنها كانت « أم ولد طخارستانية » واختلف المؤرخون في موعد وفاتها . فذكر الطبري[٦] أنها ماتت بعد مصرع المتوكل وصلى عليها ابنه المنتصر (٢٤ ربيع الثاني سنة ٢٤٧ هـ) ودفنت عند المسجد الجامع في سامراء . ويؤكد المسعودي[٧] هذه الحقيقة التاريخية . أما الخطيب البغدادي[٨] فيذكر أن (شجاع) قد ماتت في حياة المتوكل ، وأنشد الشعراء أبياتهم في تعزيته .

نشأة المتوكل وحياته قبل توليته الخلافة :

كان مولد المتوكل سنة ٢٠٧ هـ[٩] ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، حينما تولى أبوه المعتصم بالله الخلافة سنة ٢١٨ هـ . وعاصر المتوكل أحداثاً سياسية كثيرة أثرت في اتجاهاته السياسية حينما تولى الخلافة .

فقد اتبع المعتصم وصية أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٧٢ .
(٢) علي ابراهيم : التاريخ الاسلامي العام ص ٤١٦ .
(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٥ ص ١٦٦ .
(٤) مروج الذهب جـ ٤ ص ٨٥ .
(٥) التنبيه والاشراف ص ٣١٣ .
(٦) تاريخ الطبري جـ ٧ ص ٤٠٠ .
(٧) مروج الذهب جـ ٤ ص ١٢٥ .
(٨) تاريخ بغداد جـ ٥ ص ١٦٩ .
(٩) وهي السنة التي حددها المتوكل لمولده كما روى الخطيب البغدادي . (تاريخ بغداد جـ ٥ ص ١٦٦ هـ)

القرآن ، مع أنه لم يكن له حظ من العلم يجعله ذا رأي في مثل هذه المسألة ، وإنما كان ينفذ وصية المأمون ، وزاد عليه في إلحاق الأذى بكل من لم يعترف بذلك من العلماء وأهل الرأي[1] .

وفي ذلك يقول السيوطي[2] : « فسلك ـ المعتصم ـ ما كان المأمون عليه وختم به عمره من امتحان الناس بخلق القرآن ، فكتب إلى البلاد بذلك ، وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك ، وقاسى الناس منه مشقة في ذلك ، وقتل عليه خلقاً من العلماء » وسنرى للمتوكل آراء خاصة في قضية خلق القرآن .

كما تأثر المتوكل بموقف ابيه المعتصم من الإمام أحمد بن حنبل ، إذ أمر المعتصم بضربه سنة ٢٢٠ هـ وألحق به كثيراً من الإهانات[3] .

وكان المعتصم محباً للعمارة والتعمير والإنشاء ، فيذكر المسعودي[4] : « وكان المعتصم يحب العمارة ، ويقول : إن فيها أموراً محمودة ، فأولها عمران الأرض التي يحيى بها العالم وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ، ويتسع المعاش . وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك : إذا وجدت موضعاً مني أنفقت منه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه » .

كما تأثر المتوكل بموقف أبيه المعتصم من العلويين والشيعة ، فقد قامت في سنة ٢١٩ هـ حركة شيعية تزعمها محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وهي حلقة في سلسلة حركات الشيعة الزيدية[5] . وكان الزعيم العلوي يذهب إلى القول بآراء المعتزلة في القول والتوحيد ، وينادي بآراء الزيدية الجارودية التي تنسب إلى أبي الجارود[6] . وتركزت الثورة بالقرب

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ٢ ص ٧٠ .
(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٣٥ .
(٣) الدميري : حياة الحيوان ص ٢١٠ .
(٤) مروج الذهب جـ ٤ ص ٤٧ .
(٥) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٥٢ .
(٦) الشهرستاني : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٦ ، النوبختي : فرق الشيعة ص ٤٨ .

من مرو بخراسان في الطالقان ، ولذا كان الزعيم العلوي يسمى « صاحب الطالقان » وجعل شعار دعوته « الرضا من آل محمد » وبلغ أنصاره أكثر من أربعين ألفاً[١] . ونجح المعتصم في إخماد الثورة ، وقبض على الثائر ، وحمل إلى بغداد . حيث أمر المعتصم بسجنه . ولكنه نجح في الفرار[٢] . واختلف المؤرخون حول مصيره ، فيذكر الطبري[٣] أنه اختفى « فلم يعرف له خبر » . وروى الأصفهاني[٤] عدة روايات تذهب رواية منها إلى أنه رجع إلى الطالقان فمات بها ، وتذهب رواية أخرى إلى أنه انحدر إلى واسط حيث اشتد عليه المرض ، فمات. وتذكر رواية ثالثة أن محمد بن القاسم توارى أيام المعتصم والواثق ثم قبض عليه في عهد المتوكل ، حيث أمر بسجنه فمات في السجن .

وشهد المتوكل ، في حياة أبيه ، سياسة التحول عن الاعتماد على الفرس ، إلى سياسة الاعتماد على الأتراك . كما شهد بناء مدينة سامراء في سنة ٢٢١ هـ[٥] وعاش المتوكل في رحاب أبيه ، في قصر الخلافة ، ثم شهد المتوكل بناء الخليفة الواثق لقصر الهاروني[٦] . وقيامه ببعض التطورات لسامراء ، حتى إذا تولى المتوكل نراه يهتم بعمارة سامراء[٧] ، كما سنرى في الباب الثاني . بل نراه أيضاً يشيد مدينة « المتوكلية » . التي عرفت أيضاً باسم « الجعفرية »[٨] ، فقد أدرك أن بناء المدن من سياسة الملوك العظام ، حتى انه قال بعد انتقاله إلى مدينته الجديدة : « الآن علمت أني ملك إذ بنيت لنفسي مدينة أسكنها »[٩] .

وعاصر المتوكل في حياة أبيه المعتصم حركات الزنادقة ، فشهد ثورات

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ٤ ص ١٠١ وما بعدها .
(٢) الطبري : جـ٧ ص٢٢٣ ـ ٢٢٤ ، الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص٥٧٩ .
(٣) الطبري : جـ ٧ ص ٢٢٤ .
(٤) مقاتل الطالبيين : ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨ .
(٥) ياقوت : معجم البلدان (مادة سامرا) مجلد ٣ ص ١٥ .
(٦) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٩٧ .
(٧) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .
(٨) ابن الاثير : الكامل جـ٧ ص ٢٩ .
(٩) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٦٧ .

بابك الخرمي ، والأفشين ، والمازيار . وكانت حركة بابك قد ثارت في عهد المأمون واستمرت في عهد المعتصم ، وهددت تعاليم الإسلام ، وأثارت الشعوبية ، وعملت على إحياء التقاليد المزدكية المجوسية الفوضوية الإباحية[1] وحاول بابك التحالف مع الدولة البيزنطية ، وشارك أتباعه في الهجوم العنيف الذي قام به الروم في سنة ٢٢٣ هـ ، واتفق بابك مع الإمبراطور ثيوفيل ، على أن يهاجم الإمبراطور الحدود العباسية في وقت يعلن فيه بابك الثورة في الداخل ، وأخفق التحالف حيث أخفق الطرفان في توحيد موعد الهجوم والثورة ، فانفرد العباسيون بكل عدو على حدة وقضوا على الحليفين[2] . ونجح القائد الافشين في القبض على بابك . وشهد المتوكل في مدينة سامراء في شهر صفر سنة ٢٢٣ هـ ، موكب النصر ، فقد طافوا ببابك شوارع سامراء وهو على ظهر فيل ضخم وسمع المتوكل محمد بن عبد الملك الزيات وهو ينشد :

قد خضب الفيل كعاداته   يحمل شيطان خراسان
والفيل لا تخضب أعضاؤه   إلا لذي شأن من الشان

ثم شهد المتوكل أيضا في عهد المعتصم حركتي المازيار والافشين التي تصور مساوىء الاعتماد على العناصر الأجنبية . وحركة المازيار والافشين فرع من فروع حركات الخرمية التي عملت على إحياء تعاليم مزدك المجوسية الشيوعية الفوضوية ، التي بدأت في عهد كسرى قباذ ، وأنعشها بابك الخرمي ، وتولاها بعده المازيار وأيدها الافشين . وكانت ثورتهما ثورة دينية وسياسية معاً يراد بها الاستقلال عن الدولة العباسية ، وهي في الوقت نفسه حركة شعوبية تعمل على حط شأن العرب ، وإزالة دينهم ودولتهم[3] .

---

(١) كان مزدك يرى ان الصراع يقوم في العالم بسبب عنصرين هما : المال والنساء ولذا يرى إلغاء الملكية الخاصة فيهما وجعلهما مشاعاً بين الناس . (الشهرستاني : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٢٩) ويقول الطبري (جـ ٢ ص ٨٨ وما بعدها) : « وقال مزدك واصحابه ان الله جعل الأرزاق في الأرض ليقتسمها العباد بينهم بالتساوي ، ولكن الناس تظالموا منها ، وزعموا انهم يأخذون للفقراء من الأغنياء . . وأن من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة ، فليس هو أولى من غيره » .

(٢) العدوي : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٢٠١ .

(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ٢ ص ١٠١ .

والمازيار رجل أعجمي[1] ، تظاهر بالإسلام ، وتسمى محمداً ، ليخفي أغراضه السيئة ويموه على السلطات العباسية ، وكان من الدهاقين ، وحاز ثقة المأمون فولاه ولاية شروين بأطراف طبرستان ، حيث نظم صفوفه ليبدأ حركة شعوبية ضد العرب ، وانتهز المازيار فرصة انشغال الدولة العباسية بحرب بابك الخرمي ، فاتصل به ، وبالافشين سراً ، وعمل ثلاثتهم على محو الإسلام من بلادهم والتخلص من الحكم العباسي[2] . أما الافشين فكان من بلاد اشروسنة ، وهي من بلاد ما وراء النهر[3] . وكان هو وأبوه في خدمة المعتصم ، ووثق الخليفة به حتى انه ولاه قيادة إحدى الفرق التي سيرها لغزو عمورية وقتال البيزنطيين ، وأبدى شجاعة واستبسالاً مما جعله موضع ثقة وتقدير المعتصم ، وكان قد عهد إليه بإخماد حركة بابك الخرمي . ولكن الافشين تنكر للخليفة وللدولة وأبدى عداء للإسلام ، وتعصباً ضد العروبة ، وأراد الاستقلال ببلاده وإحياء المجوسية[4] .

أعلن المازيار ثورة مسلحة ، ونجح المعتصم في القضاء عليها والقبض عليه ، وعلم المعتصم بخيانة الافشين وتحالفه مع المازيار . ولذا أمر المعتصم بالقبض على الافشين قبل وصول المازيار إلى سامراء بيوم واحد[5] . وطافوا بالمازيار شوارع سامراء على ظهر بغل ، وأمر المعتصم بضربه بالسياط حتى مات . أما الافشين فقد رأى المعتصم عقد محاكمة علنية له في قصر الخلافة حضرها رجالات الدولة ، مثل الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، والقاضي أحمد بن أبي دؤاد واسحق بن ابراهيم بن مصعب وأصدر القاضي حكمه بسجن الافشين ، فظل في سجنه حتى مات[6] . وكانت هذه المحاكمة من أشهر

---

(١) اسمه الأصلي مازيار بن قارن بن بندارهرمس (المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٦١).
(٢) سميرة الليثي: الزندقة والشعوبية ص ١٤٩ .
(٣) تقع بين أقاليم فرغانة شرقاً وسمرقند غرباً والشاش شمالاً .
(٤) الطبري جـ ٧ ص ٣٠٢ وما بعدها .
(٥) المسعودي جـ ٤ ص ٦٠ وما بعدها .
(٦) انظر تفاصيل المحاكمة في تاريخ الطبري جـ ٧ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨ والكامل في التاريخ لابن الاثير جـ ٦ ص ١٩٠ وما بعدها .

المحاكمات في التاريخ الإسلامي وقد رأى المعتصم إقناع الرأي العام بخيانة الافشين للإسلام والدولة والخليفة ، فقد كان من بين الناس من يبدون إعجابهم بالافشين لبطولاته السابقة في قتال الروم وبابك الخرمي . وقد أبرزت هذه المحاكمة الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، والقاضي ابن أبي دؤاد . وسيكون لهما دورهما في عهد المتوكل .

وكان لاعتماد المعتصم على الأتراك أثر سيء في نفوس العرب ، فثاروا في بلاد الشام بزعامة أبي حرب المبرقع اليماني[1] ، وسنرى المتوكل يفكر في الانتقال إلى الشام والاعتماد على العنصر العربي .

واختار المعتصم ابنه هارون الواثق بالله لولاية العهد . وكان مولده في شهر شعبان سنة ١٨٦ هـ ، وأمه أم ولد رومية تدعى (قراطيس) ، واشتهر الواثق منذ حداثة عمره ، برجاحة العقل ، وقوة الشخصية ، وبالحذق في السياسة والإدارة ، مما جعله موضع ثقة أبيه المعتصم ، فعهد إليه ببعض أمور الدولة فقد تركه في بغداد سنة ٢٢٠ هـ حين خرج لبناء عاصمته الجديدة سامراء ، كما عهد اليه باستقبال الافشين بعد انتصاره على بابك الخرمي وعودته إلى العاصمة سُرَّ من رأى .

وكان الواثق يتشبه بعمه المأمون أكثر من تشبهه بأبيه المعتصم ، وأحسن إلى العلويين وبني أبي طالب على عكس ما فعله المعتصم ثم المتوكل . فيقول صاحب الفخري[2] : « وكان الواثق من أفاضل خلفائهم وكان فاضلاً لبيباً فطناً فصيحاً شاعراً ، وكان يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته . ولما ولي الخلافة أحسن إلى بني عمه الطالبيين وبرهم . ولم يقع في أيامه من الفتوح الكبار والحوادث المشهورة ما يؤثر » .

---

(١) روى الطبري (جـ ٧ ص ٣١٢) : « وكان أبو حرب يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذي أوى إليه متبرقعاً فيراه الرائي فيأتيه فيذكره ويحرضه على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ويذكر السلطان وما يأتي إلى الناس ويعيبه» .

(٢) الفخري ص ٢١٥ .

ومضى الواثق في سياسة المأمون في قضية خلق القرآن فيقول المسعودي[1] : « يذهب ـ أي الواثق ـ في كثير من أموره مذهب المأمون ، شغل نفسه بمحنة الناس في الدين فأفسد قلوبهم ، وأوجدهم السبيل إلى الطعن عليه » .

وكان القاضي أحمد بن أبي دؤاد من المحرضين للواثق على انتهاج هذه السياسة ، فيقول السيوطي[2] : «كان أحمد بن أبي دؤاد قد استولى على الواثق ، وحمله على التشدد في المحنة ، ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن » .

اشتهر الواثق باسم « المأمون الأصغر » وخاصة في مجالات العلم والأدب وتفوق على المأمون في رواية الشعر . وقارن الناس بين الواثق والمأمون ، وقال أحدهم : « كان المأمون قد مزج بعلم العرب علم الأوائل من النجوم والطب والمنطق ، وكان الواثق لا يخلط بعلم العرب شيئاً »[3] .

وفي عهد الواثق ، برز الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، حتى ان الواثق لم يستوزر غيره . وكان لتضخم سلطاته بداية غروب شمسه بعد ذلك في عهد المتوكل ، فقد كانت فترة خلافة الواثق قصيرة (أقل من ست سنوات) وفي ذلك يقول المسعودي : « غلب عليه ـ أي الواثق ـ أحمد بن أبي دؤاد ومحمد ابن عبد الملك الزيات ، فكان لا يصدر إلا عن رأيهما ، ولا يعتب عليهما فيما رأياه ، وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه »[4]. وشاهد المتوكل في عهد الواثق طغيان الزيات واستبداده بالسلطة وتعذيبه الناس ، فسخط عليه ، فيقول صاحب الفخري[5] : « قيل أن ابن الزيات عمل تنوراً من حديد ومسامير من الداخل ليعذب به من يريد عذابه ، فكان هو أول من جعل فيه ، وقيل له : ذق ما كنت تذيق الناس » .

---

(١) التنبيه والاشراف ص ٣١٣ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٤١ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٤٣ .
(٤) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٦٦ .
(٥) الفخري : ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

طريقة تولية المتوكل الخلافة :

استمر الواثق يعيش في العاصمة العباسية التركية الجديدة (سامراء) متبعاً سياسة أبيه المعتصم في الاعتماد على الأتراك ، وتكاثر عددهم وتولوا كثيراً من المناصب الكبرى في الدولة ، وبرز منهم في عهده (اشناس) الذي منحه الواثق لقب (سلطان) فيقول السيوطي[1] : « وفي سنة ثمان وعشرين ومائتين (٢٢٨ هـ) استخلف ـ الواثق ـ على السلطنة اشناس التركي وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجاً مجوهراً ، وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطاناً ، فإن الترك إنما كثروا في أيام أبيه » .

وتولى محمد بن عبد الملك الزيات الوزارة وتولى أحمد بن أبي دؤاد القضاء ، وتولى الحجابة ثلاثة هم : حماد بن دنفش ، وايتاخ ، ووصيف[2] وكان هؤلاء هم أصحاب السلطة الحقيقية في الدولة ، ومن صار لهم أمر اختيار من يخلف الواثق في الخلافة .

حكم الواثق أقل من ست سنوات ، ومات في شهر ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ ، وكان عمره نحو سبع وثلاثين سنة[3] ، وقد تحدث المؤرخون عن نهمه وحبه للطعام مما عجل بوفاته[4] . وكان عاطفياً حساساً يطيل البكاء إذا تذكر الموت ، ونرى له كثيراً من الصور في كتاب (مروج الذهب)[5] .

مرض الواثق ، فصلى بالناس يوم النحر أحمد بن أبي دؤاد ، قاضي القضاة ، فدعا في خطبته للواثق بالشفاء[6] . وما لبث أن مات بعد عشرة أيام[7] . ولم يوص بالخلافة بعده لأحد ، وقال « لا أتحمل أمركم حياً وميتاً » .

---

(١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٣١٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) يقول المسعودي (مروج الذهب جـ٣ ص ٦٥) ان الواثق بويع بالخلافة وعمره ٣١ سنة و٩ شهور ومات وعمره ٣٧ سنة و٦ شهور وكانت خلافته خمس سنين وتسعة اشهر و١٣ يوما .

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٣ .

(٥) مروج الذهب جـ٣ ص ٨٣ .

(٦) المصدر السابق جـ٣ ص ٨٤ .

(٧) من الطريف ان المنجمين تنبأوا للواثق خلال مرضه الاخير أنه سيعيش خمسين سنة اخرى (الطبري جـ٧ ص ٣٣٩).

ويقدم الطبري[1] لنا رواية تصور الموقف عند وفاة الواثق ، وطريقة تولية المتوكل الخلافة، فروى «أن الواثق لما توفي، حضر الدار أحمد بن أبي دؤاد. وايتاخ ووصيف وعمر بن فرج ، وابن الزيات ، وأحمد بن خالد أبو الوزير ، فعزموا على البيعة لمحمد بن الواثق ، وهو غلام أمرد ، فألبسوه دراعة سوداء وقلنسوة رصافية ، فإذا هو قصير ، فقال لهم وصيف : أما تتقون الله تولون مثل هذا الخلافة وهو لا يجوز معه الصلاة . فتناظروا فيمن يولونها ، فذكروا عدة فذكر عن بعض من حضر الدار مع هؤلاء أنه قال : خرجت من الموضع الذي كنت فيه فمررت بجعفر المتوكل ، فإذا هو في قميص وسروال قاعد مع أبناء الأتراك فقال لي : ما الخبر ؟ فقلت : لم ينقطع أمرهم . ثم دعوا به فأخبره بغا الشرابي الخبر ، وجاء به . فقال : أخاف أن يكون الواثق لم يمت ، قال : فمر به ، فنظر إليه مسجى ، فجاء فألبسه أحمد بن أبي دؤاد الطويلة وعممه وقبله بين عينيه ، وقال : السلام عليكم يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ثم غسل الواثق وصلى عليه ودفن . ثم صاروا من فورهم إلى دار العامة » .

وكان لا بد من اتخاذ لقب جديد لجعفر بن المعتصم . واختار له محمد ابن عبد الملك الزيات لقب (المنتصر بالله) . ولكن الخليفة الجديد قال لأحمد ابن أبي دؤاد أنه قد « رأى في النوم كأن سكراً سليمانياً يسقط عليه من السماء ، مكتوب عليه جعفر المتوكل على الله » ، فوافق قاضي القضاة ، وكتبوا بذلك إلى « الآفاق »[2].

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات صيغة البيعة ، وكان يتولى ديوان الرسائل ، وكتب عدة رسائل بلقب الخليفة الجديد ، هذه هي صيغته : « بسم الله الرحمن الرحيم . أمر ـ أبقاك الله أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ أن يكون الرسم الذي يجري به ذكره على أعواد منابره وفي كتبه إلى قضاته وكتابه وعماله وأصحاب قضاته وأصحاب دواوينه وغيرهم من سائر من تجري المكاتبة بينه وبينه : (من عبدالله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين) فرأيك في

(١) الطبري جـ٧ ص ٣٤١ .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ٥ ص ١٦٥ .

العمل بذلك وإعلامي بوصول كتابي اليك ، موفقاً إن شاء الله »[1].

أمر المتوكل بعطاء للجند لثمانية أشهر ، كما أمر للأتراك برزق أربعة أشهر وللجند والشاكرية ومن يجري مجراهم من الهاشميين برزق ثمانية أشهر . ولكنه أمر للمغاربة برزق ثلاثة أشهر ، فغضبوا ورفضوا استلام هذا الرزق وأرسل المتوكل إليهم من يقول لهم: من كان منكم مملوكاً فليمض إلى أحمد بن أبي دؤاد حتى يبيعه ، ومن كان حراً صيرناه أسوة الجند . ورضي المغاربة بذلك وتوسط لهم (وصيف) حتى رضي المتوكل عنهم وساواهم بالأتراك[2] .

ودخل نصر بن علي الجهضمي على المتوكل ، فحثه على الرفق بالرعية ، وأخذ يمتدح الرفق وأطال الحديث ، والمتوكل صامت وسكت فترة ثم أنشد :

الرفق يمن ، والأناة سعادة فاستأن في رفق ، تلاق نجاحا
لا خير في حزم بغير روية والشك وهن إن أردت سراحا[3]

وقال المتوكل ليزيد المهلبي عبارة ترسم أبعاد سياسته ، فقال : يا مهلبي ، إن الخلفاء كانت تتصعب على الرعية لتطيعها ، وأنا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني[4] .

صفات المتوكل الخلقية والنفسية :

قضى المتوكل خمسة عشر عاماً في الخلافة (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) ، وتعددت جوانب واتجاهات سياسته واختلف المؤرخون أيضاً في تقييم سياسته ، وفي الحكم على ملامح عصره وعلى أخلاقه . فقال المسعودي :[5]

---

(١) الطبري جـ٧ ص ٣٤١- ٣٤٢ .
(٢) الطبري جـ٧ ص ٣٤٢ .
(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ٥ ص ١٦٦ .
(٤) المصدر السابق.
(٥) مروج الذهب جـ٤ ص ٨٦ .

« وكانت أيام المتوكل أحسن أيام وأنضرها . من استقامة الملك ، وشمول الناس بالأمن والعدل ، ولم يكن المتوكل ممن يوصف بعطائه وبذله بالجود ، ولا بتركه وإمساكه بالبخل ، ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل مما قد استفاض في الناس تركه إلا المتوكل فإنه السابق إلى ذلك والمحدث له وأحدث أشياء فاتبعه فيها الأغلب من خواصه وأكثر رعيته فلم يكن في وزرائه والمتقدمين من كتابه وقواده من يوصف بجود ولا أفضال أو يتعالى عن مجون وطرب » .

وهذا النص للمسعودي يوضح حقائق هامة ، فهو أول خليفة عباسي يجهر باللعب والهزل وقد كان الخلفاء التسعة الأوائل يعيشون حياتهم الخاصة رغم ما فيها من لهو أو لعب بعيداً عن عيون رعاياهم فلا يعلمون عنها شيئاً كما كان هؤلاء الخلفاء غالباً ما يظهرون بمظهر الورع والتقوى والتدين باعتبارهم ورثة الرسول عليه الصلاة والسلام في الحكم ولانتسابهم إلى البيت الهاشمي وخاصة أن أعداءهم العلويين كانوا على جانب كبير من العلم والورع . وامتد هذا السلوك إلى رجال الدولة فاشتهروا بالوقار والجد .

والسيوطي[١] يستنكر مبالغات المعاصرين والمؤرخين على السواء في امتداح المتوكل ، فيقول : « وتوفر دعاء الخلق للمتوكل ، وبالغوا في الثناء عليه والتعظيم له ، حتى قال قائلهم : الخلفاء ثلاثة ، أبو بكر الصديق رضي الله عنه في قتل أهل الردة ، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم ، والمتوكل في إحياء السنة وإماتة التجهم » .

ويصور المسعودي في كتابه (مروج الذهب) مجالس الشراب التي عقدها المتوكل دائماً ، وقد حفلت باللهو والجواري والشعر حيث يرتدي ملابس حمراء ويغرق في الخمر حتى يسكر « سكراً شديداً . وكان من عادته أنه إذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه » .

وكان المتوكل مجموعة من المتناقضات فهو يحيي السنة ويبطل البدع

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣٤٦ .

تقرباً إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يتوقف عن قضية خلق القرآن وما ترتب عليها من محن وقلق وتعذيب . وهو يشدد على أهل الذمة ويفرض عليهم القيود ، وهو يشيد المدن والمباني ويهتم بالعمران والتعمير وهو أيضاً يغدر برجاله ، ويفرط في مصادرة الأموال ، ويضطهد الإمام أحمد بن حنبل ، ويضطهد العلويين والشيعة .

وقضى المتوكل فترة خلافته ، حائراً قلقاً ، لا يشعر بالسعادة الحقيقية فلم يجدها في مجالس لهوه ، لا في الخمر ، ولا عند الجواري ، متردداً بين الاعتماد على الأتراك أو العرب ، حائراً بين البقاء في سامرا المدينة التركية أو الانتقال إلى الشام العربية . يشغل نفسه بالبناء أحياناً أو ابتكار زي من الأزياء أحياناً أخرى .

وخير ما يصور الحيرة والقلق ، رواية للخطيب البغدادي[1] ، فروى عن الفتح بن خاقان : « دخلت يوماً على المتوكل أمير المؤمنين ، فرأيته مطرقاً يفكر ، فقلت : ما هذا الفكر يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ما على الأرض أطيب منك عيشاً ، ولا أنعم منك بالاً . فقال : يا فتح ، أطيب عيشاً مني رجل له دار واسعة ، وزوجة صالحة ، ومعيشة حاضرة ولا يعرفنا فنؤذيه ولا يحتاج إلينا فنزدريه .

وربما أثرت عدة عوامل في نفسية المتوكل ، وفي اتجاهاته ، فهو لم يعدّ الإعداد اللازم ليكون خليفة ، فقد اهتم المعتصم بولي عهده هارون الواثق فركز فيه كل الاهتمام والإعداد . بينما أهمل الأولاد السبعة الآخرين ومنهم جعفر المتوكل . كما لقي المتوكل في حياة أخيه الواثق اضطهاداً واهمالاً ، بل أصبح كالمحجور عليه ، أو المحدد إقامته ، فروى الطبري :[2] « وكان الواثق قد غضب على أخيه جعفر المتوكل لبعض الأمور ، فوكل عليه عمر بن فرج الرخجي ، ومحمد بن العلاء الخادم ، فكانا يحفظانه ويكتبان بأخباره في كل

---

(١) تاريخ بغداد جـ٥ ص ١٦٩ .
(٢) تاريخ الطبري جـ٧ ص ٣٤٣ .

وقت . فصار جعفر إلى محمد بن عبد الملك يسأله أن يكلم له أخاه الواثق ، ليرضى عنه ، فلما دخل عليه مكث واقفاً بين يديه ملياً لا يكلمه ، ثم أشار إليه أن يقعد فقعد ، فلما فرغ من نظره في الكتب التفت إليه كالمتهدد له . فقال : ما جاء بك ؟ قال : جئت لتسأل أمير المؤمنين عني . فقال لمن حوله : انظروا إلى هذا يغضب أخاه ويسألني أن أسترضيه له ، اذهب فإنك إذا صلحت رضي عنك ، فقام جعفر كئيباً حزيناً ، لما لقيه به من قبح اللقاء والتقصير به . فخرج من عنده فأتى عمر بن فرج ليسأله أن يختم له صكه ليقبض أرزاقه ، فلقيه عمر ابن فرج بالخيبة ، وأخذ الصك فرمى به إلى صحن المسجد » .

وتعددت مواقف رجال الدولة في عهد الواثق من جعفر المتوكل ، فمنهم من أكرمه ، والغالبية تضطهده نتيجة غضب الواثق عليه . وقلب المتوكل يمتلىء بالغضب والبغضاء والحقد ، حتى إذا ساقت الأقدار إليه الخلافة ، وكان لا يتوقعها ولا يسعى إليها ، بدأ انتقامه ممن أهانوه واضطهدوه في عهد الواثق ، بل رأى أن يختط لنفسه خطاً متميزاً مغايراً لخط الواثق السياسي والديني .

وهكذا جمع عصر المتوكل كثيراً من المتناقضات ، صورها المستشرق (وليم ميور)[١] في قوله : إن امتداح المؤرخين لعصر المتوكل الذي استمر خمس عشرة سنة، أعاد في خلالها المذهب السني إلى ما كان عليه ، وشجع الشعراء والعلماء ، يخفف بعض الشيء مما اشتهر به هذا العهد من الظلم المنطوي على القسوة والانغماس في الملاذ والتطرف في الآراء الدينية .

٢ ـ بداية العصر العباسي الثاني وعصر نفوذ الأتراك

اعتاد المؤرخون تقسيم عصر الدولة العباسية (١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ) إلى عصرين متميزين : العصر الأول وقد استمر مائة سنة (١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ) ،

---

(١) The Caliphate.

والعصر الثاني ويبدأ سنة ٢٣٢ هـ وينتهي بسقوط الدولة العباسية نتيجة الغزو المغولي سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م).

كما اعتاد المؤرخون أيضاً تقسيم هذا العصر العباسي الثاني إلى مراحل متميزة، لكل مرحلة خصائصها، أولها عصر نفوذ الأتراك ويستمر اثنتين وتسعين سنة (٢٣٢ - ٣٢٤ هـ) وعصر إمرة الأمراء، ويستمر عشر سنوات (٣٢٤ - ٣٣٤ هـ)، وعصر بني بويه (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ)، والعصر السلجوقي (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ).

ويبدأ العصر العباسي الثاني، وعصر نفوذ الأتراك، بعصر الخليفة المتوكل على الله. فقد ورث المتوكل أعباء التركة الثقيلة التي تركها أبوه المعتصم بالله وأخوه الواثق بالله، نتيجة سياستهما في الاعتماد على الأتراك، في السياسة والإدارة. وكان المعتصم قد أحدث انقلاباً سياسياً خطيراً في الدولة العباسية حين تحول عن السياسة العباسية التقليدية في الاعتماد على العناصر الفارسية، إلى الاعتماد على الأتراك. ولكن عصر المعتصم كان فترة تحول وانتقال، كما كان المعتصم من قوة الشكيمة والحزم ما يجعله يمسك بزمام الموقف في يديه. أما عصر الواثق بالله، فهو فترة قصيرة، استمرت أقل من ست سنوات، بدأ خلالها تبلور نفوذ الأتراك، حيث أخذ الأتراك يجمعون في أيديهم أطراف السلطة والنفوذ، حتى إذا تولى الخليفة المتوكل على الله اتضح الموقف وظهر النفوذ التركي جلياً سافراً.

قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ على أكتاف الفرس، واصطبغ العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) بصبغة فارسية، في مجالات السياسة والإدارة والحضارة. واختلفت في ذلك عن الدولة الأموية (٤٠ - ١٣٢ هـ) التي كانت عربية الطابع. فقد وقفت العناصر الفارسية في خراسان وراء الدعوة العباسية (١٠٠ - ١٣٢ هـ) وكانت من عوامل قيام خلافة بني العباس.

قال المسعودي[1]: «وكانوا يسمون باب خراسان في بغداد باب الدولة،

---

(١) مروج الذهب جـ٢ ص ١٨٣.

لاقبال الدولة العباسية من خراسان » وقال الجاحظ[1] عن الدولة العباسية : « دولة بني العباس أعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية عرابية » .

أوصى الخليفة أبو جعفر المنصور ابنه وولي عهده محمد المهدي فقال : « وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ، ودماءهم دونك ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم وتخلف من مات فيهم في أهله وولده »[2] .

وكافأ العباسيون ـ فعلاً ـ العناصر الفارسية ، على ما كان منهم ، من تأييد ومناصرة للدعوة العباسية ، في فترة كفاحها ونضالها للدولة الأموية .

أشار المستشرق (فلهوزن)[3] إلى علو شأن الفرس ، فقال : علا شأن الأعاجم ، وصار العرب منذ أن انتهت سيادة بني أمية أمة مضطهدة ، وقد تنبأ بذلك نصر بن سيار[4] ، وكان ذلك أيضاً مما تقضي به طبيعة الأشياء لكنه لم يكن المعضد الأصلي . وقد غلبت قومية الغالبين على الإسلام نفسه ، بعد أن كبرت وترعرعت، ولكن الإسلام، لا فكرة القومية هو الذي كان القوة الدافعة في نهوض أهل خراسان ، كما أن الإسلام كان من قبل هو القوة الدافعة في نهوض العرب أنفسهم ، وهنا في خراسان كان الإسلام مفهوماً جديداً حليفاً لأمة جديدة .

يعتبر أبو جعفر المنصور هو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، وقد اقتبس معظم نظم الدولة العباسية ، السياسية والإدارية ، عن الدولة الفارسية الساسانية ، وخاصة نظام الوزارة ، كما احتفل العباسيون بالأعياد الفارسية . وفي ذلك يقول المستشرق (بالمر)[5] : لما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم

(١) البيان والتبيين جـ٣ ص ٢٠٦ .

(٢) الطبري جـ٦ ص ٣١٩ .

(٣) فلهوزن : الدولة العربية ص ٥٠٦ .

(٤) وهو الوالي الأموي في خراسان في عهد الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد .

(٥) Palmer: Haroun Al-Rashid, p.37- 38; (London, 1881).

للفرس ، فقد سادت الأفكار والنظم الفارسية ، فتولى الفرس الوزارة ، كما اتبعت الدولة العباسية نظم الإمبراطورية الساسانية .

وأشار (فان فلوتن)[1] إلى السيادة الفارسية في الدولة العباسية ، فقال : ومنذ قيام الدولة العباسية أصبح الخراسانيون من الفرس ، أشد الناس ولاء لذلك العرش الجديد . كذلك رفع الموالي المضطهدون ـ الذين كانوا السبب في سقوط الدولة الأموية ـ رؤوسهم وأسندت اليهم المناصب الهامة في قصر الخليفة وفي الجيش والمالية كما أسندت إليهم إمارة الولايات الإسلامية حتى حسدهم العرب وقد أصبحوا أقل شأناً منهم .

ولكن قيام حركات الزنادقة أثر في هذا الانحياز الواضح للعناصر الفارسية ، فقد كان الفرس هم عدة وعمد حركات الزنادقة ، وكانت خراسان هي الأرض الصالحة التي نبتت فيها أفكار وتيارات الزندقة ، ولذا بدأ الخلفاء العباسيون يعيدون النظر في سياستهم نحو كل من العناصر الفارسية والعربية ، وهم وإن لم يبعدوا الفرس إلا أنهم لم يهملوا العرب .

تحدث المستشرق (فلهوزن)[2] عن سياسة العباسيين في الحكم والإدارة ، فقال : إنه بتغير الأسرة الحاكمة تغيرت أيضاً طريقة الحكومة الداخلية . أما أن النفوذ الفارسي كان هو الراجح في ذلك فهو غير مؤكد ، أما الذي لا شك فيه فهو أن نظام الحكم الداخلي لم يصبح عربياً على الإطلاق . وكان العرب بحكم أنهم الأمة الفاتحة قد أصبحوا في العصر الأموي طبقة ارستقراطية حاكمة ، أما في أيام بني العباس فقد زال هذا النظام بزوال ما كان يستند إليه من فوارق بين الطبقات . وكان جميع المسلمين أيام بني العباس سواء ، ليس بينهم تفاوت طبقي في الحقوق السياسية وكان للعباسيين وحدهم الحق المقدس في الرئاسة باعتبار أنهم ورثة النبي عليه الصلاة والسلام . ولكن العباسيين من جهة أخرى أخمدوا في الناس روح الاهتمام بمسائل السياسة بعد

---

(١) السيادة العربية ص ٣٤ .

(٢) الدولة العربية ص ٥٢٨ ـ ٥٢٩ .

أن كان هذا من قبل جزءاً من الدين ، فأصبح المسلمون جميعاً ، العرب منهم وغير العرب ، مجرد رعايا ، ولكن لم يكونوا يستطيعون أن يأخذوا نصيبهم في تدبير الأمور العامة للدولة ، فانصرفوا إلى ميدان الصناعات أو الاشتغال بالعلوم والفنون ، ولم يكونوا يستطيعون أكثر من التآمر سراً .

وشعر الفرس بأهميتهم ومنزلتهم ، مما أثار فيهم روح الشعوبية ، والعصبية الجنسية ، والاعتزاز القومي والتمسك بالحضارات والديانات الفارسية القديمة . وكانت عامة الفرس اكثر شعوبية وتعصباً من أشراف الفرس ، فيقول ابن قتيبة[1] « ولم أر في هذه الشعوبية أرسخ عداوة ، ولا أشد نصباً للعرب من السفلة ، والحشوة ، وأوباش النبط ، وأبناء أكرة القرى . فاما أشراف العجم ، وذوو الأخطار منهم ، وأهل الديانة ، فيعرفون ما لهم وما عليهم ، ويرون الشرف نسباً ثابتاً » .

وإذا كان المعتصم بالله ، الخليفة العباسي الثامن ، قد رأى التحول التام عن الاعتماد على الفرس إلى الاعتماد على الأتراك ، فقد رأى الخليفة العباسي الثالث محمد المهدي حفظ التوازن ما بين العرب والفرس ، فكانت حلا وسطاً ، وخطوة مبدئية مهدت لسياسة المعتصم فيما بعد .

ويرى المرحوم أحمد أمين[2] أن الدولة العباسية وإن كانت قد قامت على أكتاف الفرس ، واصطبغت بصبغة فارسية إلا أن الخلفاء العباسيين لم ينسوا عروبتهم ولم يهملوا تماماً العنصر العربي ، فيقول : قامت الدولة العباسية ونال الفرس بعض أمنيتهم ، لا أمنيتهم كاملة ، فأمنيتهم الكاملة أن تقوم دولة فارسية بملوكها وعمالها ، ولكن ما نالوه ليس قليل الخطر ، فالخلفاء العباسيون مقتنعون أن دولتهم قامت على أكتاف الفرس ، ولكن الخلفاء العباسيون عرب هاشميون وهم يفخرون بذلك ، وهم وإن حفظوا للفرس جميلهم فلم ينسوا عروبتهم ، ويوم شعروا أن الفرس زاحموهم في سلطانهم نكلوا بهم . وإذا كان

---

(١) ابن قتيبة : كتاب العرب من رسائل البلغاء ص ٢٥٢ .
(٢) ضحى الاسلام جـ١ ص ٣٥- ٣٧ .

للفرس في العصر العباسي الأول نفوذ كبير ولكن ليس معنى هذا انعدام العرب .

وتحدث الدكتور الدوري[1] عن سياسة المحافظة على التوازن بين العرب والفرس ، فقال : أعلن العباسيون أن مجيئهم للحكم بداية عصر جديد من العدل والرفاهية الاجتماعية ، وساروا خطوة إيجابية حين أشركوا الفرس في السلطة في الجيش والإدارة ، بل وأقاموا أساس الدولة على التوازن والتعاون بين الفرس والعرب ، وكان في خطة تعيين الوزير من الموالي إلى جانب الخليفة وهو عربي ، رمز هذه المشاركة في السلطة . وينتظر أن يرضي هذا الاتجاه أولئك الذين يدعون إلى المساواة بين العرب والموالي إن كانت دعوتهم صادرة عن إيمان بمبادىء الإسلام .

حقاً كانت المناصب الكبرى في أيدي الفرس ، ولكن كان الخليفة عربياً ، فله قواده وولاته من العرب ، إلى جانب القواد والولاة الفرس . ولذا يمكننا أن نقول أن الدولة العباسية جعلت كفة الفرس هي الراجحة ، ولكن الخلفاء العباسيين لم يهملوا العرب وعملوا على أن يمسكوا بميزان القوى في أيديهم .

عمل الخلفاء العباسيون على أن يحفظوا التوازن بين العناصر العربية والعناصر الفارسية وسخروا هذه العناصر كلها لخدمة الدولة العباسية وتدعيم أسسها . ولم يكن من حسن السياسة في العصر العباسي الأول أن يعتمد الخليفة على العناصر العربية وحدها وإهمال الفرس تماماً . فقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس والخراسانيين وكانت تلك العناصر تمثل حينئذ غالبية أهل العراق . كما أن العصبية القبلية وعصبية العرب المضريين والعرب اليمنيين ، أدت إلى ضعف العناصر العربية . وكان العرب يميلون إلى بني أمية ويتمنون عودة دولتهم التي تعصبت للعنصر العربي[2] .

---

(١) الجذور التاريخية للشعوبية ص ٣٨ - ٣٩ .
(٢) الخربوطلي : المهدي العباسي ص ١٤٥ .

وحاول الخلفاء العباسيون بعد المهدي ، المحافظة على سياسة حفظ التوازن بين العرب والفرس . وكانوا ينجحون في ذلك أحياناً ، وقد يختل التوازن أحياناً أخرى فترجح كفة على كفة . وفي أوائل عهد الخليفة العباسي الخامس هارون الرشيد رجحت كفة الفرس باستئثار البرامكة بالسلطة والنفوذ ، وهنا يتدخل الرشيد لتحقيق التوازن ، فينكب البرامكة . ورغم وجود نفوذ البرامكة فقد كان هناك حزب عربي في بلاط الرشيد يتزعمه الوزير العربي الفضل بن الربيع وتناصره زبيدة زوجة الرشيد وهي عربية هاشمية عباسية[1] .

وكان الصراع بين الأخوين الأمين والمأمون ، هو في الحقيقة صراع بين العرب والفرس . فقد ناصر العرب الخليفة الأمين لأن أمه زبيدة العربية ، بينما ناصر الفرس المأمون ابن مراجل الفارسية[2] . ورجحت كفة الفرس طوال خلافة الأمين ، ووقف الفرس الخراسانيون وراء المأمون في صراعه للأمين الذي انتهى بمصرعه . وعاش المأمون ست سنوات في مرو بخراسان كالمحجور عليه ، بينما السلطة الحقيقية للوزير الفارسي الفضل بن سهل[3] ، الذي أقنعه بتحويل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي ، حين أخذ البيعة بولاية العهد للإمام العلوي علي الرضا[4] . وأدرك المأمون خطورة هذه السياسة ، ولذا سارع بتدبير اغتيال كل من الفضل بن سهل وعلي الرضا ، ثم عاد إلى العاصمة العباسية بغداد[5] .

ويظلم بعض المؤرخين ـ عادة ـ المعتصم حين ينسبون إليه أنه هو الذي بدأ يدخل العناصر التركية في الدولة العباسية . فقد بدأ هذه السياسة الخليفة العباسي السابع المأمون .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ٦ ص ٨٠ وما بعدها، الفخري ص ١٨٠ وما بعدها . الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٦٠ وما بعدها .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ٦ ص ٧٣ .

(٣) اليعقوبي جـ٣ ص ١٦٦ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب جـ٣ ص ٣٦٤ .

(٥) الطبري جـ٧ ص ١٥٩، ابن الاثير : الكامل جـ٦ ص ١٠١ .

كان موطن العناصر التركية في بلاد ما وراء النهر[١] ، وبدأ انتشار الإسلام بين الأتراك على نطاق واسع ، في عهد الخليفتين الأمويين عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك[٢] . وفي العصر العباسي قدم كثير من الأتراك إلى العاصمة بغداد ، كهدايا يرسلها ولاة الأطراف الشرقية أو كرقيق أسرى نتيجة الحروب التي قامت في وسط آسيا[٣] . وكان كثير من العباسيين يفضّل استخدام الخدم الأتراك ، وامتلاك الجواري التركيات ، لجمال مظهرهن وصحة أبدانهن[٤] . واتخذ الخليفة أبو جعفر المنصور حماداً التركي ، واتخذ الخليفة المهدي مباركاً[٥] .

وكان المأمون أول من استخدم الأتراك في الجيش العباسي ، ويروي الطبري أن الأتراك قد اشتركوا في الجيش الذي قاتل به أخاه الأمين[٦] . ورأى المأمون أن يكبح جماح العرب والفرس على السواء ، وقد وضحت آثار عدائهم خلال صراعه لأخيه الأمين فرأى في استخدام الأتراك تخفيفاً لحدة النزاع العربي الفارسي . وكان المأمون قد خبر الأتراك وعرفهم خلال إقامته في خراسان فاستقدم منهم عدداً ألحقهم بجيشه[٧] .

ثم رأى المعتصم إحداث انقلاب سياسي جوهري ، فبدأ في عهده التوسع في الاعتماد على الأتراك . وبدأ المعتصم هذه السياسة في عهد أخيه المأمون فقد كان يبعث رسله إلى سمرقند ، في كل سنة ، لشراء الأتراك ، حتى اجتمع له نحو ثلاثة آلاف تركي ، استخدمهم في قتال الروم . حتى إذا تولى المعتصم الخلافة توسع في هذه السياسة حتى صار معظم جنود جيشه من أهالي

---

(١) تم فتح هذه البلاد في عهد الوليد بن عبدالملك وتولى الفتح والي خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي (البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٢١).

(٢) ارنولد: الدعوة الى الاسلام ص ١٨٥- ١٨٦ .

(٣) الثعالبي : لطائف المعارف ص ٢٠ .

(٤) جمال سرور : الحضارة الاسلامية في الشرق ص ٢١ .

(٥) الثعالبي : لطائف المعارف ص ٢٠ .

(٦) الطبري جـ ٧ ص ١١٤ .

(٧) محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ٧٧ .

بلاد ما وراء النهر ، من الصغد والفراغنة والأشروسنة والشاش[1] .

ينسب المؤرخون سياسة اعتماد المعتصم على الأتراك إلى عدة عوامل . فمنهم من ينسبها إلى تأثر المعتصم بأمه التركية (ماردة)[2] ومنهم من ينسب هذه السياسة إلى ثورة الجند الفرس على المعتصم حين تولى الخلافة ، مناصرة للعباس بن المأمون[3] .

ويرى الدكتور الدوري[4] أن سياسة المعتصم هذه كانت نتيجة اختلال التوازن بين العرب والفرس واستحالة التوفيق بينهما فالتجأ إلى الأتراك وجعل منهم قوة عسكرية يعتمد عليها .

ولكننا ننسب سياسة المعتصم إلى عاملين أكثر أهمية ، وإن كنا لا ننكر تأثير العوامل السابقة . أما العامل الأول فهو انتشار تعاليم الزندقة بين العناصر الفارسية وترويج الفرس للتعاليم المانوية المتشائمة الهدامة[5]، والتعاليم المزدكية الإباحية الفوضوية . ومحاولتهم إحياء الأفكار المجوسية البائدة ، وبعث الدولة الساسانية القديمة . ولذا نظر العباسيون إلى الزنادقة الفرس على أنهم أعداء سياسيون للدولة فضلاً عن عدائهم للإسلام والعروبة . أما العامل الثاني فهو اعتناق معظم الفرس لتعاليم الشيعة وتكرر محاولات تحويل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي[6] . وشعر المعتصم بالملل من الصراع الشعوبي المستمر بين العرب والفرس ، فرأى الاعتماد على عنصر ثالث بعيد عن الزندقة والتشيع ، والشعوبية ، فاختار الأتراك .

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٣١ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ٣ ص ٣٤٦ .

(٢) اليعقوبي جـ٢ ص ٥٧٤ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٥ ص ١٢١ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ٨ ص ٢٩٧ .

(٣) الطبري جـ٧ ص ١٩٨ .

(٤) الدوري : العصر العباسي الأول ص ٢٣٠ .

(٥) كان ماني يعتبر وجود الانسان على الأرض جناية عليه ويرى انه ما دام مصير هذا العالم الفناء فعلى الانسان أن يتعجل الفناء فلا يعمل ولا ينتج ولا يتزوج ولا ينجب .

(٦) مثل محاولات الوزير ابي سلمة الخلال ومحاولات البرامكة ، والوزير الفارسي الفضل بن سهل .

تحدث (فلهوزن)[1] عن رغبة العباسيين في التخلص من نفوذ العناصر الفارسية الخراسانية ، فقال : آل أمر أهل خراسان إلى أن صاروا فيما بعد قذى في أعين العباسيين فتخلص الخليفة المنصور من وصاية أبي مسلم الخراساني بعد أن أصبح غير محتاج إليه ، وقد حاول الخليفة هارون الرشيد القضاء على أهل خراسان أو تنحيتهم جانباً . كما حاول العباسيون ذلك عن طريق اتخاذ عدد كبير من الجند المرتزقة من البربر والصقالبة وأهل الصغد والترك وتسليحهم وتنظيمهم للاستعانة بهم على الخراسانيين وكل ما أفلحوا فيه لا يعدو أنهم أوقعوا أنفسهم تحت رحمة هؤلاء المماليك واستبدادهم ، وخاصة الترك من بينهم ، وانتهى الأمر بأن فقد العباسيون كل حول وقوة وانحلت دولتهم .

عاش الأتراك في مواطنهم الأصلية حياة بدوية ، وحضارتهم في الطور الرعوي . واشتغلوا أحياناً بالغزو من أجل الغنائم ، فاعتادوا حياة القتال المستمر . ونشأوا على الفروسية وتعلم ركوب الخيل . والمبارزة بالسيف ، كما اشتغلوا بالصيد ، والرحلات الطويلة واكتسبوا من البادية قوة الأبدان والطاعة والصبر وغلظة الطباع وجفاف الأخلاق[2] .

ومضى المعتصم في سياسة الاعتماد على العناصر التركية ، فيقول المسعودي[3] : « وكان المعتصم يحب جمع الأتراك وشراءهم من أيدي مواليهم فاجتمع له منهم أربعة آلاف ، فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة ، وأبانهم عن سائر جنوده » . وتكاثر عدد الأتراك حتى بلغ عددهم سبعين ألفاً ، وفي ذلك يقول علي بن الجهم[4] :

أمامي من له سبعون ألفاً   من الأتراك مسرعة السهام

لم يكن هؤلاء الأتراك على قدر من الحضارة مما يمكنهم من معايشة

---

(١) فلهوزن : الدولة العربية ص ٥٣٣ .

(٢) الجاحظ : مناقب الترك (رسائل الجاحظ) ص ٤٥ ، ابن حسول : تفضيل الاتراك ص ٤٠ وما بعدها .

(٣) مروج الذهب جـ ٤ ص ٥٣ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان (مادة سر من رأى) .

أهالي بغداد من الفرس والعرب وهم على جانب كبير من الرقي الحضاري فاستهتروا بأرواح الناس وعبثوا بالأمن ، فقال عنهم الخطيب البغدادي[1] : « كانوا عجماً جفاة يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة ويطأون الصبي » .

أصبحت هذه القوة العسكرية التركية ، بدوية الحضارة ، تمثل وضعاً غريباً في العاصمة العباسية بغداد ، وبدأت الشعوبية التقليدية التي كانت بين العرب والفرس ، تتضاءل أو تتوقف ولو مؤقتاً ، لمواجهة هذا العنصر الجنسي الجديد الذي بات يمرح في بغداد ، مستعرضاً قوته ، معتمداً على تأييد الخليفة . فبدأ تحالف جديد ، عربي فارسي ، لمواجهة الأتراك وتعالت أصوات الشكوى والاحتجاج في بغداد ، ورأى المعتصم حل هذه المشكلة بالخروج بأتراكه من بغداد ليبني لهم عاصمة جديدة هي سامراء[2] .

دخل الأتراك في خدمة الدولة ليكونوا عامل توازن بين العرب والفرس ، وتزايد عددهم بدرجة واضحة في عصر المعتصم الذي اطمأن إليهم إلى حد كبير وأسند إليهم كثيراً من المناصب العليا في الدولة . وقد تمكن الأتراك من أن يجعلوا نفوذهم محسوساً منذ اللحظة الأولى . وتأثيرهم في هذا يختلف عن تأثير أسلافهم الفرس من حيث الشكل ذلك أن الأتراك علموا أنهم إنما جاءوا ليكونوا قوة عاملة فعالة تستند إليها الخلافة ، فعملوا بما يحقق هذا الهدف مباشرة أو من أقصر الطرق . بينما كان الفرس يحاولون في فترة نفوذهم إشعار الشعب بصفة عامة بحاجته إليهم ، واستخدموا في سبيل هذا موارد الدولة المادية إلى جانب التأثير السياسي المنظم ، وفي طبيعة كل من العنصرين ما يساعده على اتباع وسيلته الخاصة في سياسته وسلوكه . فللفرس مجد قديم وتاريخ حضاري طويل ، تدربوا فيه على الأساليب السياسية وقد وضعوا نصب أعينهم أن يعملوا على استعادة هذا المجد في حكمة وفي هدوء . على حين لم يكن لهذه

---

(١) تاريخ بغداد جـ٣ ص ٣٤٦ .

(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٥٦ مسكويه : تجارب الامم ص ٤٧٨ ؛ ابن الاثير : الكامل جـ٧ ص ١٢ .

الجماعة التركية التي التحقت بخدمة العباسيين في سابق تاريخها إلا وسائل الحياة البدوية المعروفة[1] .

انتقل المعتصم إلى سامراء ، بعد عامين تقريباً من توليه الخلافة ، وأصبح الأتراك يمثلون قوة عسكرية كثيرة العدد ، حسنة التدريب تواجه الاضطرابات الداخلية والأعداء الخارجيين البيزنطيين وقد تولى القائد التركي الافشين إخماد حركة بابك الخرمي[2] ، كما قاد أمر الجيوش التي قاتلت البيزنطيين[3] .

ومن أبرز الأتراك في عهد المعتصم : أشناس ، وقد اشترك في قتال البيزنطيين[4] . وإيتاخ الذي تولى مهام إدارية منوعة ، منها معونة سامراء[5] . ثم ولاه حكم اليمن[6] . وبغا الكبير الذي اشترك في قتال بابك الخرمي والزنادقة[7] . كما اشترك مع المعتصم في موقعة عمورية ، وغضب القائد العربي عجيف بن عنبسة على تفضيل المعتصم للقادة الأتراك كالافشين وأشناس في غزوة عمورية ، على القواد العرب ، حتى انه حاول أن يثير مشاعر العباس ابن المأمون ضد عمه المعتصم ، ولكن العباس رأى إرجاء الأمر حتى ينتهي قتال الروم[8] . ثم دبر عجيف والعباس مؤامرة لاغتيال المعتصم والافشين وأشناس ، وأخفقت المؤامرة ولقي المتآمران حتفهما[9] . وخان الافشين الأمانة ، وتنكر للإسلام وللخليفة وللدولة ـ كما رأينا ـ مما جعل المعتصم يقبض عليه ويحاكمه ويسجنه[10] .

---

(١) محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ٧٩ .
(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ٦ ص ١٦٥ .
(٣) اليعقوبي جـ ٢ ص ٥٨٠ .
(٤) الطبري جـ ٧ ص ٣٣٠ .
(٥) الطبري جـ ٧ ص ٣٣٣ .
(٦) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٩٢ .
(٧) مؤلف مجهول : العيون والحدائق ص ٣٨٥ .
(٨) الطبري جـ ٧ ص ٣٣٨ .
(٩) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٦ ص ٥٠٠ وما بعدها .
(١٠) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٨٥٣ ، الطبري جـ ٧ ص ٣٤٢ ، الدينوري : الأخبار الطوال ص ٤٠١ .

وأدرك المعتصم خطورة سياسة الاعتماد على العناصر التركية ، وندم على سياسته ، ولكن لم يكن يستطيع التراجع فقد أصبحت سياسة مقررة ، كما تكاثر عدد الأتراك وتغلغلوا في الجيش والحكومة . وعبر المعتصم عن ندمه لإسحق بن إبراهيم فقال: « في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة. نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم . . . . طاهر بن الحسين ، فقد رأيت وسمعت ، وعبدالله بن طاهر ، فهو الرجل الذي لم ير مثله ، وأنت ، فأنت والله الذي لا يعتاض السلطان منك أبداً ، وأخوك محمد بن إبراهيم وأين مثل محمد ؟ وأنا ، فاصطنعت الافشين فقد رأيت إلى ما صار أمره ، وأشناس ، ففشل رأيه ، وإيتاخ فلا شيء ، ووصيف فلا مغني فيه » ، فقال إسحق بن إبراهيم للمعتصم :«نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها ، فأنجبت فروعها واستعمل أمير المؤمنين فروعاً ، فلم تنجب إذ لا أصول لها » . فقال المعتصم : « يا إسحق ، لمقاساة ما مرّ بي في طول هذه المدة أسهل علي من هذا الجواب»[1]

أخذ هؤلاء الأتراك الذين كانوا بعيدين عن الحضارة والعلم، يندمجون في طبقات الأمراء المثقفين ، فاعتنقوا الإسلام وتأدبوا بآدابه ، وتعلموا العربية ، ووقفوا على أحكام القرآن ، ودرسوا العلوم الطبيعية والسياسية حتى إذا ما أصبح أحدهم ذا كفاية تؤهله للاضطلاع بشئون الدولة أو القيام بأعباء المناصب العالية في البلاط ، تحرر من عبوديته وتولى المنصب الذي يتناسب مع كفاءته ومواهبه . ومن ثم رشحوا للمناصب على اختلافها ، ووصلوا إلى أعلى مراتبها ، من الاندماج في سلك البلاط إلى تقلد أكبر الولايات[2] .

علق المستشرق (ستانلي لينبول)[3] على سياسة الدولة العباسية في الاعتماد على الأتراك ، فقال : إن هذا الانقلاب إلى الحكم التركي كان مظهراً

(١) الطبري جـ٧ ص ٣٤٥ .
(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ٢ ص ١٧٢ .
(٣) Hist. of Egypt in the Middle Ages. p.29.

من مظاهر الثورة التي شعرت بها معظم ولايات الخلافة ، وأدت إلى تدهور سلطة الخلافة ، ثم زوالها في النهاية .

ولم يكتف الأتراك بأن يعملوا إلى جانب الخلافة لمساعدتها على مواجهة عوامل الخطر من جهة الفرس وتطاولهم في نفوذهم وإنما أرادوا أن ينفردوا بالسلطان الفعلي دون الخلفاء . وإذا كان من الصعب القول بأنهم كانوا يطمعون في هذا بطريقة شعورية إرادية فإن من الثابت المؤكد أنهم استطاعوا أن يكونوا أصحاب السلطان المطلق المستبد في فترة امتدت نحو قرن ، كما أن من المؤكد كذلك أن الظروف التي وجدوا فيها والصفات العنصرية التي اتصفوا بها مكنت لهم ووضعتهم في مكان الصدارة . وهذه الخصائص العنصرية نفسها هي التي جعلتهم يوسعون شقة الخلاف الذي ظهر بين طوائفهم المختلفة حين ظهر ، بدلاً من أن يتعاونوا على رأب الصدع وجمع الكلمة[1] .

وبلغ من نفوذ هؤلاء الأتراك أن أخذ الخلفاء يقطعونهم الولايات الإسلامية على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً معيناً من المال على نحو ما كان متبعاً في نظام الإقطاع تقريباً ، ذلك النظام الذي ذاع في أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين[2] .

وتولى الواثق بالله (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ)[3] الخلافة في العاصمة التركية سامراء ، التي بناها أبوه المعتصم ، وسار الواثق في نفس الخط السياسي ، فتكاثر عدد الأتراك وتولوا المناصب الرئيسية في الجيش والحكومة . وأصبح (أشناس) التركي صاحب السلطة الحقيقية ، وتلقب بلقب سلطان ، وخلع عليه الخليفة تاجاً مرصعاً بالجواهر[4] . وتولى أشناس أعمال الجزيرة والشام ومصر والمغرب ، فولى عليها ولاة وظل مقيماً في العاصمة سامراء[5] . وبدأ

---

(١) محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ٨٠ .
(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ٢ ص ١٧٢ .
(٣) ٨٤٢ ـ ٨٤٧م .
(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٢٥ .
(٥) ابن الاثير : الكامل جـ٧ ص ١٥ .

ضعف الحكومة المركزية ، وتخلخل الجهاز الإداري وانتشرت الرشوة والفساد بين رجال الدولة(1) .

تولى إيتاخ الحجابة ، ثم إدارة خراسان والسند وكور دجلة(2) . حتى إذا توفي أشناس التركي ، خلفه إيتاخ . ويبرز أيضاً (وصيف التركي) وأصبح من كبار قواد الخليفة الواثق ، وقاتل الأكراد الثائرين في أصفهان والجبال(3) .

ويبدو أن الواثق قد شعر بالسأم والملل نتيجة استبداد الأتراك بالسلطة ، حتى انه لم يفكر في اختيار من يخلفه في الخلافة(4) . فقد لقي الواثق من الرأي العام استهجاناً واستهانة ، عبر عنها الشاعر دعبل الخزاعي في هذين البيتين :

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمك تركي عليه مهانة فأنت له أم وأنت له أب

وقد رأينا ، عند دراستنا لطريقة تولية المتوكل الخلافة ، أنه بعد وفاة الواثق ، وعند البحث عن خليفة جديد ، كان المتوكل « في قميص وسروال ، قاعداً مع أبناء الأتراك »(5) . وقد أمر المتوكل بعد توليته الخلافة للأتراك برزق أربعة أشهر بينما أمر للمغاربة برزق ثلاثة أشهر مما أدى إلى سخطهم حتى اضطر المتوكل إلى مساواتهم بالأتراك(6) . وقد رأينا أيضاً كيف لعب وصيف التركي الدور الأول في عدم تولية محمد بن الواثق الخلافة(7). وأصبح اصطدام الأتراك بالمتوكل أمراً محتّماً(8).

---

(1) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ٢ ص ٧٥ .
(2) تاريخ اليعقوبي جـ٢ ص ٥٨٥، القرماني ، اخبار الدول ص ١٥٧ .
(3) الطبري جـ٧ ص ٣٣٩ .
(4) ابن الاثير : الكامل جـ٧ ص ١٥ .
(5) الطبري جـ٧ ص ٣٤١ .
(6) الطبري جـ٧ ص ٣٤٢ .
(7) ابن الاثير : الكامل جـ٧ ص ١٢، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٠ ص ٣١٠ .
(8) الدوري : العصور العباسية المتأخرة ص ٤١.

٣ - موقف المتوكل من الأتراك والعرب ومشروع نقل الخلافة إلى بلاد الشام

مظاهر نفوذ الأتراك في عهد المتوكل :

رغم أن المتوكل كان هو أول خليفة في العصر العباسي الثاني ، وفي عصر نفوذ الأتراك ، إلا أنه كان من الخلفاء الأقوياء ، وقد ورث قوة الشكيمة والشخصية عن أبيه المعتصم . وقد ورث المتوكل تركة مثقلة الأعباء عن أبيه المعتصم ، وعن الواثق ، نتيجة تضخم سلطات الأتراك . فقد أصبح النفوذ التركي حقيقة واقعة في الدولة العباسية ، إذ تغلغل الأتراك في الجيش والإدارة واصطبغت العاصمة العباسية الجديدة سامراء بصبغة تركية واضحة . ولم يكن المتوكل بالخليفة الذي يخضع تماماً للأتراك أو يحني لهم رأسه ، وظل خمسة عشر عاماً يكافح تضخم النفوذ التركي متبعاً في ذلك شتى الوسائل والسياسات . فكان ينكل بالشخصيات التركية البارزة ويضرب الأتراك بعضهم ببعض، ويضم إلى حاشيته وجهازه الحكومي عناصر أخرى غير تركية ، عربية وخراسانية . ثم يحاول نقل عاصمته إلى دمشق . ولكن كل جهود المتوكل ومحاولاته لم تجد شيئاً أمام قوة الأتراك ، وكثرة عددهم . وكانت نهاية حياته من تدبيرهم ونتيجة تآمرهم .

كانت الجماعة التي تباحثت في أمر الخلافة بعد موت الواثق من جنسيات مختلفة ، وتتولى عدة مناصب . فكان منهم الوزير محمد بن عبدالملك الزيات ، وقاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد ، والكاتب أحمد بن خالد أبو الوزير[1] ، ثم هناك التركيان وصيف وإيتاخ . ولعب وصيف الدور الأول في صرف الأنظار عن تولية محمد بن الواثق وترشيح جعفر المتوكل بن المعتصم ، ونجح في إقناع الآخرين رغم أن الوزير الزيات كان متخوفاً من تولية المتوكل الخلافة لموقف الوزير العدائي منه خلال عهد الواثق[2] . وبذلك تغلب وصيف

---

(١) الطبري جـ٧ ص ٣٤١ .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ٥ ص ١٦٥ .

التركي في الرأي على الوزير . وأصبح المتوكل مصدر رجاء وخوف ، في وقت واحد ، كما قال فيه البحتري :

خليفة يرتجي ويخشى كأنه جنة ونار[1]

وكثرت في عهد المتوكل التغييرات السياسية والإدارية ، وتعددت صور التنكيل والاغتيالات ، ولم تأخذ السياسة خطاً واحداً ثابتاً متميزاً ، فالخليفة يحاول جاهداً الاحتفاظ بنفوذه والخلاص من الرؤوس التي تحاول الارتفاع وتميز هذا العهد أيضاً بالمصادرات .

بدأ المتوكل عهده بالخلاص من الوزير محمد بن عبدالملك الزيات ، نتيجة عداء قديم . فكانت خاتمة الوزير خاتمة سيئة مؤسفة ، على النحو الذي سنذكره إن شاء الله عند دراستنا لنظام الوزارة في الباب الأول من هذا البحث . ثم استكتب المتوكل رجلاً من كتّابه هو أحمد بن خالد أبو الوزير ، ولم يتلقب بلقب الوزارة وما لبث المتوكل أن نكبه وصادر من أمواله مائتي ألف دينار ، ثم استوزر أبا جعفر محمد بن الفضل الجرجرائي ، ثم كثرت السعايات به فعزله المتوكل ، وقال الخليفة : قد ضجرت من المشايخ . أريد حدثاً استوزره ، فولى عبيدالله بن يحيى بن خاقان ، فظل يتولى الوزارة حتى كان مصرع المتوكل[2] .

وفي سنة ٢٣٣ هـ ، غضب المتوكل على عمر بن فرج وسجنه ، وصادر ضياعه وأمواله ، وكبّله بالأغلال ، وأرسل المتوكل إلى سائر أمصاره يأمر بجمع أمواله وأملاكه ومواليه ، بل صادر الخليفة أموال أخيه محمد بن فرج . وتبارى الشعراء في هجاء عمر بن فرج ، فقال الشاعر علي بن الجهم بن بدر[3] :

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما تيه الملوك وأفعال المماليك
أردت شكراً بلا بر ومرزئة لقد سلكت سبيلاً غير مسلوك
ظننت عرضك لم يقرع بقارعة وما أراك على حال بمتروك

(١) المصدر السابق جـ٥ ص ١٦٨ .
(٢) الفخري ص ٢١٥ .
(٣) الطبري جـ٧ ص ٣٤٧ .

وما لبث المتوكل أن أطلق سراح عمر بن فرج ، على أن يدفع إلى الخليفة عشرة ملايين درهم ، ويحتفظ عمر بضياعه في الأهواز فحسب[1] .

وتكررت المصادرات ، فصادر المتوكل أموال إبراهيم بن الجنيد النصراني ، أخي أيوب الكاتب ، وبلغت أمواله سبعين ألف دينار[2] .

وكان للخراسانيين دور في الحكم والإدارة ، فقد ولى الخليفة يحيى بن خاقان الخراساني مولى الأزد ، ديوان الخراج[3] . ولكن قواد الجيش كانت غالبيتهم العظمى من الأتراك ، فكان منهم زيرك التركي وعمرو بن سيسل بن نكال ، وبغا الشرابي[4] . ومن حجابه الأتراك : وصيف ، وبغا ، وزرافة[5] .

وغضب أحد الفرس ، وهو محمد بن البعيث بن حليس من سياسة الاعتماد على الأتراك ، وأعلن الثورة في أذربيجان ، حيث كان له قلعتان[6] ، اعتصم فيهما مع أتباعه . ونجح قواد المتوكل من الأتراك في إخماد الثورة والقبض على ابن البعيث ، وارتفع شأن القائد التركي بغا الشرابي[7] .

اغتيال ايتاخ التركي :

وجاء دور إيتاخ التركي ، وقال عنه الطبري[8]: « إن إيتاخ كان غلاماً خزرياً لسلام الأبرش طباخاً ، فاشتراه منه المعتصم في سنة ١٩٩ ، وكان لإيتاخ رجلة وبأس فرفعه المعتصم ، ومن بعده الواثق حتى ضم إليه من أعمال السلطان أعمالاً كثيرة ، وولاه المعتصم معونة سامراء مع إسحق بن إبراهيم . .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .
(٣) الطبري جـ٥ ص ٣٤٨ .
(٤) المصدر السابق جـ٥ ص ٣٤٩ .
(٥) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٣١٤ .
(٦) تدعى قلعة منها (شاهي) والاخرى (يكدر).
(٧) الطبري جـ٧ ص ٣٥٠ .
(٨) الطبري جـ٧ ص ٣٥٠ - ٣٥١ .
ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ٧ ص ١٦ .

وكان من أراد المعتصم أو الواثق قتله فعند إيتاخ يقتل وبيده يحبس ، منهم محمد بن عبدالملك الزيات ، وأولاد المأمون من سندس ، وصالح بن عجيف ، وغيرهم . فلما ولي المتوكل كان إيتاخ في مرتبته إليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة » .

واعتز إيتاخ بما وصل إليه من قوة ونفوذ ، حتى انه هم مرة بقتل المتوكل ، فروى الطبري[1] : « فخرج المتوكل ، بعدما استوت له الخلافة متنزهاً إلى ناحية القاطول ، فشرب ليلة فعربد على إيتاخ ، فهم إيتاخ بقتله ، فلما أصبح المتوكل قيل له ، فاعتذر إليه والتزمه وقال له : أنت أبي وربيتني . فلما صار المتوكل إلى سامراء ، دس إليه من يشير عليه بالاستئذان للحج ، ففعل ، وأذن له ، وصيره أمير كل بلدة يدخلها ، وخلع عليه ، وركب جميع القواد معه وخرج معه من الشاكرية والقواد والغلمان سوى غلمانه وحشمه بشر كثير . فحين خرج صيرت الحجابة إلى وصيف » . وهذا النص للطبري يوضح بحق علو شأن إيتاخ ومنزلته في الدولة ، وقد اضطر المتوكل إلى التغاضي عن محاولة إيتاخ لقتله ، إذ إن الخليفة يدرك منزلة إيتاخ في العاصمة التركية سامراء فرأى إبعاده عنها .

ورأى المتوكل الخلاص من إيتاخ ، فدبر خطة محكمة، تحقق هدفه، وتجنبه سخط الأتراك . فرأى اغتيال إيتاخ في بغداد . بعد عودته من الحج . وأرسل المتوكل حاجبه سعيد بن صالح بالهدايا الفاخرة ، ليقدمها إلى إيتاخ حينما يصل إلى الكوفة . واشترك في تدبير المؤامرة إسحاق بن إبراهيم وهو رجل مخضرم ، كان له نفوذه في قصر الخلافة منذ عهد المأمون ، وهو من أصل فارسي . كما اشترك في المؤامرة أيضاً عامل الشرطة في بغداد وخزيمة بن خازم أحد وجوه بغداد[2].

وأراد إيتاخ أن يسلك طريق الفرات إلى الأنبار ، ثم إلى سامراء ، ولكن إسحق بن إبراهيم أقنعه بالمرور ببغداد ، فقال له : إن أمير المؤمنين ، أطال

(١) الطبري جـ٧ ص ٣٥١ .
(٢) الطبري جـ٥ ص ٣٥١ - ابن الاثير : الكامل جـ٧ ص ١٦ .

الله بقاءه ، قد أمر أن تدخل بغداد وأن يلقاك بنو هاشم ووجوه الناس ، وأن تقعد لهم في دار خزيمة بن خازم فتأمر لهم بجوائز[1] .

وكان إيتاخ في ثلثمائة من غلمانه حتى إذا مروا بجسر بغداد منعوا الغلمان من المرور ، وأصبح إيتاخ في أربعة من الغلمان ودخل دار خزيمة ، وكان قد أحسن فراشها وتزيينها ، وأغلقت أبواب الدار وانتشرت الشرطة حولها ، وبعد يومين أو ثلاثة صحبه إسحاق بن إبراهيم في حراقة (سفينة) في حراسة الشرطة إلى دار إسحاق ، وهناك تم تكبيله بالأغلال وقبضت الشرطة على ابنيه منصور ومظفر وعلى كاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد النصراني . وكان طعام إيتاخ رغيفاً واحداً من الخبز وقدحاً من الماء . ولم يتحمل إيتاخ هذه الأغلال وهذا التجويع ، فمات في ٢٥ من جمادى الآخرة سنة ٢٣٥ هـ . وأشهد إسحاق بن إبراهيم على موته ، القضاة وصاحب بريد بغداد وأوضح لهم أنه لا توجد في جثته آثار ضرب أو تعذيب[2].

لم يكن المتوكل يستطيع الخلاص من إيتاخ التركي في سامراء ، حيث يحتشد آلاف من غلمانه وأتباعه وأنصاره . ولذا كانت بغداد أصلح مكان لتدبير هذه المؤامرة ، وفي ذلك يقول الطبري[3]: « ولو لم يؤخذ ببغداد ما قدروا على أخذه ، ولو دخل إلى سامرا فأراد بأصحابه قتل جميع من خالفه أمكنه ذلك » . وأصبح يطلق على إسحاق بن إبراهيم اسم « صاحب الجسر » لنجاحه في حجز غلمان إيتاخ على جسر بغداد . وما لبث أن مرض إسحاق مرضه الأخير ، فأرسل الخليفة ابنه المعتز وبغا الشرابي وجماعة من القواد لعيادته ثم مات في ذي الحجة سنة ٢٣٦هـ[4]. واعترف المتوكل بجميل إسحاق فألحق ابنه بخدمته وأعطاه ما كان لأبيه من مزايا ومخصصات . وكان أخو إسحق محمد بن إبراهيم يطمع في أن ينال هذه الميزات فغضب وتنكر للخليفة فدبر محمد بن إسحق مؤامرة انتهت باغتيال عمه محمد بن إبراهيم بالسم سنة ٢٣٦ هـ . وبعد

---

(١) المصدران السابقان .

(٢) مسكويه : تجارب الامم جـ٦ ص ٥٤٣ - ٥٤٤ .

(٣) الطبري : جـ٧ ص ٣٥٢ .

(٤) الطبري : جـ٧ ص ٣٦٣ .

شهور قليلة مات محمد بن إسحق في نفس السنة ، وجزع المتوكل لموته[1] .

نقل العاصمة إلى دمشق بالشام :

واستمر نفوذ الأتراك في العاصمة العباسية التركية الطابع سامراء . ولم يكن المتوكل ـ كما ذكرنا ـ بالخليفة الخانع الذي يخضع تماماً لاستبداد الأتراك بالسلطة ولكنه كان عاجزاً عن إحداث انقلاب سياسي نتيجة كثرة عدد الأتراك وسيطرتهم على الجيش والإدارة . ولم يستطع المتوكل الاستمرار في سياسة الاغتيالات والمصادرات ولجأ إلى وسيلة أخيرة ، حين أخذ البيعة بولاية العهد لأبنائه الثلاثة : المنتصر ، والمعتز ، والمؤيد[2] . وعقد لكل واحد منهم لواءين ، أحدهما أسود ، وهو لواء العهد ، والآخر أبيض وهو لواء العمل . كما قسم المتوكل إدارة أمصار الدولة العباسية بين أولياء عهده ، فتولى المنتصر أمور إفريقية والمغرب وتولى المعتز شئون طبرستان والري وأرمينية وأذربيجان ، وفارس . كما قام المؤيد بإدارة أقاليم دمشق وحمص والأردن وفلسطين[3] . ولكن هذه السياسة لم تنجح في إضعاف نفوذ الأتراك في الولايات العباسية .

ويبدو أن المتوكل ضاقت به الأحوال ، وتأثرت نفسيته ، وأدرك استحالة استمرار إقامته في العاصمة سامراء وهو يشهد الأتراك يحكمون ويمرحون ، فرأى في ٢٠ من ذي القعدة سنة ٢٤٣ هـ الرحيل إلى دمشق بالشام ، واتخاذها عاصمة، ونقل الدواوين إليها والبناء بها[4].

وأنشد الشاعر يزيد بن محمد المهلبي هذين البيتين عند خروج المتوكل من العراق إلى الشام :

أظن الشام يشمت بالعراق إذا عزم الإمام على انطلاق
فإن تدع العراق وساكنيها فقد تبلى المليحة بالطلاق

---

(١) الطبري جـ٧ ص ٣٦٥ .
(٢) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٩٤ .
(٣) ابن الاثير : الكامل ص ١٧ ـ ١٨ .
(٤) اليعقوبي جـ٣ ص ٢١٠ .

عبر المؤرخ المسعودي[1] ، عن إخفاق سياسة تقسيم الدولة العباسية بين أبناء الخليفة إذ لم تنجح في الحدّ من نفوذ الأتراك ، كما عبر عن كراهيته لهؤلاء الأتراك ، ومحاولته تكوين فرقة عسكرية من العرب والجند المرتزقة باسم المعتز ، ويتولاها وزيره الجديد عبيدالله بن يحيى بن خاقان ، فقال المسعودي : « وبايع ـ المتوكل ـ لبنيه الثلاثة بولاية العهد بعده : المنتصر وأبي عبدالله المعتز ، وإبراهيم المؤيد ، وجفا الموالي من الأتراك واطرحهم وحط مراتبهم وعمل على الاستبداد بهم والاستظهار عليهم . وضم إلى وزيره عبيدالله بن خاقان نحواً من اثني عشر ألفاً من العرب والصعاليك وغيرهم ، برسم المعتز ، وكان في حجره » .

ويرى المرحوم الدكتور حسن إبراهيم[2] أن المتوكل كان يروم نقل الخلافة إلى الشام ليجعل العرب عمادها وأعوانها ، تبرماً بالترك وكثرة ما أحدثوا في الدولة من فوضى وإفساد للشئون العامة حتى ضاق بهم أهالي العراق ولم ينج الخلفاء من شرهم .

كانت بلاد الشام موطن العنصر العربي . وقد اختار العباسيون خراسان لتكون مركزاً للدعوة العباسية (١٠٠ ـ ١٣٢ هـ) ثم اختاروا العراق لتكون مقراً للخلافة العباسية ، إذ قامت الدعوة والدولة على السواء على أكتاف الموالي من العناصر الفارسية الخراسانية . ولم يفكر العباسيون في اتخاذ بلاد الشام مقراً لخلافتهم ، فأهل الشام لا يعرفون الولاء إلا لبني أمية . وحملت بلاد الشام غالباً لواء المعارضة ضد الدولة العباسية . فقد انضم أهل الشام والعناصر العربية الساخطة على النفوذ الفارسي إلى ثورة عبدالله بن علي ضد ابن أخيه الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور[3]. رغم أنها ثورة تمثل أحقاداً شخصية ، وغضب عمّ لتولية ابن أخيه الخلافة دونه . وأرسل المنصور جيشاً ضخماً بقيادة أبي مسلم الخراساني كان يضم آلافاً من الفرس والخراسانيين . وأوقع أبو

---

(١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٣١٣ .
(٢) تاريخ الاسلام جـ٣ ص ٥ .
(٣) اليعقوبي جـ٣ ص ١٠٤ ، الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٨٠ .

مسلم كثيراً من التنكيل بأهل الشام نتيجة تعصبه وشعوبيته ، ضد العرب . ورأى الخليفة العباسي الثالث المهدي أن يزور بلاد الشام ، ويصلي في جوامعها ، ويكرم وجوهها ، تضميداً لجراح عرب الشام وتسكيناً لخواطرهم[1].

وفي عهد هارون الرشيد ثارت العصبية القبلية التقليدية المتوارثة ، بين العرب اليمنيين والعرب الحجازيين وانتشرت الاضطرابات في الشام وأرسل الرشيد موسى بن يحيى بن خالد البرمكي لتهدئة الفتنة وللمصالحة بين الطرفين . وأنشد أحد الشعراء :

قد هاجت الشام هيجاً … يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها … نجيله وجنوده
فدانت الشام لما … أتى بسنح وحيده

ويعلق المستشرق (وليم ميور) في كتاب (الخلافة)[2]على هذا الحدث فيقول : لم يكن الصراع بين اليمنيين والحجازيين من الأحداث التي يهتم بها الخليفة بل إنه على العكس قد استفاد منها لأنها أضعفت قوى أهالي الشام الذين ثبت عنده عدم إخلاصهم وولائهم للعباسيين .

وفي عهد الأمين ، اعتزت العناصر العربية في الشام ، بل في كل أرجاء الدولة العباسية نتيجة سياسة الأمين في الاعتماد على العرب . ووقف العرب إلى جانب الأمين في صراعه لأخيه المأمون الذي تعصب في أول الأمر للعناصر الفارسية[3]. ثم قامت حركة عربية ضد المأمون، تزعمها نصر بن شبث وهو من بني عقيل ، وكان يسكن شمالي حلب[4].

ولا شك أن أهل الشام قد أبدوا سرورهم إذ ضاق المتوكل ذرعاً بتضخم نفوذ الأتراك ، ثم بلجوئه إلى بلادهم . وكان أهل الشام قد أبدوا سخطاً على

---

(١) الأصفهاني : الاغاني جـ ٦ ص ٦٧، الخربوطلي: المهدي العباسي ص ٦٥ .
(٢) Muir: The Caliphate, p:479.
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٧٠ وما بعدها، الفخري ص ١٤٠ .
(٤) الطبري : جـ ٧ ص ٢١٠، ابن الاثير : الكامل جـ ٤ ص ١٠١ .

سياسة المعتصم في الاعتماد على الأتراك ، فقامت ثورة عربية بزعامة أبي حرب المبرقع اليماني ، وانضم إليه كبار العرب اليمنيين ، وكان يذهب إلى أنه أموي وسماه أتباعه (السفياني) . ونجح المعتصم في إخماد الثورة العربية(١) .

واستمر سخط أهل الشام من العرب على سياسة الاعتماد على الأتراك ، فثارت القيسية في دمشق في عهد الخليفة الواثق ، وحاصروا الوالي ، ولكن الواثق نجح في القضاء على الثورة(٢) .

ولم يهنأ المتوكل في إقامته في دمشق ، بسبب عدة عوامل ، فقد تكررت ثورات الجند الأتراك مطالبين بالأرزاق ، فضلا عن ارتفاع نسبة الرطوبة وكثرة الثلوج وبعض الحشرات وارتفاع الأسعار نتيجة اقامة المتوكل في دمشق . فيقول الطبري(٣) : « وعزم ـ المتوكل ـ على المقام بها (أي دمشق) ونقل دواوين الملك إليها ، وأمر بالبناء بها ، فتحرك الأتراك في أرزاقهم وأرزاق عيالاتهم فأمر لهم بما أرضاهم ثم استوبأ البلد ، وذلك أن الهواء بها بارد ندي ، والماء ثقيل ، والريح تهب فيها مع العصر ، فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل ، وهي كثيرة البراغيث ، وغلت فيها الأسعار ، وحال الثلج بين السابلة والميرة » .

وأراد المتوكل أن يتجنب هذه المساوىء الطبيعية والمناخية فغادر دمشق إلى ضاحية لها ، حيث نزل في قصر المأمون في منطقة بين داريا ودمشق على بعد ساعة من دمشق ، وكان القصر يقع على مرتفع من الأرض ، ويشرف على مدينة دمشق(٤) .

ودبر الأتراك في دمشق مؤامرة لقتل المتوكل ، بدأوها بمحاولات لإبعاد بغا الكبير عن المتوكل وإفساد العلاقات بينهما . فوزع الجند رقاعاً بها منشورات مضمونها : « أن بغا دبر أن يقتل أمير المؤمنين والعلامة في ذلك أن

---

(١) الطبري جـ٧ ص ٣١٢ـ ٣١٣ .
(٢) ابو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ٢ ص ٣٥ .
(٣) الطبري جـ٧ ص ٣٨١ .
(٤) المسعودي: مروج الذهب جـ٤ ص ١١٥ .

يركب في يوم كذا في خيله ورجله ، فيأخذ عليه أطراف عسكره ثم يأخذ جماعة من الغلمان العجم يدخلون عليه فيفتكون به » . وصدّق المتوكل ما جاء في هذه الرقاع ، وأصابه الاضطراب ، وحقد على بغا ، وتدخل بعض رجال الدولة ، كما نفى بغا هذه الإشاعات المغرضة واقتنع المتوكل أخيراً بكذب ما جاء في هذه الرقاع ، ورأى أن يكرم بغا الكبير ، تعويضاً له على هذه الشكوك ومكافأة له على إخلاصه فولاه حكم الشام[1] . ثم بعثه لغزو الروم (ربيع الآخر سنة ٢٤٤ هـ) فغزا الصائفة وافتتح صُمُلة[2] .

ثم كانت حادثة جعلت الخليفة المتوكل يعزم على مغادرة الشام إلى سامراء مرة أخرى فقد « شغب الجند واجتمعوا وضجوا يطلبون الأعطية ، ثم خرجوا إلى تجريد السلاح والرمي بالنشاب »[3] .

وانزعج الخليفة المتوكل واستدعى إليه رجاء الحضاري وقال له : يا رجاء ، أما ترى ما خرج إليه هؤلاء ، فما الرأي عندك ؟ فأجاب رجاء : يا أمير المؤمنين ، قد كنت مشفقاً في هذا السفر من مثل هذا ، فأشرت بما أشرت من تأخيره فمال أمير المؤمنين إليه . فقال المتوكل : دع ما مضى وقل الآن ما حضر برأيك ، فقال رجاء : يا أمير المؤمنين ، توضع الأعطية .

ورفض المتوكل الخضوع لشغب الجند ، وقال لرجاء : فهذا ما أرادوا ، وفيه ما خرجوا إليه ما يعلم . ودبر رجاء حيلة تسكن خواطر الجند ، وتحقق رغبة الخليفة في عدم الخضوع لشغب الجند ، ومنحهم ما طالبوا به من أعطية . فأمر بإخراج الأموال لإعطاء الجند الأعطيات فهدأت ثورتهم وسكنوا . وهنا دخل رجاء على الخليفة فقال له : مر الآن يا أمير المؤمنين بضرب الطبل للرحيل إلى العراق ، فإنهم لا يأخذون مما أخرج إليهم شيئاً[4] .

---

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص ١١٥ - ١١٧ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص٣٨١ .
(٣) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١١٥ .
(٤) المصدر السابق .

وبدأت رحلة الخليفة المتوكل إلى العراق ، فاتخذ طريق الفرات ثم عدل إلى الأنبار ، ثم حاد عن الطريق إليها إلى طريق الجرف ، حتى وصل إلى سامراء يوم ٢٣ من ذي القعدة سنة ٢٤٤ هـ[١]. وهكذا عمل المتوكل على تبديل طريق عودته ، تمويهاً على أعدائه ، أو تجنباً لأي حدث قد يفاجئه في الطريق ، وكانت مدة إقامته في دمشق ، كما قال الطبري[٢] شهرين وأياماً ، أو كما قال المسعودي ثلاثة أشهر وسبعة أيام .

دور الأتراك في اغتيال المتوكل :

وعاد المتوكل إلى سامراء ، معقل الأتراك ، وقد كان خروجه إلى دمشق كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وأخفق مشروع نقل مركز الخلافة العباسية من العراق إلى الشام ونقل العاصمة من سامراء إلى دمشق ، ولم يستطع المتوكل الاعتماد على العنصر العربي كما أراد خلاصاً من ربقة الأتراك ، فقد ضعف هذا العنصر العربي نتيجة الصراع الشعبي المستمر بين العرب الحجازيين والعرب اليمنيين . كما أن سياسة الخلفاء العباسيين في العصر العباسي الأول في الاعتماد على العناصر الفارسية حجبت العنصر العربي عن مسرح الأحداث ، كما عمل هؤلاء الخلفاء على إضعاف العرب ، بالتنكيل أحياناً ، أو التضييق عليهم أحياناً أخرى ، أو بإثارة العداء بين قبائلهم أحياناً ثالثة .

وعاد المتوكل إلى سياسته القديمة ، سياسة الدسائس والمؤامرات والتنكيل والمصادرات . وقد ترك المتوكل بغا الكبير في الشام فتخلص بذلك من أحد كبار الشخصيات التركية ولكنه في الحقيقة حرم من إخلاصه وولائه .

ويبدو أن المتوكل أصابه اضطراب نفسي فتعددت صور تنكيله بأتباعه ورجاله . فقد غضب المتوكل على الطبيب (بختيشوع) وصادر أمواله ونفاه إلى البحرين ، فقال شاعر[٣] :

---

(١) الطبري جـ٧ ص ٣٨١ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) الطبري جـ٧ ص ٣٨٢ .

يا سخطة جاءت على مقدار   ثار له الليث على اقتدار
منه وبختيشوع في اغترار   لما سعى بالسادة الأقمار
بالأمراء القادة الأبرار   ولاة عهد السيد المختار
وبالموالي وبني الأحرار   رمى به في موحش القفار
بساحل البحرين للصغار

وأراد المتوكل بناء مدينة جديدة هي الماحوزة (أو الجعفري) ـ كما سنذكر فيما بعد ـ فاحتاج إلى أموال كثيرة . وتقدم إليه نجاح بن سلمة صاحب ديوان التوقيع وتتبع العمال بكشف به أسماء بعض الأثرياء واقترح مصادرة أموالهم للاستفادة منها في بناء المدينة الجديدة فبلغ عددهم عشرين ثرياً . وقام نجاح بقتل أو تعذيب كل من عارض المصادرة أو حاول إخفاء أمواله وكان بعض هؤلاء الأثرياء يتولون مناصب عامة في الدولة ، فقال الوزير عبيدالله بن يحيى بن خاقان للمتوكل : يا أمير المؤمنين أراد ـ أي نجاح ـ أن لا يدع كاتباً ولا قائداً ولا عاملاً إلا أوقع بهم فمن يقوم بالأعمال يا أمير المؤمنين ؟ وأدرك المتوكل ـ أخيراً ـ خطورة نجاح ، فأمر بضربه حتى مات ، وضم ديوان التوقيع إلى الوزير ، وأنشد شاعر في مصير نجاح[1] :

غدا على نعم الأحرار يسلبها   فراح وهو سليب المال والبدن

ثم رأى الأتراك الخلاص من المتوكل ، فبدأ بغا الصغير المعروف بالتآمر، واستعان بباغر التركي ، وأراد بغا أن يختبر جرأته ومدى طاعته واستجابته لأوامره ومدى استعداده للقتل، فتظاهر بغا أنه يريد الاستعانة بباغر في قتل ولده فارس لخروجه على طاعته، فإذا قبل باغر ذلك، أمره بعد ذلك بقتل المتوكل .

ونرى هذه الصورة التاريخية واضحة في رواية للمسعودي[2] هي : « ولما عزم بغا الصغير على قتل المتوكل ، دعا بباغر التركي وكان قد اصطنعه واتخذه وملأ عينه من الصلات ، وكان مقداماً أهوج ، فقال له يا باغر ، أنت تعلم

(١) الطبري جـ٧ ص ٣٨٣ـ ٣٨٥ .
(٢) مروج الذهب جـ٤ ص ١١٧ .

محبتي لك وتقديمي إياك وإيثاري لك وإحساني اليك ، وإني قد صرت عندك في حد من لا يعصى له أمر ، ولا يخرج عن محبته . وأريد أن آمرك بشيء فعرفني كيف قلبك فيه ، فقال : أنت تعلم كيف أفعل ، فقل لي ما شئت حتى أفعله. قال: إن ابني فارس قد أفسد عليّ عملي وعزم على قتلي وسفك دمي ، وقد صحّ عندي ذلك منه».

وجعل بغا علامة لباغر ، فأشار عليه بأنه اذا وضع قلنسوته أقدم باغر على قتل فارس بن بغا . ولكن المجلس اجتمع وانفض ، دون أن يضع بغا قلنسوته . وبرر بغا عدوله عن قتل ابنه فقال لباغر : اعلم أني فكرت في أنه حدث وأنه ولدي وقد رمت أن أستخلصه هذه المرة وأبدى باغر طاعة عمياء لبغا ، فقال : أنا قد سمعت وأطعت ، وأنت أعلم وما دبرت وقدرت عليه فيه صلاحه .

ورغم أن الهدف النهائي لبغا الصغير هو اغتيال المتوكل فقد رأى معاودة اختبار ولاء وطاعة باغر ، فزعم أنه يريد منه اغتيال وصيف التركي ، فقال بغا لباغر : وههنا أمر أكبر من ذلك وأهم ، فعرفني كيف تريد أن تكون فيه . فقال باغر : قل ما شئت حتى أفعله . فقال بغا : أخي وصيف قد صح عندي انه يدبر علي وعلى رفقائي : وأن مكاننا قد ثقل عليه وأنه عوّل على أن يقتلنا ويفنينا وينفرد بالأمور. فسأل باغر: فماذا تريد أن يصنع به ؟ فقال بغا: افعل هذا فإنه يصير الي غداً فالعلامة أن أنزل عن المصلى الذي يكون معي قاعداً عليه، فإذا رأيتني نزلت عنه فضع سيفك عليه واقتله. وأبدى باغر طاعة عمياء ووافق على قتل وصيف[1] .

ولكن بغا لم يعط باغراً (العلامة) المتفق عليها ، ثم أعلن لباغر عدوله عن قتل وصيف ، فقال لباغر : يا باغر ، إني فكرت في أنه أخي وأني قد عاقدته وحلفت له فلم استجز أن أفعل ما دبرته.

وهكذا نجح باغر في دورتي الامتحان اللتين عقدهما بغا لباغر ومنحه كثيراً من الأموال والصلات ، ثم انقطع عنه فترة ، وقد تأكد من طاعته العمياء .

---

(١) المصدر السابق جـ٤ ص ١١٨ .

وبعد فترة ، دعا بغا اليه باغراً وقال له : يا باغر ، قد حضرت حاجة أكبر من الحاجة التي قدمتها فكيف قلبك ؟ فأجاب باغر : قلبي على ما تحب ، فقل ما شئت حتى أفعله .

ولم يشأ بغا ، للمرة الثالثة ، أن يدخل الى جوهر الأمر مباشرة ، وهو قتل المتوكل بل أراد أن يدفع باغراً نفسه الى أن يقترح هو اغتيال المتوكل . فقال بغا في التواء وخبث : هذا المنتصر قد صح عندي أنه على إيقاع التدبير علي وعلى غيري حتى يقتلنا ، وأريد أن أقتله ، فكيف ترى نفسك في ذلك ؟ وفكر باغر فترة ، ثم قال : هذا لا يجيء منه شيء . فسأل بغا : وكيف ؟ فقال باغر مستنكراً قول بغا : يقتل الابن والأب باق ؟ إذاً لا يستوي لكم شيء ، ويقتلكم أبوه كلكم به . فتساءل بغا في خبث : فما ترى عندك ؟ فأجاب باغر : نبدأ بالأب أولاً فنقتله ، ثم يكون أمر الصبي أيسر من ذلك .

وتظاهر بغا بالدهشة وتساءل في خبث : ويحك ، ويعقل هذا ويتهيأ ؟ فقال باغر : نعم أفعله وأدخل عليه حتى أقتله . وتظاهر بغا بالتردد في قبول الخطة وشكه في تنفيذها . فقال باغر في إصرار معبراً عن طاعتـه العمياء وعن تفانيه في ولائه لبغا : فادخل أنت في أثري فإن قتلته وإلا فاقتلني وضع سيفك علي وقل (أراد أن يقتل مولاه) ويعلق المسعودي[1] على هذا الحوار فيقول: « فعلم بغا حينئذ أنه ـ أي باغر ـ قاتله ، وتوجه له في التدبير في قتل المتوكل» .

ولعبت الأقدار دورها في تدبير مأساة مصرع المتوكل . فقد علم المتوكل أن رجلاً من البصرة يمتلك سيفاً هندياً لا نظير له . فكتب الى عامل البصرة يأمره بشراء هذا السيف من مالكه ، مهما طلب من ثمن . وكتب عامل البصرة الى المتوكل بأن رجلاً من اليمن قد سبقه في شرائه السيف . وكتب المتوكل الى عامله باليمن يأمره بشراء السيف فاشتراه بعشرة آلاف درهم . وأبدى المتوكل سروره لامتلاكه هذا السيف . ثم قال المتوكل للفتح بن خاقان : اطلب لي غلاماً تثق بنجدته وشجاعته أدفع له هذا السيف ليكون واقفاً به على رأسي لا يفارقني في كل يوم ما دمت جالساً .

---

(١) مروج الذهب جـ ٤ ص ١١٨ .

وهنا يقول المسعودي[1] : « فلم يستتم ـ المتوكل ـ الكلام حتى أقبل باغر التركي ، فقال الفتح : يا أمير المؤمنين هذا باغر التركي قد وُصف لي بالشجاعة والبسالة وهو يصلح لما أراد أمير المؤمنين. فدعا به المتوكل، فدفع إليه السيف وأمره بما أراد، وتقدم أن يُزاد في مرتبته، وأن يضعف له الرزق. قال البحتري : فوالله ما انقضى ذلك السيف ولا خرج من غمده من الوقت الذي دفع اليه الا في الليلة التي ضربه فيها باغر بذلك السيف » .

ثم كانت القشة التي قصمت ظهر البعير ، فقد غضب المتوكل على وصيف التركي وأراد مصادرة أمواله ، رغم دور وصيف في ترشيح المتوكل للخلافة بعد وفاة الواثق . وكانت خطوة خطيرة أقدم عليها المتوكل بدون تفكير عميق . فقد كان لوصيف نفوذ ضخم طوال عهدي الواثق والمتوكل . وعلم وصيف بأن المتوكل سيقوم بمصادرة ضياعه في أصبهان والجبل وإقطاعها للفتح ابن خاقان في ٢٥ شعبان سنة ٢٤٧ هـ فرأى وصيف الخلاص من المتوكل ، كما دفعه بالأمس الى الخلافة[2].

وأراد المتوكل الخروج لصلاة الجمعة الأخيرة من رمضان ، وقدم بنو هاشم وطلاب الحاجات من بغداد الى سامراء ، لتقديم عرائضهم ومطالبهم وشكاياتهم للخليفة . وتقدم الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، والفتح بن خاقان الى المتوكل ينصحانه بالعدول عن الخروج للصلاة بالناس ، وقالا له : يا أمير المؤمنين إن الناس قد اجتمعوا وكثروا من أهل بيتك وبعض متظلم ، وبعض طالب حاجة ، وأمير المؤمنين يشكو ضيق الصدر ووعكة فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بعض ولاة العهود بالصلاة ونكون معه جميعاً فليفعل .

واستجاب المتوكل لرأيهما ، وأمر بأن يصلي ابنه المنتصر بالناس . ولكنهما رشحا ابنه الآخر المعتز وقالا في تعليل ترشيحهما : يا أمير المؤمنين مر أبا عبد الله المعتز بالله بالصلاة لتشرفه بذلك في هذا اليوم الشريف فقد اجتمع أهل بيته والناس جميعاً فقد بلغ الله به . ووافق المتوكل مما أدى الى اثارة

---

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص ١١٩ .

(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٩٠ .

غضب المنتصر الذي كان قد تهيأ للخروج للصلاة بالناس ، « وكان ذلك مما زاد في إغرائه »[1].

وفي أول أيام عيد الفطر ، أراد المتوكل أن يخرج ابنه المنتصر ليصلي بالناس ، ولكن الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان أراد أن يحول دون ذلك ، فأقنع المتوكل بأن يخرج بنفسه للصلاة بالناس .

كان المتوكل شغوفاً بقبيحة[2]، أم ولده المعتز ، ورأى أن يقدم ابنه المعتز على أخويه المنتصر والمؤيد لمحبته لقبيحة أم المعتز ، مما أدى الى غضب المنتصر .

وأصبح لكل من المنتصر والمعتز حزب مؤيد له ، وكثر الصراع بين رجال الدولة ، وانقسمت حاشية الخليفة على نفسها ، واشتد الصراع بين الفريقين ، وراح المتوكل نفسه ضحية هذا الصراع . وقد صور المسعودي[3] هذا الصراع فقال : « وقد كان بغا الصغير توحش من المتوكل فكان المنتصر يجذب قلوب الأتراك ، وكان أوتامش غلام الواثق مع المنتصر فكان المتوكل يبغضه لذلك وكان اوتامش يجتذب قلوب الأتراك الى المنتصر ، وعبيد الله بن خاقان الوزير والفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر مائلين الى المعتز ، وكانا قد أوغرا قلب المتوكل على المنتصر ، فكان لا يبعد المتوكل احداً من الاتراك الا اجتذبه المنتصر ، فاستمال اليه قلوب الأتراك وكثيراً من الفراغنة والأشروسية».

ثم كان يوم الفصل ، أو يوم المأساة ، وقد روى الطبري[4] والمسعودي[5] عدة روايات تختلف في تفاصيلها وأشخاصها . ومن الروايات التي ذكرها المسعودي رواية عن البحتري الشاعر وهي رواية شاهد عيان مما

---

(١) الطبري جـ٨ ص ٣٩٠ .
(٢) سميت بذلك لحسنها وجمالها ، كما كان يسمى الأسود كافوراً . (علي ابراهيم : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص٩٣).
(٣) مروج الذهب : جـ٤ ص ١٢١ .
(٤) تاريخ الطبري جـ٧ ص ٣٩٠- ٣٩٦ .
(٥) مروج الذهب جـ٧ ص ١٢٠- ١٢٢ .

يجعلنا نخصها بالذكر ، وقد عقد المتوكل مجلس لهو وشراب « وسكر المتوكل سكراً شديداً ، وكان من عادته أنه اذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه . فبينما نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل ، إذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم متلثمون والسيوف في أيديهم تبرق في ضوء تلك الشموع ، فهجموا علينا ، وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الأتراك على السرير ، فصاح بهم الفتح : ويلكم ، مولاكم . . فلما رآهم الغلمان ومن كان حاضراً من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم ، فلم يبق أحد في المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمنعهم . فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذي كان المتوكل دفعه اليه على جانبه الأيمن ، فقده الى خاصرته ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك . وأقبل الفتح يمانعهم عنه فبعجه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فأخرجه من متنه ، وهو صابر لا ينتحي ولا يزال . فما رأيت أحداً كان أقوى نفساً ولا أكرم منه ثم طرح بنفسه على المتوكل ، فماتا جميعاً ، فلفا في البساط الذي قتلا فيه وطرحا ناحية ، فلم يزالا على حالتهما في ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للمنتصر ، فأمر بهما فدفنا جميعاً »[1].

وتعجبنا أيضاً رواية صاحب الفخري[2] ، وتتفق مع رواية البحتري ، وهي : « وكانت بين المتوكل وبين ابنه المنتصر مباينة ، وكان كل منهما يكره الآخر ويؤذيه ، فاتفق المنتصر مع جماعة من الأمراء على قتله وقتل الفتح بن خاقان . وكان أكبر أمرائه وأفضلهم ، فهجموا عليه وهو يشرب ، فخبطوه بالسيوف فقتلوه وقتلوا الفتح معه ، وأشاعوا أن الفتح قتله فقتلناه به . وجلس ابنه على السرير بعد ذلك ، وذلك في سنة سبع واربعين ومائتين » .

ورثى الشاعر علي بن الجهم الخليفة المتوكل ، فقال :[3]

عبيد أمير المؤمنين قتلنه   وأعظم آفات الملوك عبيدها

---

(١) مروج الذهب جـ ٤ ص ١٢٠ - ١٢١ .
(٢) الفخري ص ٢١٥ .
(٣) المسعوي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٢٤ .

بني هاشم ، صبراً فكـل مصيبة   سيبلى على وجه الزمان جديدها

وتولى المنتصر بالله الخلافة في شوال سنة ٢٤٧ هـ ، « فخلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد الذي عقده لهما المتوكل بعده ، وأظهر العدل والإنصاف في الرعية ، فمالت اليه القلوب مع شدة هيبتهم له . . . وصار يسب الأتراك ويقول : هؤلاء قتلة الخلفاء ، فحملوا عليه ، وهموا به ، فعجزوا عنه لانه كان مهيباً شجاعاً فطناً متحرزاً ، فتحيلوا الى أن دسوا الى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار في مرضه ، فأشار بفصده ، ثم فصده بريشة مسمومة فمات . . . ولما احتضر قال : يا أماه ذهبت مني الدنيا والآخرة ، عاجلت أبي فعوجلت . . » .[1] . وتحدثت عامة النّاس عن الخليفة الذي حكم ستة شهور ، وهي نفس المدة التي حكمها شيرويه بن كسرى الذي قتل أباه أيضاً[2] .

٤ ـ تطور نظم الخلافة وولاية العهد في عهد المتوكل

نظام الخلافة :

الخلافة مصدر « خلف » ، يقال : خلفه خلافة ، كان خليفته وبقي بعده . والخليفة هو الإمام أو السلطان ، ويجمع خلائف وخلفاء . والخلافة موضوعة في الأصل لكون الشخص خلفاً لأحد ، ومن ثم سمي من يخلف رسول الله ﷺ في إجراء الأحكام الشرعية خليفة[3] .

ذهب السلف إلى أن أساس كل حكم في الاسلام « الخلافة » أو « الإمامة » ، وجروا في تعريف الخلافة على أنها رياسة في أمور الدين والدنيا نيابة عن رسول الله ، وأن منزلة الخليفة من الأمة منزلة رسول الله من المؤمنين له عليهم الولاية العامة ، والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم فيقيم فيهم حدوده ، وينفذ شرائعه ، وله حق القيام على شئون دنياهم أيضاً ، بيده زمام

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٥٧ .
(٢) الطبري جـ٧ ص ٤١٤ .
(٣) حسن ابراهيم وعلي ابراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٠ .

الأمة ، فكل ولاية مستمدة منه وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه ، فهو الحاكم الزمني وهو الحاكم الروحي .

وتشمل الخلافة سلطة أخروية وأخرى دينية ، كما أن الخلافة معينة بقوانين دينية وشرعية ، يسوس الخليفة بها أمته ويحمل الناس على أحكامها بالنيابة عن الرسول . وقد سموا الخليفة إماما تشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به[1] .

ظهرت الخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة ، وكان ظهورها نتيجة حتمية للفراغ الذي أحدثته وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وضرورة أوجبتها ظروف الدولة العربية الاسلامية التي قامت بظهور الاسلام . ثم تناول الفقهاء مسألة الخلافة بالبحث والمناقشة وحاولوا أن يجدوا للخلافة أصلاً في القرآن الكريم فجروا وراء الآيات الكريمة التي حوت كلمتي « خليفة » و « إمام » . وقد دفع الفقهاء الى هذا السلوك أن القرآن الكريم هو القانون الديني والمدني وهو دستور الدولة الاسلامية[2] .

تحدث ابن خلدون في مقدمته[3] عن المجتمع البشري ووقف على ميوله وخصائصه ورأى أن السياسة الدينية هي السياسة المثلى التي تعود بالخير على البشر ، وتؤدي الى سعادة المجتمع في جميع أحوالهم من عبادة أو معاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الانساني . ويرى ابن خلدون أن الحكومة الدينية هي خير أنواع الحكومات إذ إن غايتها هي المصلحة العامة ومنفعة المجتمع ، وان الحياة الدنيا يجب أن تتخذ وسيلة للحياة الآخرة . وأما القوانين التي تصدر من عند الله فهي خير ما يضمن سعادة الانسان في الدنيا والآخرة . ويرى ابن خلدون أن الخلافة وكالة عن النبي في السلطة السياسية والدينية ولا يمتاز الخليفة عن عامة المسلمين إلا من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارساً للدين .

---

(١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي جـ١ ص ١٢٧ .
(٢) الخربوطلي : الاسلام والخلافة ص ٣٠ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٠ .

وبينما كانت خلافة الراشدين تقوم - الى حد كبير - على نظام الشورى والانتخاب أصبحت الخلافة الأموية ملكية وراثية تعتمد على السيف والسياسة . ووضع معاوية نظام ولاية العهد فتحول نظام الخلافة الراشدة الذي يعتمد على الشورى ويستند الى الدين إلى النظام الملكي الذي يقوم على أساس التوريث ويستند الى السياسة أولاً والى الدين ثانياً . وبذلك أصبحت الخلافة الأموية أقرب الى السياسة منها الى الدين ، واستحالت بذلك الى ملك .

ولكن علينا أن نقدر أثر البيئة في تطور نظام البيعة إذ انه لما كانت المدينة حاضرة الدولة العربية في عهد الخلفاء الراشدين ، كانت السياسة والنفوذ للعنصر العربي ، وقام ذلك النظام الذي يتفق وطبيعة العرب . فلما أصبحت دمشق حاضرة الدولة العربية ، تأثر العرب بالبيئة التي عاشوا فيها ، وغدا نظام الخلافة أشبه بالنظام الملكي أو القيصري ومن ثم زادت الصفة الزمنية في الخليفة[١] .

وكان حزب بني أمية يرى أن البيت الأموي أحق بالخلافة بعد الخلفاء الراشدين ابي بكر وعمر وعثمان ، وأنهم أصحاب الحق في الأخذ بثأر عثمان والمطالبة بدمه لما كانت تربطهم به أواصر القربى[٢] .

لخص اليعقوبي[٣] مظاهر الملك في عهد معاوية فقال : « وكان معاوية أول من أقام الحرس والشرطة والبوابين في الاسلام وأرخى الستور واستكتب النصارى ومشي بين يديه بالحراب ، وأخذ الزكاة من الأعطية ، وجلس على السرير والناس تحته ، وجعل ديوان الخاتم وبنى وشيد البناء وسخر الناس في بنائه ولم يسخر أحد قبله . واستصفى أموال الناس فأخذها لنفسه ، وكان معاوية يقول : أنا أول الملوك » . ويرى نيكلسون[٤] أن الأمويين كانوا ملوكاً بالفعل خلفاء بالاسم .

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ١ ص ٤٧٣ .
(٢) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٦٨ .
(٣) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢١٧ .
(٤) Lit. History of the Arabs, p.151.

وبقيام الدولة العباسية تطور نظام الخلافة، فإن تلك الدولة قامت على كواهل الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم تسويتهم بالعرب في الحقوق السياسية والاجتماعية مع منافاة ذلك لحق المساواة الذي أقره الاسلام بين البشر. وقد حذا العباسيون حذو الأمويين في تولية العهد لأبنائهم[1].

وحلول العباسيين محل الأمويين لم يكن مجرد تغيير في الأسرة الحاكمة، وإنما كان ثورة، تم التمهيد لها وتنفيذها خلال مدة طويلة بحكمة وحذر وبصبر ودقة، وائتلفت في سبيل نجاحها فئات مختلفة جمعت بينها رغبة مشتركة هي إسقاط الحكم الأموي. فمنهم العلويون ومنهم المنتهزون ومعظمهم من الفرس. وكان العامل العنصري هو العامل الرئيسي في الثورة على الأمويين. واعتمد العباسيون فعلاً على العنصر الفارسي في دعوتهم ثم في إقامة دولتهم رغم اشتراك بعض العرب في الدعاية وفي الجيش الزاحف لهدم الدولة الأموية. ورسم العباسيون خطتهم على أساس من الاستعانة بكل القوى الممكنة ومن استغلال الأخطاء التي وقع فيها الأمويون. ثم على أساس أشد عمقاً من هذين وهو القضاء على مصادر القوة والخطر في الأفراد أو الجماعات من العرب أو من الفرس، ليكون للعباسيين فحسب السلطان والنفوذ[2].

كان الخليفة في العصر العباسي الأول يقوم على رأس الحكومة باعتباره مصدر كل السلطات وقد كان من حقه أن يعهد بممارسة سلطته المدنية إلى وزير وسلطته القضائية إلى قاض ووظيفته الحربية إلى قائد أو أمير، ولكن الخليفة العباسي رغم هذا العهد ظل دائماً الملجأ الأخير في كل شئون الحكومة[3]. وظل نظام الحكم في الدولة العباسية استبدادياً إلى عهد الرشيد على الرغم من أن أصحاب الدواوين أو البارزين من أفراد البيت العباسي كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين. أما الخليفة فكان مصدر كل قوة كما كان مرجعاً لكل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة[4].

---

(١) حسن ابراهيم: النظم الاسلامية ص ٢٠٥.
(٢) محمد حلمي: الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ٣٥ - ٣٧.
(٣) حتي: تاريخ العرب ص ٣٩٥.
(٤) سيد امير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٢٧١.

وضع ثاني الخلفاء العباسيين ، أبو جعفر المنصور ، أساس النظام السياسي الذي اتبعته الدولة في العصر العباسي الأول ، وقد اقتبسه عن الفرس حتى أصبح الخلفاء العباسيون كالأكاسرة الساسانيين فاقتبسوا نظرية الحق الملكي المقدس وأصبح الخليفة يحكم بتفويض من الله لا من الأمة .

وقف الإمام أبو حنيفة من خلافة المنصور واستبداده موقف المعارضة ، فكان ينتقد العباسيين في دروسه ، كما انتقد أعمال القضاء ورفض العمل للدولة[١] . وقد سأل المنصور أبا حنيفة عن رأيه في خلافته ، فقال : « المسترشد لدينه يكون بعيد الغضب إن أنت نصحت لنفسك علمت أنك لم ترد الله باجتماعنا ، فإنما أردت أن تعلم العامة أنا نقول فيك ما تهواه مخافة منك ، ولقد وليت الخلافة وما اجتمع عليك اثنان من أهل الفتوى ، والخلافة تكون باجتماع المؤمنين ومشورتهم »[٢] .

وكان أبو حنيفة يرى أن الاختيار العام للخليفة يجب أن يكون سابقاً على تولية سلطته أي أن الخلافة لا تتم إلا باختيار سابق من المؤمنين وبيعة كاملة ، فالخلافة عنده ليست بوصاية ولا يكون خليفة من يفرض نفسه على المسلمين وإن خضعوا بعد ذلك أو ارتضوه إنما الخلافة باختيار حر سابق على تولي الحكم[٣] .

ولم يؤيد الإمام مالك الدولة العباسية مما عرضه لاضطهاد الخليفة المنصور فقد أمر والي المدينة بضرب مالك سبعين سوطاً . وقد أصدر فتوى تؤيد ثورة محمد النفس الزكية الإمام العلوي[٤]، ضد المنصور ، مما أدى إلى انضمام كثير من المسلمين إلى الثورة ، فقد قال مالك لهم عن بيعتهم للمنصور

---

(١) الطبري جـ٦ ص ١٨١، المسعودي : مروج الذهب جـ٣ ص ٣٦٠ .
(٢) الموفق المكي : مناقب ابي حنيفة جـ١ ص ٨٢، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ١٣ ص ٣٣١ .
(٣) ابو زهرة: ابو حنيفة ص ١٦٥ .
(٤) وهو محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد ثار في المدينة سنة ١٤٥ كما ثار أخوه في البصرة في عهد المنصور .

بالخلافة : « إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين »[١] .

كان تدوين الأحاديث النبوية في العصر العباسي ووضع العباسيون والعلويون أحاديث تتمشى مع آرائهم ومصالحهم . فوضع العباسيون أحاديث تضفي شرعية على توليهم الخلافة باعتبارهم سلالة العباس عم الرسول ، ووضع الشيعة أحاديث تنتهي بحصر الخلافة في البيت العلوي ، وأهل السنة يجعلون الإمامة في قريش ويجعل الخوارج الخلافة حقاً لكل مسلم[٢] . ولما كان العباسيون أكثر مالاً وسلطاناً كان وضع الأحاديث لهم أوفر[٣] .

ويرى المستشرق (رونلدسن)[٤] أن بعض من اهتموا بجمع الحديث قد وقعوا تحت تأثير الخلفاء العباسيين وفي نفس الوقت حوت الصحاح الستة كثيراً من الأحاديث التي تمدح علي بن أبي طالب . وقد أقبل الناس في العصر العباسي على سماع هذه الأحاديث وكانت عاطفتهم قد أثيرت لما نزل من تنكيل بالأئمة العلويين على أيدي الخلفاء العباسيين .

استفاد العباسيون من حركة الرجعية التي قامت ضد بعض الخلفاء الأمويين غير الأتقياء، فطبع الخلفاء العباسيون من أول خلافتهم أنفسهم بالطابع الديني وأحاطوها بالوقار الذي تستلزمه مظاهرهم باعتبارهم أئمة[٥] .

صبغ الخلفاء العباسيون خلافتهم بصبغة دينية ، ورأينا النزعة الدينية عند الخلفاء العباسيين الأوائل واضحة ، فأحاطوا أنفسهم بالعلماء والفقهاء ودعموا قراراتهم السياسية بفتاوى شرعية دينية . فالمنصور يضم العلماء ورجال الدين إلى حاشيته ، والمهدي ينكل بالزنادقة ويدافع عن الإسلام ويهتم بالأماكن

---

(١) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٢٨٠، ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ٢ ص ١٤٨

(٢) كان الخوارج يطلقون الخلافة لكل مسلم له كفاءات وصلاحيات تولي الخلافة ، عربيا أو غير عربي ، حرا او عبدا ، ولذا يسميهم المستشرقون الجمهوريين . (انظر كتاب فلهوزن : الخوارج والشيعة).

(٣) احمد امين : ضحى الاسلام جـ٢ ص ١٢٦ .

(٤) رونلدسن : عقيدة الشيعة ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٥) حتي : تاريخ العرب ص ٣٩٤ .

المقدسة بالحجاز ويروي الأحاديث النبوية . وكان الرشيد يحج سنة ويغزو سنة ، والغزو جهاد ديني ، كما كان يصلي في كل يوم مائة ركعة[1] .

كما حرص الخلفاء العباسيون على ارتداء بردة الرسول عليه الصلاة والسلام عند تولي الخلافة ، أو في الحفلات الدينية ، باعتبار الخليفة نائباً عن الرسول عليه الصلاة والسلام في حكم المسلمين ، كما تلقب الخليفة العباسي بلقب (إمام) توكيداً للمعنى الديني في خلافة العباسيين بعد أن كان هذا اللقب يطلق في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين على من يؤم الناس في الصلاة على حين كانت الشيعة تطلقه على أبناء البيت العلوي الذين كانوا يعتقدون أنهم أحق بالخلافة من سواهم . وبعد أن صارت الخلافة العباسية تستند إلى نظرية الحق الآلهي قرّب الخلفاء إليهم العلماء ورجال الدين لينشروا بين الناس هذه النظرية التي أصبح لها شأن في الحياة السياسية في الدولة العباسية[2] .

استمر الخليفة العباسي التاسع الواثق بالله على سياسة أسلافه في الاعتماد على الدين كأساس للدولة ويبدو هذا في شعر علي بن الجهم[1] :

قد فاز ذو الدنيا وذو الدين بدولة الواثق هارون
أفاض من عدل ومن نائل ما أحسن الدنيا مع الدين

كما اعتبر العباسيون دائماً أن الخلافة والإمامة إنما هي لبني العباس فحسب ، فقال علي بن الجهم أيضاً في مدح الواثق :

يا بني العباس يأبى الله إلا أن تسوسوا

واختار جعفر بن المعتصم لنفسه لقب (المتوكل على الله) فقد كان كل الخلفاء العباسيين حريصين على ذكر اسم الجلالة في أسمائهم . وحرص المتوكل على أن تبايعه الخاصة وهم رجالات الدولة وبني العباس ، ثم بايعته العامة ، إذ لم يكن ولياً للعهد ، بل صار اختياره للخلافة بعد وفاة الواثق وفي

---

(١) الفخري ص ١٢٠ .
(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ٢ ص ١٩٥ .
(٣) الطبري جـ٧ ص ٣٣٩ .

ذلك يقول الطبري[١] : « وبويع للمتوكل ساعة مات الواثق بيعة الخاصة ، وبايعته العامة حين زالت الشمس من ذلك اليوم » .

ورث المتوكل عن الواثق والمعتصم دولة ساد فيها نفوذ الأتراك . وعاش في عاصمة (هي سامراء) يحتشد الأتراك فيها . ولذا أصبحت المناصب الكبرى في يد الأتراك . وكان (ايتاخ) من أبرز هؤلاء الأتراك وأصبح له سلطات واسعة منها الإشراف على دار الخلافة نفسها . فيقول الطبري[٢] : « فلما ولي المتوكل كان إيتاخ في مرتبته إليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة » وكان يعتمد على فرقة عسكرية ضخمة تسمى (الشاكرية) .

ولم يكن المتوكل بالخليفة الخانع الضعيف ، ولذا استمر طوال حياته في صراع مع الأتراك حتى لقي حتفه على أيديهم . والأتراك لم يكن يربطهم بعضهم ببعض أي رباط سوى رباط العنصر والاشتراك في أخلاق وصفات واحدة ، منها حب المغامرة والمشاكسة والعدوان . كما اتفقوا في عدم الخضوع لفرد أو جماعة من نفس الجنس ، شأنهم في هذا شأن الأعراب البدو في جاهليتهم . وعملوا على السيطرة على الخليفة وكانت الخلافة قد مهدت الطريق لهم ، في عهدي المعتصم والواثق ، حين ولتهم المناصب الرئيسية في دار الخلافة وفي الدواوين ، وفي الولايات وفي الجيش . ومما ساعد على تضخم نفوذ الأتراك في عهد الخليفة المتوكل ، ضعف نظام الوزارة ، وتكرار عزل وتعيين الوزراء وتنكيل المتوكل بهم وخاصة بمحمد بن عبد الملك الزيات على النحو الذي سنراه في هذا الفصل . وكان الأتراك فئات متباينة لكل منها زعماؤها ورؤساؤها المباشرون كما أن لهم من بين الكتاب من ارتبطت مصالحهم ومطامعهم بهم[٣] .

ولم يكن المتوكل يستطيع العودة إلى الاعتماد على الفرس أو على

---

(١) الطبري جـ٧ ص ٣٤٢ .
(٢) الطبري جـ٧ ص ٣٥١ .
(٣) محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ٨٧ - ٨٨ .

العرب ، وإن كان قد حاول هذه المحاولة فلم تستمر طويلاً ولم يتحقق لها النجاح . وقد ألبس المتوكل جنده الكسي الفارسية وأمر أن يتقلدوا سيوفهم في حزمهم على النمط الفارسي بدل أن يعلقوها على عواتقهم ويتركوها تتدلى إلى جانبيهم كما يفعل العرب . وتشبه المتوكل في ذلك بالخليفة أبي جعفر المنصور . فقد أمر رجاله سنة ١٥٣ هـ أن يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها بدل العمائم ، وأن يعتموا فوقها بعمامة صغيرة وأن يعلقوا السيوف في أوساطهم[١] .

وأراد المتوكل إضعاف شأن الأتراك أولاً ثم الخلاص منهم نهائياً . فبدأ بالتضييق المادي وبالاستعانة بعناصر جنسية مختلفة ، ولكنه لم ينجح بل كان مصرعه على أيدي الأتراك . فيقول المسعودي[٢] : « وجفا الموالي من الأتراك واطرحهم وحط مراتبهم ، وعمل على الاستبداد بهم والاستظهار عليهم . وضم إلى وزيره عبيدالله بن يحيى بن خاقان نحواً من اثني عشر ألفاً من العرب والصعاليك وغيرهم برسم المعتز وكان في حجره . وضاق عليهم المال بشركة هؤلاء معهم فيه وجعل يجيل الآراء في استئصالهم ، ونال ابنه محمداً بأنواع الذلة والهوان ، فأجمع على قتله ، فواطأ وصيفاً وبغا وغيرهم من الموالي على الفتك به ، فأعدوا لذلك عدة من أصاغر الموالي منهم باغر وغيره ، فقتلوه بمدينته المسماة بالجعفرية من سرمن رأى ليلة الأربعاء لثلاث ليال خلون من شوال سنة ٢٤٧ هـ ، وله إحدى وأربعون سنة ، وكانت خلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام » .

ومن روايات الطبري[٣] ، نرى أن دار الخلافة كانت في أيدي الأتراك ، فنرى وصيفاً ، وبغا الصغير المعروف بالشرابي وباغراً ، وزرافة وأوتامش وشفيعاً ، وفرج الصغير ، ومؤنساً ، وبغلو ، وموسى بن بغا ، وهارون بن

---

(١) الطبري جـ٦ ص ٣٢٠ .

(٢) التنبيه والاشراف ص ٣١٣ .

(٣) الطبري جـ٧ ص ٣٩٣ وما بعدها .

صوارتكين ، وعثعث ، وزرقان . وكل هؤلاء الأتراك كانوا في دار الخلافة وقت اغتيال المتوكل واشتركوا جميعاً فيه ، وقام كل منهم بدور في مؤامرة الاغتيال .

وكان المتوكل قد خالف ما سار عليه أسلافه الخلفاء التسعة الأوائل ، في الظهور بمظهر الجد والتقوى وعدم الجهر بشرب الخمر والمجون ، فيقول المسعودي[1] : « وصفت له الدنيا فنال منها أعظم الحظ ، على إيثاره الهزل والمضاحك والأمور التي تشين الملوك » . كما يقول المسعودي في كتاب آخر[2]: «ولا يعلم أحد في صناعته في جدّ ولا هزل إلا وقد حظي في دولته وسعد بأيامه ووصل إليه نصيب وافر من ماله » . واحتشد في قصر الخلافة عدد ضخم من الجواري ، منهن أربعة آلاف سرية وطئهن المتوكل كلهن[3] .

ورغم كراهية المتوكل للأتراك فقد قرب إليه الفتح بن خاقان التركي ، وأبدى الفتح إخلاصاً دائماً حتى انه شارك الخليفة في مصيره المؤلم ، فلقي حتفه معه كما رأينا . وتحدث المسعودي[4] عن الفتح ، فقال : « وكان الفتح ابن خاقان مولاه أغلب الناس عليه وأقربهم منه وأكثرهم تقدماً عنده ولم يكن الفتح مع هذه المنزلة من الخلافة ممن يرجى فضله ويخاف شره ، وكان له نصيب من العلم ومنزلة من الأدب ، وألف كتاباً في أنواع من الأدب ترجمة بكتاب البستان » .

ويتميز العصر العباسي الثاني ببداية بروز نفوذ النساء في قصر الخلافة العباسية ولكن المتوكل كان من الخلفاء الأقوياء فكان نفوذ النساء في عهده محدوداً . وإن كان قد تضخم فيما بعد في عهود خلفائه .

برزت في عهد المتوكل (قبيحة) أم ولده المعتز ، وقد قامت بدور كبير في جعل المتوكل يقرب إليه ابنه المعتز ويجفو ابنه الأكبر المنتصر ، مما جعل

---

(١) التنبيه والاشراف ص ٣١٤ .
(٢) مروج الذهب جـ٤ ص ١٢٣ .
(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٥٠ .
(٤) مروج الذهب جـ٤ ص ٨٦- ٨٧ .

المنتصر يحقد على أبيه ويدبر قتله[1] . وسنتحدث عن قبيحة بالتفصيل في فصل الحياة الاجتماعية في الباب الثاني من هذا الكتاب مكتفين هنا بالإشارة إلى دورها السياسي . وقد أبدى المعتز حين تولى الخلافة ، عداء للأتراك واصطنع المغاربة والفراغنة[2] .

نظام ولاية العهد :

كان معاوية بن أبي سفيان ، مؤسس الدولة الأموية ، أول من استحدث نظام ولاية العهد في الدولة الإسلامية ، فقد حول الخلافة إلى نظام وراثي وبايع لابنه يزيد بولاية العهد دون أبناء الصحابة مثل الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر وعبدالله بن العباس وغيرهم .

وكان نظام ولاية العهد في العصر الأموي من عوامل ضعف الدولة الأموية ثم سقوطها . فلم يكن هناك نظام ثابت محدد ، وأخطأ كثير من الخلفاء الأمويين حين عهدوا بالخلافة إلى أكثر من واحد مما أدى إلى انقسام البيت الأموي . فقد كان ولي العهد الأول عندما يصبح خليفة يحاول بدوره تعيين ابنه بعده وخلع ولي عهده[3] .

ووقع العباسيون في نفس الخطأ ، رغم أنهم استفادوا من أخطاء الأمويين السابقة في بعض الجوانب السياسية فتلافوها . ويعلق الدكتور فيليب حتي[4] على نظام ولاية العهد في العصر العباسي فيقول : حذا العباسيون حذو الأمويين في نظام الوراثة غير الواضحة المعالم ، وكانت نتيجته سيئة عليهم كما كانت سيئة على أسلافهم الأمويين ، وكان الخليفة المتولي الحكم يعين أحد أبنائه ممن كان يحبهم أو يرى فيهم الكفاية ولياً للعهد من بعده كما كان في بعض الأحيان يعين أحد أقربائه ولياً للعهد إذا كان يرى أن صفاته تؤهله لذلك .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٢٥ .
(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٧٨ .
(٣) الخربوطلي : الاسلام والخلافة ص ١٢٠ .
(٤) حتي : تاريخ العرب ص ٣٩٤ .

عهد أول الخلفاء العباسيين أبو العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ) بالخلافة إلى أبي جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى ، فلما تولى المنصور خلع عيسى وبايع لابنه المهدي[١] أولا ومن بعده عيسى بن موسى ولما تولى المهدي الخلافة (١٥٨ - ١٦٩ هـ) خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد وولى ولديه موسى الهادي ثم هارون الرشيد . كذلك أراد الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ) خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر ، لولا أن مات الهادي قبل تنفيذ مشروعه[٢] . كما حاول الأمين خلع أخيه المأمون والبيعة لابنه الطفل مما أدى إلى صراع الأخوين[٣] . وبايع المأمون بولاية العهد للإمام العلوي علي الرضا . فتتحـول الخلافة بذلك من البيت العباسي إلى البيت العلوي[٤] . وبايعت الأسرة العباسية وأهالي بغداد لإبراهيم بن المهدي[٥] . واضطر المأمون إلى العدول عن هذا المشروع بل دبر مؤامرة انتهت بالخلاص من علي الرضا[٦] .

تولى الخليفة الثامن المعتصم بعهد من أخيه المأمون ، وقد عدل المأمون عن البيعة لابنه العباس رغم شعبيته الواسعة في صفوف الجند ، فقد رأى المأمون في المعتصم قوة الشكيمة ومتانة الخلق مما يجعله جديراً بحمل لواء الدولة العباسية بعده[٧] . كما عهد المعتصم لابنه الواثق ، وكان قد أعده للخلافة وأشركه معه في كثير من أمور الدولة[٨] وحين مرض الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) ، في مرضه الأخير رفض أن يوصي بالخلافة لولده ، قال : « لا أتحمل أمركم حياً وميتاً »[٩] ويبدو أنه أدرك أن الأمر قد صار في أيدي الأتراك .

---

(١) الفخري ص ١٦٢ .

(٢) الطبري جـ٦ ص ٣٩٠ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٧٢ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب جـ٣ ص ٢٦٨ ، الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٤٣ ، ابن الاثير : الكامل جـ٦ ص ٧٠ .

(٥) الطبري جـ٧ ص ١٣٥ ، ابن الاثير : الكامل جـ٦ ص ١١١ .

(٦) تاريخ اليعقوبي جـ١ ص ١٧٦ ، الاصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٥٦٣ .

(٧) الطبري جـ٧ ص ١٧٢ .

(٨) المسعودي : مروج الذهب جـ٤ ص ١٠١ .

(٩) الطبري جـ٧ ص ٣٤٢ .

فلم يشأ أن يدع لهم فرصة نقض بيعته لابنه وخاصة أنه كان لا يزال حدثاً .

وقد تولى المتوكل على الله الخلافة (٢٣٢ هـ) باختيار من رجال الدولة ، وخاصة الأتراك ، لا بعهد من سلفه الواثق . وقد فضله وصيف التركي على محمد بن الواثق . وهو « غلام أمرد قصير »[١] . بل إن محمد بن عبد الملك الزيات أراد أن يلقب الخليفة الجديد بالمنتصر ولكنه اختار لنفسه لقب (المتوكل على الله) .

ووقع المتوكل في نفس الخطأ الذي وقع فيه أسلافه من الأمويين والعباسيين ، وهو أخذ العهد لأكثر من واحد من أولاده ، ففي سنة ٢٣٥ هـ أخذ البيعة لأولاده الثلاثة . وفي ذلك يقول الطبري[٢] : « وفي هذه السنة (٢٣٥ هـ) عقد المتوكل لبنيه الثلاثة : لمحمد وسماه المنتصر ، ولأبي عبدالله بن قبيحة ويختلف في اسمه فقيل إن اسمه محمد وقيل اسمه الزبير ولقبه المعتز ، ولإبراهيم وسماه المؤيد ، بولاية العهد وذلك فيما قيل يوم السبت لثلاث بقين من ذي الحجة وقيل لليلتين بقيتا منه ، وعقد لكل واحد منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل . وضم إلى كل واحد من العمل ما أنا ذاكره . فكان ما ضم إلى ابنه محمد المنتصر من ذلك افريقية والمغرب كله من عريش مصر إلى حيث بلغ سلطانه من المغرب وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية وديار مضر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا وكور باجرمي وتكريت وطساسيج السواد وكور دجلة والحرمين واليمن وعك وحضرموت واليمامة والبحرين والسند ومكران وقندابيل وخراج بيت الذهب وكور الأهواز والمستغلات بسامرا وماه الكوفة وماه البصرة وماسبذان ومهرجان قذق وشهر زور ودرابا ذو الصامغان وأصبهان وقم وقاشان وقزوين وأمور الجبل والضياع المنسوبة إلى الجبال وصدقات العرب بالبصرة .

وكان ما ضم إلى ابنه المعتز : كور خراسان وما يضاف إليها ، وطبرستان

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ٥ ص ١٦٥ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٥٨ .

والري وأرمينية وأذربيجان وكور فارس وضم إليه في سنة ٢٤٠ خزن بيوت الأموال في جميع الآفاق ودور الضرب وأمر بضرب اسمه على الدراهم .

« وكان ما ضم إلى ابنه المؤيد جند دمشق ، وجند حمص ، وجند الأردن ، وجند فلسطين . فقال أبو الغصن الأعرابي :

إن ولاة المسلمين الجلّة   محمد ثم أبو عبدالله
ثمت إبراهيم آبي الذلة   بورك في بني خليفة الله

وكتب المتوكل كتاباً ، سنذكره كاملاً في ملاحق البحث ، ونذكر الآن السطور الأولى منه وهي : **«هذا كتاب كتبه عبدالله جعفر الإمام المتوكل على الله** أمير المؤمنين وأشهد الله على نفسه بجميع ما فيه ، ومن حضر من أهل بيته وشيعته وقواده وقضاته وكفاته وفقهائه ، وغيرهم من المسلمين ، لمحمد المنتصر بالله ، ولأبي عبدالله المعتز بالله ، وإبراهيم المؤيد بالله ، بني أمير المؤمنين ، في أصالة من رأيه ، وعموم من عافية بدنه ، واجتماع من فهمه ، مختاراً لما شهد به ، متوخياً بذلك طاعة ربه وسلامة رعيته واستقامتها وانقياد طاعتها واتساع كلمتها وصلاح ذات بينها ، وذلك في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين ومائتين . . »[1] .

أنشد إبراهيم بن العباس بن محمد بن مول مسجلاً هذه البيعة بولاية العهد لأبناء المتوكل الثلاثة :

أضحت عرى الإسلام وهي منوطة   بالنصر والإعزاز والتأييد
بخليفة من هاشم وثلاثة   كنفوا الخلافة من ولاة عهود
قمر توالت حوله أقماره   يكنفن مطلع سعده بسعود
كنفتهم الآباء واكتنفت بهم   فسعوا بأكرم أنفس وجدود[2]

فما كان مصير هذه البيعة لهؤلاء الأبناء الثلاثة ؟ كان المتوكل واقعاً تحت

(١) انظر النص كاملا في تاريخ الطبري جـ٧ ص ٣٥٩ - ٣٦٢ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٦٢ - ٣٦٣ .

تأثير زوجته المحبوبة « قبيحة » ، فكان يفضل ابنها المعتز على سائر إخوته ، بل دفعه هذا الحب إلى اضطهاد المنتصر . فيروي الطبري [1] أن المتوكل سنة ٢٤٧ هـ عقد يوماً مجلس لهو وشراب ، وعزم في اليوم التالي على الخلاص من المنتصر والأتراك فيقول : « إن المتوكل عزم هو والفتح أن يصيرا غداهم عند عبدالله بن عمر البازيار يوم الخميس لخمس خلون من شوال ، على أن يفتك بالمنتصر ويقتل وصيفاً وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم ، فكثر عبثه قبل ذلك بيوم بابنه المنتصر مرة يشتمه ومرة يسقيه فوق طاقته ، ومرة يأمر بصفعه ، ومرة يتهدده بالقتل . . . . ثم قال المتوكل لمن حضر : اشهدوا جميعاً أني قد خلعت (المستعجل) ، سميتك (المنتصر) فسماك الناس لحمقك (المنتظر) ، ثم صرت الآن (المستعجل) . فقال المنتصر : يا أمير المؤمنين لو أمرت بضرب عنقي كان أسهل علي مما تفعله بي . . » .

ثم كان تآمر المنتصر مع الأتراك لقتل أبيه المتوكل ، على النحو الذي ذكرناه في الفصل السابق . حتى اذا تولى المنتصر الخلافة حرضه الأتراك على خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد إذ كانوا يخشون بأسهما . وكتب كل واحد منهما رقعة بخطه أنه خلع نفسه من البيعة[2] .

ولما مات المنتصر ، اجتمع القواد وتشاوروا فيمن يتولى الخلافة ، فاختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم وهو ابن أخي المتوكل . فروى السيوطي[3] : « ولما مات المنتصر اجتمع القواد وتشاوروا وقالوا : متى وليتم أحداً من أولاد المتوكل لا يبقى منا باقية . فقالوا : ما لها إلا أحمد بن محمد بن المعتصم ولد استاذنا، فبايعوه وله ثمان وعشرون سنة ، واستمر إلى أول سنة إحدى وخمسين فتنكر له الأتراك لما قتل وصيفاً وبغا ونفى باغر التركي الذي قتل المتوكل ، ولم يكن للمستعين مع وصيف وبغا أمر حتى قيل في ذلك :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٩٢ .

(٢) الطبري جـ ٧ ص ٤١٠ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٥٨ .

يـقـول مـا قـالا لـه كـما تـقـول الـبـبـغـا

وهكذا أصبح المتوكل بالنسبة للأتراك شبحاً يثير مخاوفهم حتى أنهم رفضوا أن يولوا أحداً من أبنائه بعد وفاة المنتصر .

٥ ـ بداية ضعف نظام الوزارة في الدولة العباسية

كانت كلمة (وزير) معروفة للعرب قبل الفتوحات الإسلامية ، ففي القرآن الكريم على لسان موسى : ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي﴾ . وفي حديث السقيفة[1] : « نحن الأمراء وأنتم الوزراء » . وفي طبقات ابن سعد : « إن أبا بكر كان وزيراً للنبي ﷺ » . وفي الدولة الأموية كان اللفظ مستعملاً . يقول الطبري : « إن زياداً كان يسميه معاوية وزيراً » . كما كان المختار بن أبي عبيد الثقفي يسمي نفسه « وزير آل محمد » .

ولكن الكلمة في كل المواضع لم تستعمل في المعنى الاصطلاحي الذي نعرفه الآن من كلمة الوزير وإنما هي بمعنى المؤازر المناصر[2] .

وقال ابن خلكان[3] : « وقد اختلف أرباب اللغة في اشتقاق الوزارة على قولين : أحدهما أنها من الوزر (بكسر الواو) وهو الحمل ، فكأن الوزير قد حمل عن السلطان الثقل ، وهذا قول ابن قتيبة ، والثاني : إنها (الوزر) بفتح الواو والزاي . وهو الجبل يعتصم به لينجى به من الهلاك . وكذلك للوزير معناه : الذي يعتمد عليه الخليفة أو السلطان ويلتجيء إلى رأيه . وهو قول ابن اسحاق الزجاج » . ويرجح المرحوم الأستاذ أحمد أمين[4] أن أصل الكلمة

(١) وهي سقيفة بني ساعدة التي تم فيها الحوار بين الأنصار وبين المهاجرين الثلاثة أبي بكر وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح ، وانتهى بالبيعة لأبي بكر بالخلافة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

(٢) الخربوطلي : الإسلام والخلافة ص ١٥٠ .

(٣) انظر ترجمة ابن خلكان لأبي سلمة الخلال ، الماوردي : أدب الوزير ص ٩ والقاموس المحيط للفيروز أبادي .

(٤) ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٧٢ .

عربي ، ولا يوافق على ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن أصل الكلمة فهلوي مأخوذ من (فيشيرا) ومعناها الأمر أو التقرير .

اقتبس الخلفاء العباسيون نظم الحكم في دولتهم عن الفرس ، ومنها الوزارة وكان الوزير في عهدهم ساعد الخليفة الأيمن ، يقضي باسمه في جميع شئون الدولة ، فكان له الحق في تنصيب العمال والإشراف على الضرائب ، فكان بذلك ينوب عن الخليفة في حكم البلاد ويجمع في شخصه بين السلطتين المدنية والحربية بجانب الواجبات العادية من نصح الخليفة ومساعدته[1]

تحدث ابن طباطبا[2] عن نظام الوزارة في العصر العباسي الأول ، فقال : « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون في طبعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ليعامل كلاً من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة والأمانة والصدق رأس ماله . . . والوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس . فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار بذوي الحجى والآراء الصائبة فكل منهم يجري مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمي الوزير وزيراً ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً » .

وتحدث ابن خلدون[3] عن سلطات وواجبات الوزير في العصر العباسي ، فقال « فلما جاءت دولة بني العباس ، واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت اليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد ، وتعينت مرتبته في الدولة ، وعنت له الوجوه وخضعت له الرقاب ، وجعل له النظر في ديوان الحِسْبَان لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند ، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه ، وأضيف اليه النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ١٩٦ .
(٢) الفخري ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٠ .

قد فسد عند الجمهور . وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ، ودفع اليه ، فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة » .

بعد قيام الدولة العباسية ، أطلق الفرس على أبي سلمة الخلال اسم (وزير آل محمد) وأصبح وزيراً لأبي العباس أول الخلفاء العباسيين ، وقد منحه نقباء الدعوة العباسية هذا اللقب ، وسلموا إليه الرياسة[1] وأصبحت وظيفة أبي سلمة الخلال تقارب إلى حد كبير وظيفة الكاتب الأموي ويتضح هذا في قول المسعودي[2] : « استخارت بنو العباس تسمية الكاتب وزيراً » .

ولم يحدث العباسيون في الحقيقة تغييراً إدارياً جوهرياً بتسمية أبي سلمة الخلال وزيراً . ولكن فكرة الوزارة العباسية واشتراك الفرس في السلطة أدى بمرور الزمن إلى ظهور نظام الوزارة على صورته الكاملة ، وإلى رسوخه كأساس للإدارة العباسية[3] .

كان معظم وزراء الخلفاء العباسيين من الفرس ، فأبو سلمة الخلال أول وزير عباسي مولى فارسي وأبو أيوب المورياني وزير المنصور فارسي من (موريان) وهي قرية من قرى الأهواز . ويعقوب بن داود وزير المهدي مولى كذلك . وكذلك كان البرامكة في عهد الرشيد ، والفضل بن سهل في عهد المأمون . وكان الوزير قائماً مقام الخليفة في كل الشئون ، فينظر في الشئون الحربية وفي الشئون المالية ، ويكتب الرسائل إلى الجهات المختلفة ، ويوقع على ما يرفع إليه من أوراق ، ولم يتعدد الوزراء في الدولة العباسية بتعدد الأعمال فيجعل للحرب وزير، وللمال وزير ، وهكذا، وإنما كان تعداد الوزراء بتعداد الأعمال من نظام الدولة الأموية بالأندلس، ولكن العباسيين جمعوا بين السيف والقلم[4] .

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٨٤ .
(٢) المسعودي : التنبيه والإشراف ص ٢٩٤ .
(٣) الدوري : العصر العباسي الأول ص ٦٢ .
(٤) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٧٣ .

وروعي في اختيار الوزراء الفرس الكفاءة في الكتابة والإدارة فكان أبو سلمة الخلال فصيحاً عالماً بالأخبار والأشعار والسير والجدل . وقال الموزياني : « ليس من شيء إلا وقد نظرت فيه إلا الفقه ، وقد نظرت في الكيمياء والطب والنجوم والحساب ، حتى السحر »[١] . كما اهتم البرامكة بالعلوم والآداب . وكانت القدرة الكتابية عند الفرس ، أوضح منها عند العرب ، بل كان أشهر الكتاب الفنيين في العصر الأموي من الفرس[٢] . وكان العربي يفخر بالسيف واللسان لا بالقلم .

يحدد الماوردي[٣] سبع صفات يجب توفرها في الوزير ، أولها الأمانة ، حتى لا يخون فيما أؤتمن ، وثانيها صدق اللهجة حتى يوثق بخبره ، وثالثها قلة الطمع حتى لا يرتشي ، ورابعها أن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء ، وخامسها أن يكون ذكوراً لما يؤديه للخليفة وعنه ، وسادسها الذكاء والفطنة حتى لا تدلس عليه الأمور فتشتبه ، وسابعها أن لا يكون من أهل الأهواء فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل . وثامنها الحنكة والتجربة التي تؤدي به إلى صحة الرأي وصواب التدبير .

وذكر المسعودي[٤] عن صفات الوزير ، فقال : « فلم يكن الخلفاء والملوك تستوزر إلا الكامل من كتابها ، والأمين العفيف من خاصتها ، والناصح الصدوق من رجالها ومن تأمنه على أسرارها وأموالها ، وتثق بحزمه وفضل رأيه وصحة تدبيره في أمورها » .

ويشير إبراهيم بن محمد الكاتب إلى صفات الوزير فيقول : « يجب أن يكون ـ الوزير ـ نقي الملبس نظيف المجلس ، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة ، دقيق الذهن ، صادق الحس ، حسن البيان ، رقيق حواشي اللسان ، حلو الإشارة ، مليح الاستعارة لطيف المسالك »[٥] .

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٩٧ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢١٦ .
(٢) مثل عبدالحميد الكاتب ، وسالم مولى هشام بن عبدالملك .
(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢٦ ـ ٢٧ ، أبو يعلى : الأحكام السلطانية ص ١٥ .
(٤) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢٩٤ .
(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ١٧١ .

وصارت الوزارة بين أرباب السيوف تارة وبين أرباب القلم تارة أخرى ، إلا أنها في أرباب الأقلام أكثر . فإذا كان الوزير صاحب سيف كان في مجلس الخليفة قائماً في جملة الأمراء القائمين ، وإذا كان الوزير صاحب قلم كان جالساً كما يجلس أرباب الأقلام من كتاب السر وغيرهم[١] .

اختلفت أبعاد وحدود سلطة الوزراء تبعاً لشخصية الخليفة ، وكان كثير من الوزراء العباسيين في العصر الأول على جانب كبير من النفوذ والسلطة حتى أصبح الوزير هو المرجع الأعلى لشئون الدولة[٢] . وكان معظم الخلفاء يفوضون وزراءهم في حكم الدولة[٣] .

وأصبحت بعض الأسر الكبيرة من الكتاب في العصر الأول تتوارث منصب الوزارة ، مثل البرامكة ، وآل يونس (الربيع بن يونس والفضل بن الربيع) وبني سهل (الفضل والحسن) وفي نهاية القرن الثالث الهجري ظهرت أسر جديدة توارثت منصب الوزارة ، مثل آل خاقان وقد تولى منهم أربعة وزراء خلال سبعين عاماً . كما تقلد أربعة وزراء من بني الفرات خلال خمسين سنة . وتولى أربعة من بني وهب الوزارة[٤] . وتقلد أربعة وزراء من آل الجرّاح ، وخمسة وزراء من بني مخلد ، وزيران من كل من بني الخصيب وبني مقله[٥] .

ودخلت الوزارة في عهد جديد متميز ، بظهور العنصر التركي على مسرح الأحداث في الدولة العباسية وكان على الوزراء أن يقوموا بدورهم في العلاقات بين الخليفة والأتراك .

والمعتصم هو الخليفة الذي بدأ في عهده النفوذ التركي . وقد اختار

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ١١ ص ١٤٨ - ١٤٩ .
(٢) Sourdel : Le Vizarat Abbaside; P. 73.
(٣) لوبون : حضارة العرب ص ١٧٣ .
(٤) الفخري ص ٢٢٢ .
(٥) ابن النديم : الفهرست ص ١٩١ .

الفضل بن مروان وزيراً له ، وكان قد تولى الكتابة له قبل تولية الخلافة ، وكان المعتصم يعترف بجميل الفضل عليه . إذ أخذ البيعة للمعتصم بعد وفاة أخيه المأمون[1] . وأراد الفضل الإستبداد بالسلطة ، فأظهر استقلالاً في الرأي وتجرأ على مناقشة آراء الخليفة ومعارضته أحياناً ، مما أغضب المعتصم[2] . رغم أن هذا الوزير كان ـ كما وصفه ابن طباطبا ـ[3] « عامياً لا علم عنده ولا معرفة ، وكان رديء السيرة جهولاً بالأمور ، وفيه يقول بعض شعراء عصره :

تفرعنت يا فضل بن مروان فاعتبر   فقبلك كان الفضل والفضل والفضل[4]

ثـلاثـة أمـلاك مضـوا لسبيلهم   أبـادهم التقييـد والأسـر والقتـل

كما وصف ابن النديم الوزير الفضل بن مروان بأنه « كان قليل المعرفة بالعلم ، حسن المعرفة بخدمة الخلفاء »[5] .

وحاول الفضل الحد من نفقات المعتصم ، مما أغضب الخليفة ، فيقول الطبري[6] عن الوزير : « أنه حملته الدالة وحركته الحرمة على خلاف المعتصم في بعض ما كان يأمر به ، ومنعه ما كان يحتاج إليه من الأموال في مهم أموره » . وضاق الخليفة بالوزير ، فعزلـه وصادر أمواله فكانت عشرة ملايين دينار ، ثم نكبه وأهل بيته ونفاه إلى قرية في طريق الموصل سنة **٢١٩** هـ[7] ، وأبدى المعتصم عجبه من ضخامة ثروة وزيره . فقال : « ما كنت أعلم أن في الدنيا من له مثل هذا المال »[8] .

واستمر تدهور نظام الوزارة ، فقد وجد المعتصم غناء في أتراكه ، يثق

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤١٤ ، أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ٣٥ .

(٢) الطبري جـ ٧ ص ٢٧٠ .

(٣) الفخري ص ٢١٢ .

(٤) هم الفضل بن يحيى بن خالد ، والفضل بن سهل ، والفضل بن الربيع .

(٥) ابن النديم : الفهرست ص ١٩٠ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١٠ ص ٤١٢ .

(٦) الطبري جـ ٧ ص ٢٧٣ .

(٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ١٥٣ .

(٨) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٦ ص ٤٧٩ .

فيهم ويعتمد عليهم . فاستوزر المعتصم أحمد بن عمار ، وقال صاحب الفخري عنه[1] : « كان رجلاً موسراً من أهل المذار ، فانتقل إلى البصرة واشترى بها أملاكاً وكثر ماله . وكان طحاناً ثم أصعد إلى بغداد واتسع بها حاله ، فقالوا كان يخرج في الصدقة كل يوم مائة دينار . وكان الفضل بن مروان قد وصفه بالأمانة عند المعتصم فلما نكب الفضل لم يقع نظر المعتصم على غير أحمد بن عمار فاستوزره . وكان جاهلاً بآداب الوزارة . وفيه يقول بعض شعراء عصره :

سبحان ربي الخالق الباري ... صرت وزيراً يا ابن عمار
وكنت طحاناً على بغلة ... بغير دكان ولا دار
كفرت بالمقدار إن لم تكن ... قد جزت في ذا كل مقدار

وضاق المعتصم ذرعاً بجهل أحمد بن عمار ، فعزله من الوزارة وعهد إليه ببعض الدواوين . ثم استوزر المعتصم محمد بن عبدالملك الزيات . فأعاد للوزارة هيبتها وقوتها وقد وصفه الجهشياري بأنه « كان نادرة وقته عقلاً وفهماً وذكاء وكتابةً وشعراً وأدباً وخبرةً بآداب الرئاسة وقواعد المُلْك ، نهض بأعباء الوزارة نهوضاً لم يكن لمن تقدمه من أضرابه وله ديوان شعر »[2] .

تولى محمد بن عبدالملك الزيات الوزارة في عهود ثلاثة خلفاء متتالين هم : المعتصم ، والواثق ، والمتوكل . فقال عنه الفضل بن مروان : « لا نعلم وزيراً وزر وزارة واحدة بلا صرف لثلاثة خلفاء منسقين غير محمد بن عبدالملك الزيات »[3] .

ويعتبر الدكتور الدوري[4] محمد بن عبدالملك الزيات خاتمة تلك السلسلة الذهبية من وزراء العصر العباسي الأول ، الذين ندر أن أنتجت العصور المتأخرة مثلهم .

---

(١) الفخري ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .
(٢) الجهشياري : نصوص ضائعة ، جمع كوركيس عباد ص ٦٤ .
(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٨ ص ١٥ .
(٤) الدوري : العصر العباسي الأول ص ٢٥٥ .

وكان صاحب كتاب الفخري صورة متكاملة للزيات فقال[1] : « كان أبوه تاجراً في أيام المأمون موسراً ، ونشأ محمد فتأدب وقرأ وفهم ، وكان ذكياً فبرع في كل شيء حتى صار نادرة وقته عقلاً وفهماً وذكاءً وكتابةً وشعراً وأدباً وخبرةً بآداب الرئاسة وقواعد المُلْك . حتى كانت أيام المعتصم فاستوزره ، فنهض بأعباء الوزارة نهوضاً لم يكن لمن تقدمه من أضرابه . وكان جباراً متكبراً فظاً غليظ القلب خشن الجانب مبغضاً إلى الخلق ، ومات المعتصم وهو وزيره » .

وصف ابن خلكان[2] الوزير الزيات بأنه « كان من أهل الأدب الظاهر والفضل الباهر أديباً فاضلاً عالماً بالنحو واللغة » . ويصفه ابن دكين[3] بقوله : « وكان شاعراً مجيداً بليغاً » . وقام الزيات بدور كبير في عهد المعتصم في محاكمة الافشين محاكمة علنية لاتهامه بالزندقة[4].

تولى محمد بن عبدالملك الزيات الوزارة في عهد الواثق بالله ، رغم ما كان بينهما من خصومة في عهد المعتصم . ويصور صاحب الفخري[5] ما كان بين الواثق والزيات ، فيقول : « كان المعتصم قد أمر لابنه الواثق بمال ، وأحاله على ابن الزيات فمنعه وأشار على المعتصم أن لا يعطيه شيئاً ، فقبل المعتصم قوله ورجع فيما كان أمر به للواثق من ذلك ، فكتب بخطه كتاباً وحلف فيه بالحج والعتق والصدقة أنه إن ولي الخلافة ليقتلن ابن الزيات شر قتلة . فلما مات المعتصم وجلس الواثق على سرير الخلافة ، ذكر حديث ابن الزيات فأراد أن يعاجله فخاف أن لا يجد مثله . فقال للحاجب : أدخل إلي عشرة من الكتاب . فلما دخلوا عليه اختبرهم فما كان فيهم من أرضاه . فقال للحاجب : أدخل من الملك محتاج إليه محمد بن الزيات . فأدخله فوقف ين يديه خائفاً ، فقال لخادم : أحضر إلي المكتوب . فأحضر له الكتاب الذي كان كتبه وحلف

---

(١) الفخري ص ٢١٣ .
(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٥٤ .
(٣) ابن دكين : روضة الأعيان (مخطوط) ورقة ٣ .
(٤) الطبري جـ ٧ ص ٢٨٠ .
(٥) الفخري ص ٢١٣ - ٢١٤ .

فيه ليقتلن ابن الزيات ، فدفعه إلى ابن الزيات ، وقال : اقرأه . فلما قرأه قال : يا أمير المؤمنين ، أنا عبد ، إن عاقبته فأنت حاكم فيه ، وإن كفرت عن يمينك واستبقيته كان أشبه بك . فقال الواثق : والله ما أبقيتك إلا خوفاً من خلو الدولة من مثلك ، وسأكفر عن يميني ، فإني أجد عن المال عوضاً ولا أجد عن مثلك عوضاً . ثم كفر عن يمينه واستوزره ، وقدمه ، وفوض الأمور إليه » .

أنشد محمد بن عبدالملك الزيات ، يرثي المعتصم ويمدح الواثق :

قد قلت إذ غيبوك واصطفقت	عليك أيد بالماء والطين
اذهب فنعم المعين أنت على	الدنيا ونعم المعين بالدين
لا يجبر الله أمة فقدت	مثلك إلا بمثل هارون[1]

ظل محمد بن عبدالملك الزيات وزيراً حتى مات الخليفة الواثق[2] . وبرز نفوذ الوزير في عهد الواثق ، فيقول المسعودي[3] : « وغلب عليه أحمد بن أبي دؤاد ، ومحمد بن عبدالملك الزيات ، فكان لا يصدر إلا عن رأيهما ، ولا يعتب عليهما فيما رأياه ، وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه » .

ويروي المسعودي[4] أيضاً أن أعرابياً وصف حكم محمد بن عبدالملك الزيات ، فقال : « وسع الداني شره ، ووصل إلى البعيد ضره ، له في كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا مخلب » . وروى التنوخي[5] أن الواثق قال عن وزيره : « إن السلطان إلى محمد بن عبدالملك أحوج من محمد إلى السلطان » .

وأشاد الوليد بن عبادة ببلاغة محمد بن عبدالملك الزيات ، فأنشد[6] :

---

(١) الفخري ص ٢١٤ .
(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٣٤٢ .
(٣) مروج الذهب : جـ ٤ ص ٦٦ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) نشوار المحاضرة جـ ٨ ص ١٥ .
(٦) الخضري : تاريخ الأمم الإسلامية ص ٢٣٢ .

لتفننت في الكتابة حتى عطل الناس فن عبدالحميد
في نظام من البلاغة ما شك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا حك في رونق الربيع الجديد

وبعد وفاة الواثق ، كان محمد بن عبدالملك الزيات ميالاً لتولية محمد بن الواثق ، فكانت علاقته سيئة بجعفر بن المعتصم ـ كما مر بنا ـ ولكن أحمد بن أبي دؤاد رشح جعفراً وبعث إليه بغا الشرابي . وأراد محمد بن عبدالملك الزيات تسمية جعفر بالمنتصر، ولكنه اختار لنفسه ـ كما رأينا ـ لقب المتوكل على الله ، ذاهباً إلى أنه رأى ذلك في حلم له[1] .

وكان الواثق قد غضب على جعفر بن المعتصم وقصد جعفر الزيات ليكون شفيعاً له عند الخليفة، ورفض الزيات، بل أساء استقباله ومحادثته «فقام جعفر كئيباً حزيناً لما لقيه من قبح اللقاء والتقصير به »[2] . بل إن الزيات كتب إلى الواثق : « يا أمير المؤمنين أتاني جعفر بن المعتصم يسألني أن أسأل أمير المؤمنين الرضى عنه ، في زي المخنثين له شعر قفا » . فكتب الواثق إليه : « ابعث إليه فاحضره ومر من يجز شعر قفاه ، ثم مر من يأخذ من شعره ويضرب به وجهه ، واصرفه إلى منزله »[3] .

استمر محمد بن عبدالملك الزيات وزيراً في الشهور القليلة الأولى من عهد المتوكل . فقد رأى المتوكل الإبقاء عليه حتى يوطد أركان حكمه . والمتوكل من الخلفاء الأقوياء ، ولا يمكنه السماح باستمرار استبداد الزيات بالسلطة كما كان في عهد الواثق . وكانت البغضاء والكراهية في قلب المتوكل نحو الزيات ، ولم ينس إهاناته له واستهانته به . ولذا نكبه وصادر أمواله ، وعذبه حتى مات[4] .

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٥ ص ١٦٥ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٤٣ .
(٣) الطبري جـ ٧ ص ٣٤٤ .
(٤) اليعقوبي جـ ٣ ص ٢٠٩ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ١٣ ، مسكويه : تجارب الأمم جـ ٦ ص ٥٣٩ .

صور المسعودي[1] خاتمة محمد بن عبدالملك الزيات المؤلمة ، فقال :

« وكان سخط المتوكل على محمد بن عبدالملك الزيات بعد خلافته بأشهر ، فقبض أمواله وجميع ما كان له ، وقلد مكانه أبا الوزير ، وقد كان ابن الزيات اتخذ للمصادرين والمغضوب عليهم تنوراً من الحديد رؤوس مساميره إلى داخل قائمة مثل رؤوس المسال ، في أيام وزارته للمعتصم والواثق ، فكان يعذب الناس فيه ، فأمر المتوكل بإدخاله في ذلك التنور ، فقال محمد بن عبدالملك الزيات للموكل به أن يأذن له في دواة وبطاقة ليكتب فيها ما يريد ، فاستأذن المتوكل في ذلك ، فأذن له ، فكتب :

هي السبيل فمن يوم إلى يوم كأنه ما تريك العين في النوم
لا تجزعن رويداً إنها دولٌ دنيا تنقل من قوم إلى قوم

وتشاغل المتوكل في ذلك اليوم فلم تصل الرقعة إليه ، فلما كان الغد قرأها فأمر بإخراجه فوجده ميتاً ، وكان حبسه في ذلك التنور إلى أن مات أربعين يوماً » .

روى الطبري[2] أن محمد بن عبدالملك الزيات كان يقول لنفسه خلال تعذيبه في ذلك التنور : « يا محمد بن عبدالملك ، لم يقنعك النعمة والدواب الغرة والدار النظيفة والكسوة الفاخرة وأنت في عافية حتى طلبت الوزارة ، ذق ما عملت بنفسك » .

استكتب المتوكل بعد ابن الزيات رجلاً من كتابه هو أحمد بن خالد ، ويقال له أبو الوزير ، غير أنه لم يتلقب بالوزير ، ثم نكبه الخليفة وصادر أمواله[3] .

واستوزر المتوكل أبا جعفر محمد بن الفضل الجرجائي ، وكان « شيخاً ظريفاً حسن الأدب عالماً بالغناء مشتهراً به ، فخف على قلب المتوكل فاستوزره

(١) مروج الذهب جـ ٤ ص ٨٨ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٤٦ ، روى الطبري أيضاً أن الكلاب نبشت قبره وأكلت لحمه .
(٣) الفخري ص ٢١٦ .

مديدة ، ثم كثرت السعايات به فعزله المتوكل وقال : قد ضجرت من المشايخ ، أريد حدثاً استوزره ، فأشير عليه بعبيد الله بن يحيى بن خاقان »[1]. ويذكر المسعودي أن المتوكل إنما استكتب عبيدالله بن يحيى سنة ٢٣٣ هـ[2].

وقال صاحب الفخري[3] عن عبيدالله بن يحيى بن خاقان : « كان عبيدالله حسن الخط وله معرفة بالحساب والاستيفاء ، إلا أنه كان مُخَلَّطاً ، وكان مجدوداً ، فكانت سعادته تغطي عيوبه . وكان كريماً حسن الأخلاق ، وكان كرمه أيضاً يستر كثيراً من عيوبه . وكان فيه تعفف . . . وكانت سيرة عبيدالله هينة والجند يحبونه ، فلما جرت الفتنة عند قتل المتوكل ، خاف عبيدالله ، فاجتمع الجند على بابه، وقالوا أنت أحسنت إلينا في حال وزارتك ، وأقل ما يجب لك علينا أن نحتفظ بك ونحرسك في مثل هذه الفتنة . ولازموا بابه وحفظوه . ومات المتوكل وهو وزيره» .

ويرى التنوخي[4] أن منصب الوزارة قد ضعف لسيطرة الأتراك عليها ، وتسييرها حسب أهوائهم ورغباتهم ، فيقول : «جعل المتوكل الكتب باسم وصيف التركي ، وانتصب منصب الوزارة وإن كان لم يسم بها فاختار من الكتاب عبيدالله بن يحيى بن خاقان وصار أمره يقوى ، فكان يعرض الأعمال عليه ، كما كان الوزراء يعرضونها وليس هو بعد قدير لها ، وأثبت المتوكل اسمه ، ثم أمر له الخليفة بعد زمن الوزارة ثم خوطب بها وكان وزيراً أميراً » .

وقام الوزراء بدور خطير في مصرع المتوكل ، إذ قام الوزير عبيدالله بن خاقان ، والنديم الفتح بن خاقان ، بإثارة الخلاف والعداء بين المتوكل وابنه المنتصر، كما حرضا الخليفة على تقريب المعتز ، مما أدى إلى مأساة تاريخية[5] .
وادعى المنتصر أن الفتح بن خاقان هو الذي قتل أباه المتوكل ، ولذا قتله[6] .

---

(١) الفخري ص ٢١٦ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٨٩ .
(٣) الفخري ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .
(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٨ ص ١١ ـ ١٣ .
(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ٣٠ .
(٦) الطبري جـ ٧ ص ٣٥٥ .

وقد أدى مصرع المتوكل ، إلى تدهور في قوة الوزارة ، وإلى اختلال الجهاز الإداري ، وإلى تضخم نفوذ الأتراك واستبدادهم بالخلفاء ، فيقول صاحب الفخري[1] : « إن الأتراك كانوا قد استولوا منذ مقتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء فكان الخليفة في أيديهم كالأسير ، إن شاؤوا أبقوه ، وإن شاؤوا خلعوه ، وإن شاؤوا قتلوه » .

فلما تولى المنتصر الخلافة ، سقطت هيبة الوزارة بسبب اختياره وزراء ضعافاً يفتقدون الصلاحيات والكفاءات مثل أحمد بن الخصيب الذي قال عنه صاحب الفخري[2] : « كان أحمد مقصراً في صناعته مطعوناً عليه في عقله ، وكانت فيه مروءة وحدة وطيش، فمن احتمله بلغ منه» .

واختار الأتراك المستعين للخلافة سنة ٢٤٨ هـ ، فاحتفظ أحمد بن الخصيب وزيراً لمدة شهرين، حتى غضب الأتراك عليه وصادروا أمواله، واختاروا للوزارة أبا موسى أتامش ، وكان المتولي لأمر الوزارة والقيم بها كاتب أتامش ، يقال له شجاع بن قاسم[3] . وبعد مقتل أتامش تولى الوزارة أبو صالح عبدالله بن يزداد ، وكان ذا فضل وأدب ، وحاول إرجاع هيبة الخلافة والوزارة ، فضبط الأموال ومنع الأتراك من الإساءة إلى مالية الدولة ، ولكنهم تهددوه بالقتل فهرب سنة ٢٤٩ هـ[4] . واستوزر المستعين بعده محمد بن الفضل الجرجرائي ، فعزله بعد فترة قصيرة واستوزر عبيدالله بن يحيى بن خاقان ، وزير الخليفة المتوكل[5] . وما لبث أن حرض الأتراك على إقالته ، ونفي إلى برقة . واستمر تعيين الوزراء الضعاف وعزلهم بعد فترات قصيرة .

وقد بدأ هذا التدهور في نظام الوزارة منذ عهد الخليفة المتوكل على الله .

---

(١) الفخري ص ٢١٧ .

(٢) الفخري ص ١١٧ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٣ ص ٥٩٨ ، مسكويه : تجارب الأمم جـ ٦ ص ٥٦٦ .

(٤) الفخري ص ٢٢٠ .

(٥) الاربلي : خلاصة الذهب المسبوك ص ١٦٦ .

٦ ـ موقف المتوكل من العلويين والشيعة

وقف المتوكل من العلويين والشيعة موقفاً مغايراً لمواقف أسلافه وخلفائه ، ودخلت العلاقات بين البيت العباسي والبيت العلوي في عهد المتوكل في مرحلة جديدة متميزة . وقد كان المتوكل متشدداً وقاسياً في معاملته للعلويين وأئمتهم ، أحياء وأمواتاً ، كما أساء إلى عواطف الشيعة الدينية ، وإلى شعائرهم المذهبية .

ولما كان موقف المتوكل من العلويين والشيعة ، هو في الحقيقة حلقة في سلسلة طويلة متكاملة الحلقات من العلاقات بين العباسيين والعلويين ومن مواقف الخلفاء العباسيين من الشيعة ، فنرى من واجبنا العودة إلى الوراء قليلاً حتى نلمس التطور التاريخي لهذه المواقف .

كانت قبيلة قريش تنقسم إلى عدة بيوت أكبرها البيت الهاشمي والبيت الأموي وقد تنافس البيتان في الجاهلية حول مناصب الشرف والرياسة[١] . وفاز بها الهاشميون وانصرف الأمويون إلى التجارة[٢] وازداد البيت الهاشمي عزة ومجداً بعد نزول الوحي على محمد الهاشمي ، ﷺ . واستمر التنافس بين الأمويين والهاشميين طوال العصور الإسلامية . وكانت تولية عثمان بن عفان كثالث الخلفاء الراشدين انتصاراً للبيت الأموي[٣] ، ثم كانت خلافة علي بن أبي طالب انتصاراً للبيت الهاشمي . ثم قامت الدولة الأموية سنة ٤٠ هـ ، وحرص مؤسسها معاوية بن أبي سفيان على استمرار السيادة الأموية ، فعهد بولاية العهد لابنه يزيد ، واستمر الحكم الأموي للدولة العربية حتى سنة ١٣٢ هـ[٤] .

وكان البيت الهاشمي ينقسم إلى أسرتين كبيرتين : الأسرة العلوية التي تنتسب إلى علي بن أبي طالب ابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، والأسرة

(١) تولى الهاشميون سدانة الكعبة والسقاية أي توفير المياه للحجاج ، والرفادة أي توفير الطعام ، وغيرها من مناصب الشرف .

(٢) ساهم الأمويون في رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام .

(٣) الطبري جـ ٥ ص ٤٤ .

(٤) اليعقوبي جـ ٢ ص ١٩٢ ، المقريزي : النزاع والتخاصم ص ١٢ .

العباسية التي تنتسب إلى العباس بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ ، وقادت الأسرة العلوية حركات المعارضة الثورية ضد الدولة الأموية ولكن كان مصيرها كلها الإخفاق . ثم بدأ الفرع الهاشمي الثاني تطلعه إلى الخلافة ، فكانت الدعوة العباسية سنة ١٠٠ هـ. واستفاد العباسيون من أخطاء الحركات العلوية ، فتلافوها ، كما وفر العباسيون لدعوتهم أسباب النجاح ، فوضعوا برامج إصلاحية في السياسة والاجتماع والاقتصاد ، ووعدوا بمساواة العناصر الأجنبية المسلمة بالعرب ، واتخذ العباسيون خراسان حيث الموالي ، مركزاً لدعوتهم[١] .

كانت الشيعة الكيسانية[٢] ، من فرق الشيعة في العصر الأموي . وقد بدأ أبو هاشم ، بن محمد بن الحنفية ، إمام الكيسانية نشاطاً واسعاً ، مما جعل الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك يدبر مؤامرة لاغتياله ، فدس له من سقاه شراباً مسموماً ، وبدأ السم يسري في جسمه وأدرك هلاكه ، وأراد أن يفضي بوصيته الأخيرة[٣] ، وكان حينئذ في بلاد الشام ، فاتجه إلى « الحميمة » حيث تعيش الأسرة العباسية فأوصى محمد بن علي العباسي بالشيعة ، وأفضى إليه بأسرار دعوته ، وبأسماء النقباء والدعاة ، وسلمه كتباً منه إليهم « فصارت الوصية في بني العباس من تلك الجهة »[٤] .

ويرى المستشرق (رونلدسن)[٥] وقد تخصص في تاريخ الشيعة أن أبا

---

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٣٤ وما بعدها ، ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ١٣٠ وما بعدها ، الفخري ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) اختلف المؤرخون في شخصية (كيسان) فمنهم من يرى أنه أحد أسماء علي بن أبي طالب أو اسم لمولى من مواليه ، والأرجح أن كيسان اسم للمختار بن أبي عبيد الثقفي الذي قام بالدعوة لمحمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية (الخربوطلي : تاريخ العراق ص ١٥١) .

(٣) تاريخ اليعقوبي جـ ٣ ص ٤٠ .

(٤) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ١٢٦ ـ ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٧ ـ المسعودي : التنبيه والإشراف ص ٢٩٢ ـ

(٥) رونلدسن : عقيدة الشيعة ص ١٢٣ .

هاشم قد تنازل عن حقه في الخلافة إلى محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بحضور شهود من الكيسانية[1] . أما (فان فلوتن) فهو يؤكد قصة هذا التنـازل الذي أصبح حقيقة تاريخية ، فيقول : إن تاريخ استخلاف أبي هاشم لأبناء عمه من العباسيين لأمر لا يكاد يجهله من له بعض الإلمام بالتاريخ الإسلامي . ويقال أن أبا هاشم لما شعر بدنو أجله أوصى إلى ولد العباس بحقه في الإمامة ، وأمدهم بأسماء داعي دعاته في الكوفة ومن يليه من الدعاة كما سلمهم كتباً يقدمونها إلى هؤلاء الدعاة ومهما يكن من شيء ، فقد رأينا الإمام محمد بن علي العباسي يضطلع بأعباء الدعوة بعد موت أبي هاشم .

ويرى المستشرق (فلهوزن)[2] أن العباسيين بنوا شرعية حقهم في الخلافة على أساس الادعاء أن أبا هاشم وريث محمد بن الحنفية ، قد تنازل عن حقه للعباسيين .

وينفي المستشرق[3] الذي كتب مادة (أبو هاشم) في دائرة المعارف قصة تنازل العلويين عن حقهم للعباسيين ، فيذكر أن هذه الرواية وإن كانت قد وردت في أقدم تواريخ العرب فإن المحققين الآخرين يشكون في صحتها شكاً كبيراً ، وينسبونها إلى اختراع شيعة العباسيين الذين أرادوا أن يبرهنوا بهذه الصورة على حق العباسيين في الخلافة. وقد رد «رونلدسن»[4] على هذا الرأي فقال: إن قوة الشك تخف عندما نعلم أن أبا هاشم قد مات بالحميمة ، وليس من المستبعد أن يكون لهذا الاتفاق علاقة بتوحيد الجهود بين الكيسانية والعباسيين ضد بني أمية .

ويرى المرحوم الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن[5] أن حق الإمامة قد

---

(١) وهو محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب وكان الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك قد نفى العباسيين إلى الحميمة بالشام .

(٢) الخوارج والشيعة ص ٢٤٨ .

(٣) K. V. Zattercieen.

(٤) عقيدة الشيعة ص ١٢٣ .

(٥) تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ١١ - ١٢ .

انتقل من البيت العلوي إلى البيت العباسي ، ويطلق على ذلك تعبير « ميراث الكيسانية » ويرى أن أبا هاشم قد تنازل عن هذا الحق للإمام العباسي محمد بن علي ، إذ ان أبا هاشم لم يجد من بين العلويين من ينهض بمسئوليات إمامة المسلمين فضلاً عن الاختلافات العقائدية بين الشيعة الكيسانية والشيعة الإمامية .

ويبدو أن العباسيين رأوا ألا يقتصروا على الاعتماد على هذا التنازل الذي أقدم أبو هاشم عليه ، ورأوا أنه لا بد لهم من التذرع ببعض الأسانيد الشرعية قبل أن يعملوا لنقل الخلافة إليهم ، فأذاعوا بين المسلمين أنهم من سلالة العباس بن عبدالمطلب عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما ادعوا أن الخلافة تصير إلى العم إذا لم يكن هناك وارث ذكر أذاعوا أنهم أولى بني هاشم بميراث الرسول لأن جدهم عم الرسول ولا ينحدر الميراث إلى ابن العم مع وجود العم ، وليس لأولاد البنات ميراث مع وجود العصبية . وهكذا نظروا إلى الخلافة على أنها تركة تركها النبي تورث وتنطبق عليها أحكام الميراث[1] .

ولم يعترف سائر العلويين وشيعتهم بما كان بين إمام الكيسانية والإمام العباسي . فقد كتب الثائر العلوي محمد النفس الزكية[2] إلى الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور : « . . . فإن الحق حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا وأن أبانا علياً كان الوصي وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ . . . »[3] .

لم يكشف العباسيون عن طمعهم في الخلافة ، فكانت الدعوة العباسية (١٠٠ ـ ١٣٢ هـ) للرضا من آل محمد ، إذ ان تَعْيين الشخص المدعو إليه يثير عداء العلويين ، فضلاً عن الأمويين ، على الدعوة العباسية .

---

(١) جمال سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ص ١٧٢ .

(٢) وهو محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وقد ثار في الحجاز سنة ١٤٥ هـ .

(٣) الطبري جـ ٦ ص ١٩٥ .

وانضم كثير من الشيعة إلى الدعوة العباسية مخدوعين بهذا الشعار ، وهم يظنون أنهم يؤيدون العلويين . وكان العلويون والعباسيون حينئذ يسيرون على طريق واحد ، للقضاء على الدولة الأموية . حتى إذا انفرد العباسيون بالخلافة اعتقد العلويون أن أبناء عمومتهم قد خدعوهم . فبدأت سلسلة متصلة الحلقات من الثورات العلوية .

وفي عهد أبي العباس أول الخلفاء العباسيين ، تولى أبو سلمة الخلال الوزارة وكان يسمي نفسه (وزير آل محمد)[1] وقد رأى « أن يصير الأمر إلى بني علي »[2] . فيقول صاحب الفخري[3] : « وقام أبو سلمة بأمر دعوتهم - أي العباسيين - قياماً عظيماً فلما سير أحوال بني العباس عزم على العدول عنهم إلى بني علي عليه السلام » . وكتب أبو سلمة رسائل إلى ثلاثة من زعماء العلويين[4] . وانتهى أمره بأن أمر الخليفة أبو العباس بقتله[5] .

ويرى الدكتور الجومرد[6] أن أبا سلمة كان يريد أن يخلق جبهة ثالثة علوية ، تقوم بعد أن تضعف الجبهتان المتصارعتان ، الأموية والعباسية ، فتكون النتيجة لها . ولكنه أخطأ تقدير الزمن إذ كانت الثورة العباسية تتقدم نحو نهاية النصر بأسرع مما كان يتصور .

وفي عهد الخليفة العباسي الثاني ، ثار أخوان علويان ، هما محمد بن عبدالله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية ، وأخوه إبراهيم . وكان محمد يسمى (المهدي) وكان أبوه عبدالله يقول « ان ابنه محمد هو المهدي الذي بشر به الرسول عليه الصلاة والسلام »[7] . ولذا سمى المنصور ابنه (محمد

---

(١) الفخري ص ١٣٦ ، الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٨٤ .
(٢) اليعقوبي جـ ٣ ص ٨١ .
(٣) الفخري ص ١٣٧ .
(٤) وهم : جعفر الصادق ، وعبدالله المحسن بن الحسن ، وعمر الأشرف بن زين العابدين (ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٣١ ، المسعودي : مروج الذهب جـ ٣ ص ٢٦٨) .
(٥) الطبري جـ ٦ ص ١٠٢ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٣٣٦ .
(٦) الجومرد : أبو جعفر المنصور ص ٩٩ .
(٧) الفخري ص ١٤٨ .

المهدي) أيضاً ليصرف قلوب المسلمين عن الزعيم العلوي[١] .

ثار محمد النفس الزكية[٢] في المدينة سنة ١٤٥ هـ وأخذ البيعة بالخلافة وثار أخوه إبراهيم بالبصرة[٣] وأيد الإمامان أبو حنيفة ومالك الثورة[٤] . وانتشرت الدعوة في كثير من الأمصار العباسية[٥] . وشعر المنصور بالجزع والخوف وتوقف عن بناء عاصمته بغداد[٦] . وتبادل الخليفة والثائر الرسائل وكل منهما يثبت حق العباسيين أو العلويين في الخلافة . فقد افتخر محمد النفس الزكية بأنه سليل فاطمة ، وخديجة ، وعلي بن أبي طالب وقال المنصور أن الثائر العلوي إنما هو ابن بنت الرسول ، ولكنها « لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة » . كما أشار المنصور إلى أن المسلمين قد اختاروا أبا بكر وعمر وعثمان للخلافة دون علي بن أبي طالب كما تحدث عن إخفاق الثورات العلوية في العصر الأموي ، وأن العباسيين هم الذين تصدوا للثأر لقتلى العلويين من الأمويين ، وأشاد المنصور بجدّه العباس بن عبدالمطلب ، فهو وريث الرسول ، فهو العم الوحيد الذي بقي على قيد الحياة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام كما كان العباس ينفق على أبي طالب وأولاده خلال الأزمة الاقتصادية التي مروا بها كما افتدى العباس عقيل بن أبي طالب يوم بدر . وقال المنصور في آخر رسالته : « . . . فكيف تفخر علينا . وقد علناكم في الكفر ، وفديناكم من الأسر وحزنا عليكم مكارم الآباء وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا ثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ولم تدركوا لأنفسكم ؟ »[٧] . وهذه الرسائل في الحقيقة تصور وجهات النظر عند كل من العلويين والعباسيين ، وقد استمرت هذه الآراء طوال العصر العباسي .

---

(١) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٢٣٩ .

(٢) يقول المسعودي (مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٠٦) : « وكان يدعى بالنفس الزكية لزهده ونسكه » .

(٣) الطبري جـ ٦ ص ٢٤١ ؛ الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٣١٧ .

(٤) الطبري جـ ٦ ص ١٩٠ ؛ ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٣ ص ٨١ .

(٥) المسعودي : مروج الذهب جـ ٣ ص٣٠٨ وما بعدها .

(٦) الطبري جـ ٦ ص ١٩٢ .

(٧) انظر نصوص الرسائل المتبادلة في تاريخ الطبري جـ ٦ ص ١٩٧ وما بعدها .

وانتهت ثورتا محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم بالإخفاق ، ولقيا حتفهما على أيدي الجيوش العباسية[1] . ورغم أن الإمام جعفر الصادق إمام الشيعة الإمامية[2] قد ركن إلى الهدوء ، ولم يعلن الثورة وانصرف إلى الدين والعلم . إلا أنه لقي كثيراً من اضطهاد المنصور واستهانته به[3] .

وإلى جانب الصراع السياسي بين العباسيين والعلويين كان هناك صراع فكري ، فقد اعتبر الأئمة العلويون أنفسهم وارثين لعلم الرسول وعلي بن أبي طالب[4] . وقد نبغ هؤلاء الأئمة فعلاً في سائر العلوم والآداب والفقه ، وخاصة الإمامان محمد الباقر وجعفر الصادق . وشهد العباسيون أنفسهم لهم بالنبوغ والفضل[5] . وكان لكل فريق شعراؤهم . والشعر من أمضى وسائل الدعاية والإعلام في ذلك العصر .

ورأى الخليفة العباسي الثالث أن يحسن معاملة العلويين ويسترضيهم حتى يركنوا إلى الهدوء . فرحل إلى الحجاز سنة ١٦٠ وأغدق الأموال[6] . كما أمر - في نفس الوقت - عماله وعيونه بمراقبة تحركات العلويين[7] . وثار في عهده علي بن العباس بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب في بغداد ، ونجح المهدي في إخماد الثورة[8] . وفي عهد المهدي أيضاً اعتنق وزيره يعقوب بن داود تعاليم الشيعة ، وحاول تحويل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي[9] .

---

(١) الطبري : جـ ٦ ص ٢٠٧ وما بعدها ، الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٢٦٨ ، وما بعدها .

(٢) تنقل هذه الفرقة الإمامة من علي بن أبي طالب إلى الحسن ثم الحسين ثم إلى علي زين العابدين ثم إلى محمد الباقر ثم إلى جعفر الصادق .

(٣) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٢٤٨ ، أبو زهرة : الإمام الصادق ص٦١، رونلدسن : عقيدة الشيعة ص ١٤٨ .

(٤) الكليني : الكافي ٥٧ .

(٥) الطبري جـ ٦ ص ٢٦٣ ، المسعودي : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٣٧ .

(٦) الطبري جـ ٦ ص ٣٦٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣ .

(٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٢٦ .

(٨) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٤٠٣ .

(٩) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٥٠ ، الفخري ص ١٦٦ .

وفي عهد الخليفة العباسي الرابع موسى الهادي ، قامت ثورة علوية خطيرة تزعمها الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في المدينة وأعلن نفسه خليفة ، واتجه إلى مكة لينشر بها دعوته، فقضى عليه الجيش العباسي عند (فخ) وهو في طريقه إلى مكة[1]. ويشبه المؤرخون مأساة فخ بفاجعة كربلاء التي استشهد فيها الحسين بن علي بن أبي طالب في عهد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية .

هرب من موقعة فخ ، أخوان ، هما يحيى وإدريس ابنا عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهما اخوا محمد النفس الزكية وإبراهيم اللذين ثارا في عهد المنصور . وأعلن يحيى الثورة في بلاد الديلم[2] ، بينما ثار إدريس في بلاد المغرب ونجح هارون الرشيد في القبض على يحيى وسجنه ، كما دس على إدريس رجلاً اغتاله[3] . وكان هاورن الرشيد قد استهل عهده بحسن معاملة العلويين ، ولكنه بعد قيام هاتين الثورتين ، غير سياسته وشك في العلويين وقبض على زعمائهم ونكل بهم[4] . ومنهم عبدالله بن الحسن المعروف بابن الأفطس[5] . والعباس بن محمد بن عبدالله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[6] ، والإمام موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بموسى الكاظم[7] .

عبر هارون الرشيد عن موقفه من العلويين بقوله : « إن العامة يظنون فيّ

---

(١) الطبري جـ ٦ ص ٤١٢ وما بعدها ، الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٤٤٨ وما بعدها ، المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٣٣٦ .

(٢) الطبري جـ ٦ ص ٤٥٠ وما بعدها ، الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٤٦٢ وما بعدها ، ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٨٥ وما بعدها ، الفخري ص ١٧٦ .

(٣) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٤٨٧ وما بعدها ، ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٦٠ وما بعدها ، الناصري : الاستقصا جـ ١ ص ١٦٠ وما بعدها .

(٤) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٤٩٢ .

(٥) الطبري جـ ٦ ص ٤١٥ .

(٦) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٤٩٨ .

(٧) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ١٣ ص ٢٨ ، الفخري ص ١٧٧ .

بغض علي بن أبي طالب ، والله ما أحب أحداً حبي له ، ولكن هؤلاء أشد الناس بغضاً لنا وطعناً علينا وسعياً في فساد ملكنا ، بعد أخذنا بثأرهم ومساهمتنا إياهم ما حويناه ، حتى انهم لأميل إلى بني أمية منهم إلينا »[١] .

وروى الأصفهاني[٢] أن الرشيد وقف عند قبر الرسول ﷺ ، قبيل قبضه على الإمام موسى بن جعفر المعروف بالكاظم ، فقال : « يا رسول الله ، إني أعتذر إليك من شيء أريد أن أفعله ، أريد أن أحبس موسى بن جعفر ، فإنه يريد التشتت بين أمتك وسفك دمائها » .

وفي عهد الخليفة العباسي السابع المأمون ، تمت البيعة بولاية العهد للإمام العلوي علي الرضا بتحريض من الوزير الفارسي الفضل بن سهل ، وهذا معناه تحويل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي ، برغبة الخليفة المأمون نفسه[٣] . وهذه القضية من القضايا التاريخية التي ثار الجدال والحوار حولها وتعددت فيها الآراء والأحكام مما يضيق المقام في بحثنا هذا عن تفصيله ، فهناك من يرى اقتناع المأمون بأحقية العلويين بالخلافة دون العباسيين ، وهناك من يرى أن المأمون قد اعتنق تعاليم الشيعة ، أو أراد استمالتهم ، وهناك من يرى أن هذه البيعة وسيلة سياسية يوطد بها أركان خلافته بعد صراعه مع أخيه الأمين وما صاحبه من انقسام واضطراب .

ويرى الطبري[٤] أن المأمون « نظر في بني العباس وبني علي ، فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أورع ولا أعلم منه » . وذكر الأصفهاني[٥] أن المأمون خلال صراعه مع الأمين ، عاهد الله تعالى إذا نصره على أخيه ، على أن ينقل الخلافة

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٩٣ .

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٥٠٢ .Nicholson: Lit. Hist. of the Arabs, P. 250

(٣) الطبري جـ ٦ ص ٣٨٥ وما بعدها ، ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٢٤ وما بعدها ، المسعودي : مروج الذهب جـ ٣ ٢٦٨ وما بعدها ، الفخري ص ١٣٧ .

(٤) الطبري جـ ٧ ص ١٣٥ ، اليعقوبي جـ ٣ ص ١٧٦ .

(٥) مقاتل الطالبيين ص ٥٦٣ .

إلى أفضل آل علي بن أبي طالب . هذا بينما يرى السيوطي[1] أن المأمون قد أصبح مفرطاً في التشيع حتى انه فكر في خلع نفسه والبيعة لعلي الرضا . ويقف ابن طباطبا[2] موقفاً وسطاً ، حين يقول إن المأمون « فكر في حال الخلافة بعده وأراد أن يجعلها في رجل يصلح لها لتبرأ ذمته ، كذا زعم » .

وقامت في عهد المأمون ثورات علوية خطيرة ، أشهرها ثورة محمد بن إبراهيم[3] وأبي السرايا سنة ١٩٩ هـ[4] ، وحركة محمد الديباج بن جعفر الصادق سنة ٢٠٠هـ[5] وثورة علي بن محمد بن جعفر الصادق ، وأبي عبدالله أخي أبي السرايا سنة ٢٠٢ هـ[6] ، كما قامت ثورات علوية في بلاد اليمن أشهرها ثورة إبراهيم بن موسى الكاظم سنة ٢٠٠ هـ[7] ، وثورة عبد الرحمن بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب سنة ٢٠٧ هـ[8] .

وفي عهد الخليفة العباسي الثامن المعتصم ، قامت ثورة علوية تزعمها محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ٢١٩ هـ ، وكان « من أهل العلم والفقه والدين والزهد وحسن المذهب »[9] .

لم يشهد عصر الواثق بالله حركات علوية شيعية ، فقد ازداد في عهده نفوذ الأتراك وعاش معهم في عاصمته سامراء ، والأتراك بعيدون عن تعاليم الشيعة

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣٠٧ .

(٢) الفخري ص ١٩٨ .

(٣) وهو محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وقد اشتهر باسم (ابن طباطبا) .

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٨٢ ـ وما بعدها ، الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٥١٩ وما بعدها .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٩٠ ، المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٢٦ وما بعدها ، الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٥٣٧ .

(٦) الطبري جـ ٧ ص ١٤٤ وما بعدها ، ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ١١١ ، وما بعدها .

(٧) الطبري جـ ٧ ص ١٢٤ وما بعدها ، الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٥٢٥ وما بعدها .

(٨) الطبري جـ ٧ ص ١٦٨ وما بعدها ، ابن الأثير الكامل جـ ٦ ص ١١٨ وما بعدها .

(٩) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٥٧٨ . المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٥٢ .

على عكس الفرس الذين اعتنق كثير منهم هذه التعاليم . وكانت الشيعة الزيدية قد عانت الكثير نتيجة موقف المعتصم الحازم من حركة محمد بن القاسم ، فكانوا في حاجة إلى فترة يستعيدون فيها أنفاسهم وينظمون صفوفهم ، ويترقبون الزعيم الجديد الذي يقودهم في مناهضتهم للدولة العباسية[1] .

كما أن الشيعة الإمامية قد فقدت زعيمها الإمام محمد الجواد لخمس خلون من ذي الحجة سنة ٢١٩ هـ ، وكان بعض الشيعة غاضبين عليه لزواجه من أم الفضل ابنة الخليفة العباسي المأمون . ويتهم المسعودي[2] الخليفة المعتصم بتحريض أم الفضل على اغتيال الإمام محمد الجواد بالسم . وقد صلى ولي العهد الواثق على جثمان الجواد وتم دفنه في الجانب الغربي من بغداد بمقابر قريش ، مع جده الإمام موسى الكاظم . وتولى الإمامة بعده علي الهادي سنة ٢١٩ هـ ، وكان غلاماً في السادسة أو الثامنة من عمره . وكانت حداثة سنه لا تتيح له قيادة الشيعة في حركة علوية جديدة ضد الخليفة الواثق بالله . حتى إذا تولى المتوكل الخلافة بدأ عداء شديد بين الخليفة العباسي والإمام العلوي[3] .

أشاد الأصفهاني[4] بحسن معاملة الواثق للعلويين وقارنها بمعاملة المتوكل لهم ، فقال : « وكان آل أبي طالب مجتمعين بسر من رأى في أيامه تدور الأرزاق عليهم حتى تفرقوا أيام المتوكل » . كما قال ابن طباطبا[5] : « ولما ولي - الواثق - الخلافة أحسن إلى بني عمه الطالبيين وبرهم » .

ودخلت العلاقات بين العباسيين والعلويين في عهد المتوكل في مرحلة جديدة ، هي حلقة في سلسلة طويلة متصلة الحلقات .

لخص صاحب الفخري[6] موقف المتوكل من العلويين وانتقد هذا

(١) الطبري جـ ٧ ص ١٩٧ .
(٢) مروج الذهب جـ ٤ ص ٥٢ .
(٣) الفخري ص ٢٧٧ .
(٤) مقاتل الطالبيين ص ٥٧٨ .
(٥) الفخري ص ٢١٣ .
(٦) الفخري ص ٢١٥ .

الموقف ، وناقش رأي من قال بتحريض الحاشية للخليفة على اضطهاد العلويين ، فقال : « كان المتوكل شديد الانحراف عن آل علي عليه السلام ، وفعل من حرث قبر الحسين عليه السلام ما فعل ، وأبى الله إلا أن يتم نوره . وقال من يعتذر له أنه كان كأخيه وكالمأمون في الميل إلى بني علي عليه السلام ، وإنما كان حوله جماعة منحرفون عن أهل البيت عليهم السلام ، فكانوا دائماً يحملونه على الوقيعة فيهم . والأول أصح ، ولا ريب أنه كان شديد الانحراف عن هذه الطائفة ، ولذلك قتله ابنه غيرة وحمية » .

تقدمت حاشية المتوكل إليه تحرضه على الإمام العلوي علي بن محمد[1] بن علي[2] بن موسى[3] بن جعفر[4] بن محمد[5] بن علي[6] بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، إمام الشيعة الإمامية ، وزعمت « أن في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته »[7] وأرسل المتوكل ليلاً فرقة من الأتراك هاجمت دار الإمام العلوي « فوجده في بيت وحده مغلق عليه وعليه مِدْرَعة من شَعَرٍ ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى وعلى رأسه مِلحَفة من الصوف ، متوجهاً إلى ربه يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد ، فأخذ على ما وجد عليه وحمل إلى المتوكل في جَوْفِ الليل ، فمثل بين يديه والمتوكل يشرب وفي يده كأس ، فلما رآه أَعْظَمه وأجلسه إلى جانبه ، ولم يكن في منزله شيء مما قيل فيه ولا حالة يتعلل عليه بها ، فناوله المتوكل الكأس الذي في يده ، فقال : يا أمير المؤمنين ما خامر لحمي ودمي قط ، فأَعْفِنِي منه ، فعافاه ، وقال : أنشدني شعراً أستحسنه ، فقال : إني لقليل الرواية للأشعار . فقال : لا بد أن تنشدني ، فأنشده :

---

(١) وهو محمد الجواد .
(٢) وهو علي الرضا .
(٣) وهو موسى الكاظم .
(٤) وهو جعفر الصادق .
(٥) وهو محمد الباقر .
(٦) وهو علي زين العابدين .
(٧) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٩٣ .

باتوا على قُلَلِ الأجْبَال تحرسهم غُلْبُ الرجال فما أغنتهم القُلَلُ
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم فاودعوا حُفَراً يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا أين الأسرة والتيجان والحلل ؟
أين الوجوه التي كانت مُنَعَّمَة من دونها تضرب الأستار والكِلَلُ ؟
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتلُ
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكِلُوا
وطالما عمروا دوراً لتحصنهم ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادَّخروا فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قَفْراً مُعطَّلةً وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

« فأشفق كل من حضر على عليّ ، وظن أن بادرة تبدر منه إليه . وبكى المتوكل بكاء طويلاً حتى بلت دموعه لحيته وبكى من حضره ، ثم أمر برفع الشراب ، ثم قال له : يا أبا الحسن ، أعليك دين ؟ قال : نعم ، أربعة آلاف دينار ، فأمر بدفعها إليه ، ورده إلى منزله من ساعته مكرماً »[١] .

وفي رواية أخرى للمسعودي[٢] يقول : « قال المتوكل لأبي الحسن علي ابن محمد : ما يقول ولد أبيك في العباس بن عبد المطلب ؟ قال : وما يقول ولد أبي يا أمير المؤمنين في رجل افترض الله طاعة بنيه على خلقه وافترض طاعته على بنيه ؟ فأمر له بمائة ألف درهم ، وإنما أراد أبو الحسن طاعة الله على بنيه ، فعرَّضَ » .

وروى الطبري[٣] في تأريخه لأحداث سنة ٢٣٦ هـ : « أتي المتوكل بيحيى بن عمر بن يحيى بن زيد بن علي بن أبي طالب عليه السلام من بعض النواحي ، وكان فيما ذكر قد جمع قوماً فضربه عمر بن فرج ثمان عشرة مقرعة ، وحبس ببغداد في المطبق » .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٩٣-٩٤ .
(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٣ .
(٣) الطبري جـ ٧ ص ٣٦٣ .

وفي رواية للمسعودي[1] ، كان المتوكل يتتبع الرافضة ، والرافض عنده هو « من زعم أن علي بن أبي طالب أفضل من العباس وأن ولده أحق من ولد العباس بالخلافة » .

استعان الخليفة المتوكل بشاعره علي بن الجهم في الهجوم على العلويين ، وفي تأكيد أحقية العباسيين . وكان علي بن الجهم مطعوناً في نسبه ، فقال فيه الإمام العلوي علي بن محمد الجواد :

وَسَامَة منا فأما بنوه فأمرُهُم عندنا مُظْلِم
أناس أتونا بأنسابهم خُرَافَة مضطجِعٍ يحلم
وقلت لهم مثل قول النبي وكل أقاويله محكم
إذا ما سئلت ولم تَدْرِ ما تقول فقل ربنا أعلم

كما قال الإمام العلوي في الطعن في نسب الشاعر علي بن الجهم أيضاً :

لو اكتنفت النَّضْر أو مَعَدّا أو اتخذت البيت كهفاً مَهْدا
وزمزماً شريعة ووردا والأخشبين محضراً ومَبْدَا
ما ازددت إلا من قريش بعدا أو كنت إلا مصقلياً وَغْدَا

ورد الشاعر علي بن الجهم على الإمام العلوي علي بن محمد بهذه الأبيات :

لم تُذِقْني حلاوة الإنصاف وتَعَسّفْتَني أشد اعتساف
وتركت الوفاء علماً بما فيه وأسْرَفْت غاية الإسراف
غير أني إذا رجعت إلى حق بني هاشم بن عبد مناف
لم أجد إلى التَّشَفِّي سبيلاً بقواف ولا بغير قواف
لِيَ نفس تأبى الدنية والاشر اف لا تعتدي على الاشراف[2]

وهذه الأبيات التي نظمها كل من الإمام العلوي علي بن محمد الجواد

---

(١) مروج الذهب جـ ٤ ص ١٠٧ .
(٢) مروج الذهب جـ ٤ ص ١١١-١١٢ .

والشاعر العباسي علي بن الجهم تصور الصراع الأدبي الذي كان بين العلويين والعباسيين ، والشعر ـ كما نعلم ـ في مقدمة وسائل الإعلام في ذلك العصر .

وفي أحداث سنة ٢٣٦ هـ يقول الطبري : « وفيها أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المنازل والدور ، وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره ، وأن يمنع الناس من إتيانه ، فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية : من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى المطبق ، فهرب الناس وامتنعوا من المسير إليه ، وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه » .

وكذلك ذكر ابن الأثير في أحداث سنة ٢٣٦ تحت عنوان ذكر ما فصله المتوكل بمشهد الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام « وفي هذه السنة . . . . » . . .

وكان لموقف المتوكل من قبر الحسين بن علي وابن السيدة فاطمة رضي الله عنها وسبط النبي عليه الصلاة والسلام أثره السيء في الرأي العام عند سائر المسلمين لمنزلة الحسين ومكانته في القلوب وخاصة أن المتوكل هاشمي والعباسيون هم أبناء عمومة العلويين ويجمعهم كلهم البيت النبوي الهاشمي . وقد كان مصرع الحسين على يد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية ، وقد اتخذ العباسيون خلال دعوتهم (١٠٠ ـ ١٣٢ هـ) مواقف الأمويين العدائية من الأئمة العلويين ، وسيلة لانتشار دعوتهم والفوز بتأييد المسلمين وخاصة الفرس ، فلا غرو أن يربط المسلمون ما بين المتوكل ، وبني أمية .

روى السيوطي[١] : « وفي سنة ست وثلاثين ومائتين ، أمر المتوكل بهدم قبر الحسين ، وهدم ما حوله من الدور ، وأن يعمل مزارع ، ومَنَعَ الناس من زيارته ، وخُرِّب وبقي صحراء ، وكان المتوكل معروفاً بالنَّصْبْ ، فتألم المسلمون من ذلك ، وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد ، وهجاه الشعراء ـ فمما قيل في ذلك :

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٧ .

بالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله هذا لعمري قبره مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا في قتله فتتبعوه رميما » .

ترتبط نشأة وتطور مدينة النجف بضريح الإمام علي بن أبي طالب ، فقد هاجرت إليها جماعات علوية وشيعية ، واستوطنوا حول الضريح في عهدي هارون الرشيد والمأمون . إلا أن المتوكل منع الزيارة والسكن ، وفي سنة ٢٤٧ هـ هدم الضريح والمنازل والدور . غير أن ابنه المنتصر عدل عن سياسة أبيه في معاداة العلويين ، فسمح للناس بزيارة القبر الذي أعاد بناءه ، كما اهتم بعمارة المشهد[١] . ومنذ عهد المنتصر ، أخذ العلويون وشيعتهم يتوافدون على المشهد وينشئون الدور حوله ، فتلاحقت العمارة المدنية والدينية ، وخاصة في العصر البويهي ووصل عدد العلويين إلى ألف وتسعمائة علوي عدا شيعتهم ، وأنفق البويهيون كثيراً من الأموال والهبات وأحاطوا النجف بالأمن والتقدير[٢] .

أما كربلاء ، فهي من المدن المقدسة عند الشيعة ، وبعض المسلمين ففيها مشهد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ، وهي مزار شيعي يقع في غربي الفرات بحوالي ستين ميلاً ، جنوبي غربي بغداد على مشارف الصحراء[٣] . ولم تكن كربلاء في العصر الأموي عامرة بالسكان ، رغم لهفة العلويين والشيعة على مجاورة قبر الحسين ، فقد وقفت السلطات الأموية حائلاً دون تحقيق رغبتهم ، ثم تطورت كربلاء في أوائل العصر العباسي فتوافد الناس على زيارة القبر واستوطن بعضهم كربلاء أو أوصى بدفنه فيها رغم مقاومة بعض الخلفاء العباسيين .

قارن المسعودي[٤] بين سياسة كل من الخليفة المتوكل وابنه الخليفة

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٧٥ . السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .
(٢) ابن مسكويه : تجارب الأمم جـ ٦ ص ٤٠٥ .
(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ ٦ ص ١٧١ ، الاصطخري : مسالك الممالك جـ ١٠ ص ٨٥ .
(٤) مروج الذهب جـ ٤ ص ١٣٥ .

المنتصر نحو العلويين ، فقال : « وكان آل أبي طالب قبل خلافته ـ أي المنتصر ـ في محنة عظيمة وخوف على دمائهم ، قد منعوا زيارة قبر الحسين والغريّ من أرض الكوفة ، وكذلك منع غيرهم من شيعتهم حضور هذه المشاهد . وكان الأمر بذلك من المتوكل سنة ست وثلاثين ومائتين . وفيها أمر المعروف بالذيريج بالسير إلى قبر الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما وهدمه ومحو أرضه وإزالة أثره ، وأن يعاقب من وجد به . فبذل الرغائب لمن تقدم على هذا القبر ، فكل خشي العقوبة ، وأحجم فتناول الذيريج مِسْحَاة وهدم أعالي قبر الحسين فحينئذ أقدم الفَعَلَة فيه . وأنهم انتهوا إلى الحفرة وموضع اللحد ، فلم يروا فيه أثر رمة ولا غيرها . ولم تزل الأمور على ما ذكرنا إلى أن استخلف المنتصر ، فأمن الناس ، وتقدم بالكف عن آل أبي طالب وترك البحث عن أخبارهم ، وأن لا يمنع أحد زيارة الحيرة لقبر الحسين رضي الله تعالى عنه ، ولا قبر غيره من آل أبي طالب ، وأمر برد فدك[1] إلى ولد الحسن والحسين ، وأطلق أوقاف آل أبي طالب وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم » .

كان المنتصر يشعر بحرج موقفه ، بعد اتهامه بتدبير مؤامرة اغتيال أبيه المتوكل ، ولذا رأى استرضاء مشاعر المسلمين الذين كانوا ـ شيعة وسنة ـ يقدرون الحسين بن علي ، وقد نجح المنتصر بسياسته الجديدة نحو الشيعة والعلويين ونحو قبري علي بن أبي طالب والحسين أن يحوز شعبية واسعة غطت على مشاعر الاستياء التي كانت بالأمس عند مصرع أبيه المتوكل وقد أشاد الشعراء بموقف المنتصر من العلويين والشيعة . فقال الشاعر البحتري[2] :

وإن علياً لأوْلى بكم وأزكى يداً عندكم من عمر

(١) وهي قطعة أرض كانت من نصيب الرسول عليه الصلاة والسلام بعد انتصاره على يهود خيبر ، وبعد طلب يهود فدك وتيماء الصلح وطالبت بها السيدة فاطمة وضمها أبو بكر لبيت المال فالأنبياء لا يورثون . ثم حازها مروان بن الحكم وأعادها عمر بن عبدالعزيز إلى بيت المال . ثم أعادها المأمون إلى الطالبيين ثم عادت مرة بعده إلى بيت المال . (انظر البحث عن أرض فدك للدكتور علي حسني الخربوطلي) .

(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٣٥ .

وكـل لـه فـضـله والـحـجـول   يـوم الـتـراهـن دون الـغـرر

كما أنشد الشاعر الشيعي يزيد بن محمد المهلبي وكان قد أصابه اضطهاد في عهد المتوكل ، فامتدح سياسة المنتصر بهذه الأبيات :

ولقـد بـررت الـطالبية بعـدمـا   ذمـوا زمـانـاً بعـدهـا وزمـانـا
ورددت ألفـة هـاشم ، فـرأيتهم   بعـد العـداوة بينـهم إخـوانـا
آنـست لـيلهـم وُجـدْت عليـهمُ   حتى نسـوا الأحقـاد والأضغـانـا
لو يعلم الأسلاف كيف بـررتهم   لـرأوك أثقل من بهـا ميـزانـا[1]

وفي سنة ٢٨٣ هـ ، اهتم بالمشهد محمد بن زيد بن الحسن ، الملقب بالداعي الصغير ، وكان قد ملك طبرستان[2] . كما اهتم بالمشهد أيضاً عضد الدولة البويهي (٣٦٧ هـ - ٣٧٢ هـ) في خلافة الطائع[3] .

٧ - تطور العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية في عهد المتوكل

بدأ العداء بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . فقد كان للروم قبل الإسلام أطماع سياسية ، وحرضوا حلفاءهم على غزو اليمن ثم احتلاله[4] . وحاول الأحباش مد سيطرتهم وعقيدتهم المسيحية إلى بلاد الحجاز[5] . ولذا غضبت الدولة البيزنطية لقيام الدولة العربية الإسلامية في عهد الرسول ﷺ ، فقد كانت الوحدة الدينية والسياسية التي قامت تقضي على الأطماع البيزنطية في الجزيرة العربية ،

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٣٦ .
(٢) محسن الأمين العاملي : أعيان الشيعة جـ ٤ ص ٣٠٦ .
(٣) الذهبي : دول الإسلام جـ ١ ص ٢٢٤ .
(٤) اسقط الأحباش الدولة الحميرية اليمنية العربية .
(٥) غزا القائد الحبشي ابرهة الأشرم مكة وحاول هدم الكعبة ، وتدخلت العناية الإلهية لإنقاذها (انظر كتابي عبدالمطلب جد الرسول ، والكعبة على مر العصور للدكتور علي حسني الخربوطلي) .

واصطدمت الدولتان الإسلامية والبيزنطية عسكرياً في موقعتي مؤتة وتبوك . ثم كانت الفتوحات الإسلامية في عهدي أبي بكر وعمر بن الخطاب ، وفتح المسلمون بلاد الشام ومصر ، ثم إفريقية (تونس) في عهد عثمان بن عفان .

وفي العصر الأموي ، استمر الصراع بين الدولتين ، وقامت محاولات لفتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية . والدولة الأموية اهتمت بالفتوحات ، في وسط آسيا ، وفي شمال إفريقية وفي جنوب أوروبا ، وكان للأمويين جيوش برية عظيمة ، وأساطيل بحرية ضخمة ، أبدت تفوقها خلال صراعاتها مع البيزنطيين .

أما العباسيون فلم يهتموا بالفتوحات الإسلامية ، وإن لم يتوقف الصدام العسكري بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية ، ولكن العباسيين لم يخططوا لاسقاط الدولة البيزنطية كما خطط أسلافهم الأمويون . وأصبحت صورة الصدام العسكري بين الدولتين ، غارات انتقامية تخريبية ، القصد منها إنزال كل فريق بالآخر أكبر قدر من الخسائر في الأرواح والعمران والأموال . وكانت كل من الدولتين العباسية والبيزنطية تنتهز فرصة الاضطرابات الداخلية للقيام بمثل هذه الاغارات التخريبية .

ويرجع المرحوم الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن[1] هذه الاتجاهات العباسية في مناوأتهم للبيزنطيين ، وعدم تفكيرهم في وضع سياسة مرسومة للقضاء على الدولة البيزنطية ، إلى عاملين : أولهما مناوأة أهالي بلاد الشام للعباسيين لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين حتى ان عبد الرحمن الداخل[2] فكر في إعادة هذه البلاد إلى سلطان الأمويين واعتمد في تحقيق سياسته على ولاء أهالي الشام لبني أمية . وأما العامل الثاني ، فهو عدم اهتمام العباسيين بانشاء أسطول قوي في البحر المتوسط يضارع الأسطول الأموي ، واعتماد العباسيين على الجيوش البرية دون القوات البحرية . ويمكننا القول أن

(١) تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ١٨٥ .
(٢) وهو أحد أمراء الأمويين وهرب بعد قيام الدولة العباسية إلى الأندلس حيث أقام إمارة أموية .

الدولة الإسلامية كانت قد اتسعت اتساعاً عظيماً يستلزم جهداً كبيراً للسيطرة عليها وتأمين حدودها ، ورأى العباسيون أنهم قد فقدوا الأندلس وأن هناك حركات تمرد في الشام وإفريقيا فأدركوا أنه من الخير لهم المحافظة على ما في أيديهم .

صور الأستاذ الدكتور إبراهيم العدوي[1] العلاقات بين الدولة الإسلامية ودولة الروم في العصر العباسي فقال : اتسمت الفترة التي انصرفت فيها جهود الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم إلى حل مشاكلهما الداخلية بوقوع بعض المصادمات الحربية على منطقة الحدود بين الدولتين ، اتخذت في كثير من الأحيان طابع الاغارات المحدودة الأثر . ولم يكن منتظراً من الدولتين أن تقوما بأكثر من ذلك في ميدان العمليات الحربية ولا سيما أن مركز القوة الإسلامية انتقل إلى بغداد وأضحى بعيداً عن عاصمة امبراطورية الروم . ولذا كانت الإغارات التي شنها الطرفان عندما سمحت لهما الظروف تهدف إلى السلب والنهب والتخريب ما تستطيع تخريبه من المدن والحصون دون أن تترامى بها الآمال إلى القيام بمشروعات حربية واسعة ، شبيهة بما أعدته الخلافة الأموية ، فكان من الطبيعي أن يهتم المسلمون والروم ، بتحصين مناطق الحدود بينهما للحد من نشاط الإغارات .

كانت العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية في عهد الخليفة المتوكل هي حلقة في سلسلة طويلة متكاملة الحلقات ، وقد اتخذ الصدام بين الدولتين في عهد المتوكل صورة قريبة من صور الصدام السابقة في عهود أسلاف المتوكل ، مما يحتم علينا دراسة السلسلة دراسة موضوعية متكاملة موجزة .

كان خط الحدود بين الدولتين العباسية والبيزنطية يتكون من سلسلتي جبال طوروس بمعاقلها وحصونها ذات المكانة الحربية الاستراتيجية الممتازة لوقوعها عند تقاطع الطرق التي تخترق تلك السلسلة الجبلية الضيقة . وحرص

---

(١) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٨٨ .

كل من المسلمين والروم على السيطرة على تلك الحصون والممرات الهامة للهجوم أو الدفاع . فوضع الروم منطقة الأطراف التي واجهت أراضي الدولة الإسلامية التي سميت باسم منطقة الممرات أو الثغور تحت إشراف رجال حربيين لقبوا بحكام الثغور .

وكان هذا الخط الدفاعي يسير على امتداد جبال طوروس من الفرات الأعلى إلى حدود قيلقيا ، وينقسم إلى قسمين : الأول يمتد من ملطية إلى عين زربة ، وكان مخصصاً لدفع الاغارات الإسلامية الآتية من شمال العراق . وأهم حصون هذا القسم ملطية التي تقع عند ملتقى الطرق الرئيسية المؤدية من سبيسطة أو سيواس وقيصرية إلى أرمينية وشمالي العراق . ويمر هذا الطريق من ملطية إلى مرعش عبر جبال طوروس بقلعة زبطرة . أما القسم الثاني من خط دفاع الروم فكان يواجه الشام ومهمته الدفاع عن أراضي الروم ضد الحملات الشامية[1] .

بدأ الصدام العسكري بين الدولتين العباسية والبيزنطية في عهد الخليفة الثاني أبي جعفر المنصور ، فهاجم الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع بعض أراضي الشام سنة ١٣٧ هـ ، واستولى على (ملطية) وضرب حصونها . ونجح العباسيون في استردادها وأصلحوا ما خربه البيزنطيون وأقاموا فيها حامية عسكرية ضخمة لتواجه أي محاولة بيزنطية أخرى . واستفدى المنصور الأسرى المسلمين ، وتوقف القتال بعد ذلك لانشغال المنصور بمواجهة ثورة علوية قادها محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم[2] .

كان للمسلمين أوقات معينة يغيرون فيها على أراضي الدولة البيزنطية ، فتحدث بعض الاغارات في فصل الربيع والصيف وتسمى الصوائف، وأخرى في الشتاء وتسمى الشواتي . فغزو الربيع يبدأ من منتصف مايو حيث تكون الخيول قد سمنت وقويت من رعيها في كلأ الربيع ومراعيه ، ويستمر الغزو

---

(١) العدوي : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٨٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٢٧ .

ثلاثين يوماً أي إلى منتصف الشهر التالي ، وفي هذه الإغارات تجد الخيول غذاء وفيراً في مراعي الروم التي تمر بها ، ثم يجنح المسلمون إلى السكينة ويريحون خيولهم من منتصف يونيو إلى منتصف يوليو حيث تبدأ اغارات الصيف ، وكانت هذه الحملات تستغرق ستين يوماً .

أما إغارات الشتاء ، فلم يقدم المسلمون عليها إلا في حالات الضرورة القصوى دون أن يمعنوا في التوغل داخل أراضي الروم . فلم تستغرق الشواتي أكثر من عشرين يوماً ، يأخذ فيها الجند مؤنهم الضرورية التي تقوم بأودهم خلال هذه الأسابيع الثلاثة . وكانت تلك الشواتي تقع عادة في الفترة ما بين أواخر فبراير والنصف الأول من مارس[1] .

غزا الخليفة المنصور الأراضي البيزنطية في صيف سنة ١٤٦ هـ ونقرأ في المصادر عن الصوائف في سنوات ١٥٦و ١٧٦و ١٥٨ هـ[2] .

وفي سنة ١٥٩ هـ ، خرج الخليفة العباسي الثالث محمد المهدي لغزو أراضي الدولة البيزنطية ووصل إلى البردان وعسكر به، وفي سنة ١٦١ هـ تولى ثمامة بن الوليد العبسي قيادة الصائفة ونجح أولاً في هزيمة الروم ، ولكنهم تغلبوا عليه بعد ذلك . وفي سنة ١٦٣ هـ ولى الخليفة المهدي ابنه هارون أمر الصائفة فحاز انتصارات واسعة وتكررت هذه الانتصارات سنة ١٦٥ هـ حيث أرغم الملكة (ايريني) أرملة (ليو الرابع) والوصية على ابنها قسطنطين السادس على دفع جزية سنوية قدرها تسعون ألف دينار ، وتعهدت بأن تقيم للمسلمين الأسواق والأدلاء في الطريق عند عودتهم إلى بلادهم وبأن تسلم أسرى المسلمين . ووقع الفريقان هدنة لمدة ثلاث سنوات ، وارتفع ذكر هارون ومنحه أبوه المهدي لقب (الرشيد) وجعله ولي العهد الثاني بعد أخيه موسى الهادي[3] .

---

(١) العدوي : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٩٥ .
(٢) الطبري جـ ٦ ص ٢٩٥ وما بعدها ، ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٢٧ وما بعدها .
(٣) الطبري جـ ٦ ص ٣٨٠ وما بعدها .

علق الدكتور فيليب حتي[1] على غزوة المهدي فقال : وقد ثبت أن هذه كانت آخر مرة وقف فيها جيش عربي أمام اسوار العاصمة المتكبرة. ولقد كانت جملة الحملات التي وجهت إلى بيزنطة أربع ، ثلاث منها أرسلت في عهد الأمويين أرسلها معاوية بن أبي سفيان وسليمان بن عبد الملك .

وفي رمضان سنة ١٦٨ هـ ، أي قبل انقضاء مدة الهدنة نقض الروم الصلح وغدروا بالمسلمين فبعث الخليفة المهدي جيشاً هزم الروم وحاز كثيراً من الغنائم . وأدت هذه الانتصارات إلى ارتفاع هيبة المهدي عند ملوك دول وسط آسيا[2] .

وفي سنة ١٨١ هـ ، زحف الخليفة هارون الرشيد على رأس جيش ضخم إلى آسيا الصغرى واشتبك مع البيزنطيين في سلسلة من المعارك ، حاز فيها انتصارات رائعة . وحينما تولى نقفور العرش البيزنطي ، تبادل الرسائل مع الرشيد سنة ١٨٧ هـ وهاجم نقفور الهدنة التي عقدتها ايريني ونقضها ووصف ايريني بالضعف والحمق وطالب نقفور الرشيد بأداء الأموال التي أخذها من ايريني وهدده بالقتال إن رفض . وغضب الرشيد ، وكتب رسالة إلى نقفور وسماه « كلب الروم » وأعلن له أن رده عليه هو قتاله له . ونجح الرشيد في إلحاق الهزائم بنقفور فأرغمه على العودة إلى دفع الجزية[3] . ولكن البيزنطيين نقضوا الهدنة وزحفوا على الأراضي العباسية ، وهزموا الجيوش العباسية في مرعش وطرسوس نتيجة انشغال هارون الرشيد في مواجهة مشاكل الدولة الداخلية حتى إذا فرغ منها تقدم على رأس جيش عباسي كثيف واستولى على عدة مدن بيزنطية وأسر عدداً كبيراً من البيزنطيين وأخذ الجزية . وفي سنة ١٩٠ هـ غزا العباسيون جزيرة قبرص[4] .

كان الرشيد هو صاحب الخطوة الهامة في تأمين الحدود الإسلامية فقد

---

(١) حتي : تاريخ العرب ص ٣٧١ .
(٢) اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٧٩ .
(٣) الطبري جـ ٦ ص ٣٩٥ وما بعدها .
(٤) الطبري جـ ٦ ص ٤٠١ وما بعدها .

أسس اقليم العواصم والثغور وعاصمته انطاكية وجعل عليه ابنه المعتصم . ويقصد بلفظ العواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات الروم . وفي نفس الوقت للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة لحدود الروم . وهي الحصون التي سميت بإقليم الثغور لمواجهتها للثغرات أو المنافذ في أرض العدو . وكان إقليم الثغور ينقسم قسمين أحدهما في الشمال الشرقي ويسمى بالثغور الجزرية التي تدافع عن شمال العراق ومن حصونها الهامة زبطرة وحصن منصور والحدث ، والقسم الثاني يسمى بالثغور الشامية في الجنوب الغربي حيث يقترب من ساحل خليج الإسكندرونة ، ومن أهم حصونه المصيصة وأدنة وطرسوس[١] .

وفي عهد المأمون ، انتهز فرصة ثورة داخلية في الدولة البيزنطية قام بها (توماس الصقلبي) فرأى المأمون معاونة هذا الثائر الذي لقي تأييداً شعبياً نتيجة آرائه الدينية ، وقد أيده بطريق انطاكية أيضاً . وانتصر توماس على قوات الإمبراطور في أول الأمر ولكن الإمبراطور استعان بالبلغار ونجح في إلحاق الهزيمة بالثائر ثم قتله[٢] .

وأراد الإمبراطور البيزنطي الانتقام من الدولة العباسية فوقف منها نفس الموقف فتحالف مع بابك الخرمي الذي قام بحركة من حركة الزنادقة الثورية المسلحة وهزم عدة جيوش عباسية في عهد المأمون ، واستمرت ثورته في عهد الخليفة الثامن المعتصم .

كتب الإمبراطور البيزنطي إلى المأمون رسالة تجمع بين اللين والتهديد يطلب الصلح ، وغضب المأمون ، ورفض الهدنة والموادعة ، ودعاه إلى الإسلام ، أو دفع الفدية . وفي سنة ٢١٨ هـ خرج المأمون لقتال الروم ولكنه مات ودفن في طرسوس[٣] .

---

(١) العدوي : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٨٩ ـ ٩٠ .
(٢) الطبري : جـ ٦ ص ٤١٠ ، فازيليف : العرب والروم ص ٢١٢ .
(٣) الطبري جـ ٧ ص ١٨ وما بعدها .

رأت دولة الروم ـ في عهد المعتصم ـ في ثورة بابك فرصة للأخذ بثأرها من مساعدة الدولة العباسية للثائر توماس ، فاتخذت خطوات إيجابية في سبيل احتضان ثورة بابك الخرمي ، الذي أرسل إلى امبراطور الروم ثيوفيل يحرضه على الإغارة على أراضي الدولة العباسية المفتقرة إلى وسائل الدفاع لأن قوات المعتصم كلها مشغولة بحرب الخرمية . وكان بابك يرمي من وراء ذلك أن يضطر الخليفة المعتصم حين يعلم بغزو الروم لأراضيه إلى سحب جزء من جيشه لمواجهة هذا الخطر ، ويخفف بذلك الضغط على الخرمية[1] . ولبى الإمبراطور ثيوفيل دعوة بابك ، وأرسل جيشاً ضخماً إلى حصن (زبطرة) في ثغور الجزيرة قرب الحدود بين الدولتين . فخرب زبطرة وقتل الذكور من أهلها وأسر النساء والأطفال[2] . وكانت الخطة الرئيسية لحملة ثيوفيل ترمي إلى الاتجاه إلى أعالي الفرات أملاً في الاتصال بثوار أرمينية وأذربيجان[3] .

نجح المعتصم في القضاء على ثورة بابك الخرّمي ثم اتجه بجيشه إلى انقرة حيث فتحها وهزم الإمبراطور البيزنطي وخرب عمورية موطن الإمبراطور الأصلي[4] .

وفي خلافة الواثق روى الطبري[5] في أحداث سنة ٢٣١ هـ أي قبل تولية المتوكل بعام واحد : « وفي هذه السنة تم الفداء بين المسلمين وصاحب الروم واجتمع فيها المسلمون والروم على نهر يقال له اللامس على سلوقية على مسيرة يوم من طرسوس » .

وظهر نظام للفداء أو تبادل الأسرى ، فقد اتسمت الإغارات العباسية والبيزنطية على السواء بطابع التخريب والمفاجأة وحمل الغنائم . والقبض على

---

(١) العدوي : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ١٠١ .
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ١٧٦ .
(٣) العدوي : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ١٠١ .
(٤) الطبري جـ ٧ ص ٢٢٩ وما بعدها ـ ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ١٨٠ وما بعدها ـ الفخري ص ٢١٠ ـ ٢١١ .
(٥) الطبري جـ ٧ ص ٣٣١ .

كثير من رعايا وجند الطرفين المتحاربين . فتطلب هذا المظهر الحربي وضع نظام خاص لمعاملة الأسرى ووسائل إطلاق سراحهم .

فكان الأسير يرسل إلى داخل البلد التي أسرته حيث وجدت أماكن خاصة أو ثكنات لايواء الأسرى وكانت معسكرات الاعتقال هذه تنقسم إلى قسمين : أحدهما خاص بكبار رجال الجيش والآخر بعامة الجنود. وكانت دولة الروم ترعى تعاليم الإسلام في معاملتها للأسرى المسلمين ، فلم تكره أحداً منهم على أكل لحم الخنزير أو ما يخالف الإسلام ، كما لم يتعرض المسلمون للتعذيب بينما عذب الروم أسرى اعدائهم الآخرين من الدول المتاخمة لحدودها الشمالية . ولعل هذه المعاملة الممتازة التي حظي بها الأسرى المسلمون ترجع إلى ما تمتعت به الدولة العباسية من مهابة وجلال والى حسن معاملتها للأسرى الروم . بل إن دولة الروم سمحت للأسرى المسلمين بمزاولة بعض التجارة الداخلية التي درت عليهم أرباحاً . كما مارس الأسرى المسلمون بعض الألعاب المرحة للترفيه[1] .

قدم الطبري لنا صورة لعملية الفداء في عهد الواثق ، ولم يتم فداء منذ عهد الأمين واستمر الفداء في عهد المتوكل . واشترك في الفداء في عهد الواثق ، بعض رجال المتوكل مثل الوزير محمد بن عبد الملك الزيات واحمد ابن أبي دؤاد . فقال الطبري[2]: « فقدم على الواثق رسل صاحب الروم وهو ميخائيل بن توفيل بن ميخائيل بن اليون بن جورجس ، يسأله أن يفادي بمن في يده من أسارى المسلمين في آخر سنة ٢٣٠ هـ ، فوجه الواثق خاقان[3] في ذلك فخرج خاقان ومن معه في فداء اسارى المسلمين في آخر سنة ٢٣٠ هـ على موعد بين خاقان ورسل صاحب الروم الالتقاء في الفداء في يوم عاشوراء وذلك في العاشر من محرم سنة ٢٣١ هـ . ثم عقد الواثق لاحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي على الثغور والعواصم ، وأمره بحضور الفداء . وكان الرسل الذين

(١) العدوي : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ١١١ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٢٣١ - ٢٣٢ .
(٣) وهو خاقان الخادم وكان خادم الرشيد ونشأ في طرسوس .

قدموا في طلب الفداء قد جرى بينهم وبين ابن الزيات اختلاف في الفداء . قالوا لا نأخذ في الفداء امرأة عجوزاً ولا شيخاً كبيراً ولا صبياً . فلم يزل ذلك بينهم أياماً حتى رضوا عن كل نفس بنفس فوجه الواثق الى بغداد والرقة في شري من يباع من الرقيق من مماليك فاشترى من قدر عليه منهم فلم تتم العدة فأخرج الواثق من قصره من النساء الروميات العجائز وغيرهن حتى تمت العدة ووجه ممن مع ابن أبي دؤاد رجلين . . ووجه معهما كاتباً . . وأمره بامتحانهم . فمن قال القرآن مخلوق فودي به ومن أبى ترك في أيدي الروم » . .

ثم أقام المسلمون على النهر جسراً لهم وكذلك اتخذ الروم لانفسهم جسراً على النهر فكان المسلمون يطلقون أسيراً ممن في أيديهم ويطلق الروم بدورهم اسيراً ممن عندهم . فاذا اقترب المسلم قابله المسلمون مهللين (الله اكبر) كما هلل الروم لاطلاق سراح أسراهم . واستمر الفداء أربعة أيام وزاد عدد أسرى الروم على الأسرى المسلمين بمائة انسان ، اطلق العباسيون سراحهم أيضاً[1] .

واتخذ البيزنطيون من سوء الحال التي سادت الدولة العباسية في العصر العباسي الثاني لاستبداد الأتراك بالسلطة دون الخلفاء فرصة سانحة للاغارة على بلاد الدولة العباسية[2] . كما أن حروب الصوائف والشواتي لم تتمخض عن نتائج ذات قيمة كبيرة سواء للمسلمين أو الروم . فقد ظل خط الحدود بينهما في أخذ ورد دون أن يستطيع أحد الفريقين السيطرة على معاقله ودروبه ، كما أن نجاح احدى الاغارات أو غيرها كان متوقفاً على الأحوال الداخلية عند الفريقين المتنازعين[3] .

في عهد المتوكل وفي سنة ٢٣٨ هـ قدمت ثلثمائة سفينة بيزنطية الى سواحل مصر بقيادة ثلاثة قواد بحريين بيزنطيين يقود كل منهم مائة سفينة واستولوا على دمياط وتنيس وعاثوا فيها فساداً ، وغرق كثير من الأهالي وهرب الباقون الى

---

(١) الطبري : جـ ٧ ص ٣٣٣ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ٢٣١ .

(٣) العدوي : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ١٠٤ .

الفسطاط . ولعبت الأقدار دوراً في التمهيد لهؤلاء البيزنطيين فقد استدعى والي مصر الجنود من دمياط ليشاركوا في احتفالات العيد فخلت دمياط من الجند ، مما يسر على البيزنطيين الاستيلاء عليها[1].

وصف الطبري[2] ما أحدثه البيزنطيون بأهالي دمياط ، مسلمين وقبطاً ، فقال : « وقتلوا من أمكنهم قتله من الرجال وأخذوا من الأمتعة والقند والكتان ما كان عبي ليحمل الى العراق ، وسبوا من المسلمات والقبطيات نحواً من ستمائة امرأة ، ويقال ان المسلمات منهن مائة وخمس وعشرون امرأة ، والباقي من نساء القبط ، ويقال ان الروم الذين كانوا في الشلنديات التي أناخت بدمياط كانوا نحواً من خمسة آلاف رجل فأوقروا سفنهم من المتاع والأموال والنساء وأحرقوا خزانة القلوع ، وهي شرع السفن وأحرقوا مسجد الجامع بدمياط وأحرقوا كنائس وكان من حذر منهم ممن غرق في بحيرة دمياط من النساء والصبيان أكثر ممن سباه الروم . ثم رحل الروم عنها » .

لم يقم الوالي عنبسة بن اسحق الضبيّ (٢٣٨ ـ ٢٤٢ هـ) بواجبه في صد البيزنطيين عن دمياط فقد كان مشغولاً ـ كما ذكرنا ـ باحتفالات العيد . وقد نظم يحيى بن فضل قصيدة أرسلها الى الخليفة المتوكل ، انتقد فيها تهاون عنبسة في مواجهة الروم ، جاء فيها :

أترضى بأن توطأ حريمك عنوة وان يستباح المسلمون ويحربوا[3]

وذكر الطبري روايته لأحداث سنة ٢٣٨ هـ ، في عهد المتوكل أن حروب الصوافي قد استمرت فغزا في هذه السنة الصائفة علي بن يحيى الارمني[4]وفي سنة ٢٤١ هـ اغار البيزنطيون على مدينة (عين زربة) قرب (المصيصة) ، « فأسرت من كان بها من الزط مع نسائهم وذراريهم وجواميسهم وبقرهم »[5] .

---

(١) الطبري : جـ ٧ ص ٣٧١ ، الكندي : الولاة والقضاة ص ٢٠١ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٧١ .
(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص ٢٠١ .
(٤) الطبري جـ ٧ ص ٣٧٢ .
(٥) الطبري جـ ٧ ص ٣٧٦ .

وكان المعتصم قد هزم الزط ، بعد أن تعدد شغبهم في المنطقة الواقعة بين واسط والبصرة ، ثم أطلقهم في منطقة الحدود العباسية البيزنطية ونزل بعضهم في مدينة عين الزربة وهي مدينة بناها هارون الرشيد سنة ١٨٠هـ وأقطعها فريقاً من أهل خراسان وغيرهم وسكنها بعض الزط في عهد المعتصم .

وفي سنة ٢٤١ هـ أيضاً « كان الفداء بين المسلمين والروم »(١). فتم تبادل الأسرى بين العباسيين والروم في عهد ميشيل الثالث (٢٢٨ ـ ٢٥٣ هـ = ٨٢٤ ـ ٨٦٧ م) الذي آلت الوصاية عليه الى أمه تيودورا ، التي يسميها الطبري(٢) « تذورة صاحبة الروم ام ميخائيل » . وبلغ عدد أسرى المسلمين عشرين ألفا كانوا يلاقون صنوفاً عديدة من الاضطهاد والتعذيب حتى ان بعضهم رأى النجاة بنفسه واعتناق المسيحية بعد ان عرضت (تيودورا) عليهم التنصر . أما من رفض وآثر التمسك باسلامه فقد لقي حتفه . وبلغ عدد هؤلاء الشهداء اثني عشر ألفاً ولم يبق من المسلمين سوى تسعمائة بين رجل وامرأة .

وعقد الفريقان ، العباسي والبيزنطي فترة هدنة تستمر من أوائل رجب الى أواخر شوال سنة ٢٤١ هـ يتم فيها الفداء . وتم الفداء في عيد الفطر وكان الممثل العباسي هو شنيف الخادم والممثل البيزنطي هو (جورجوس) وتم الفداء عند نهر اللامس(٣).

وفي أحداث سنة ٢٤٥ هـ روى الطبري(٤): « وفيها أغارت الروم على سميساط ، فقتلوا وسبوا نحواً من خمسمائة . وغزا علي بن يحيى الأرمني الصائفة ومنع اهل لؤلؤة رئيسهم من الصعود اليها ثلاثين يوماً . فبعث ملك الروم اليهم بطريقاً يضمن لكل رجل منهم ألف دينار على أن يسلموا اليه لؤلؤة ، فاصعدوه اليهم ثم اعطوا ارزاقهم الفائتة وما أرادوا فسلموا لؤلؤة والبطريق الى بلجاكور في ذي الحجة . وكان البطريق الذي كان صاحب الروم وجهه اليهم يقال له لغثيط ، فلما دفعه أهل لؤلؤة إلى بلجاكور ، وقيل ان

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٧٦ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) الطبري جـ ٧ ص ٣٧٦-٣٧٧ .
(٤) جـ ٧ ص ٣٨٧ .

علي بن يحيى الأرمني حمله إلى المتوكل فدفعه المتوكل إلى الفتح بن خاقان . فعرض عليه الاسلام فأبى ، فقالوا : نقتلك ، فقال أنتم أعلم . وكتب ملك الروم يبذل مكانه ألف رجل من المسلمين » .

وفي سنة ٢٤٦ هـ ، تم فداء آخر بين العباسيين والبيزنطيين . فقد أرسل المتوكل رسولاً الى ميشيل امبراطور الروم هو نصر بن الأزهر الشيعي ومعه هدايا من المسك والزعفران والثياب الحريرية والطرائف .

وقدم هذا الرسول لنا صورة لبلاط الامبراطور ودبلوماسية المفاوضات ، فقال نصر بن الازهر : « وحملت الهدايا التي معي ، فدخلت عليه ـ أي الامبراطور ـ فاذا هو على سرير فوق سرير ، واذا بالبطارقة حوله قيام ، فسلمت ، ثم جلست على طرف السرير الكبير وقد هيء لي مجلس ، ووضعت الهدايا بين يديه . وبين يديه ثلاثة تراجمة ، غلام فراش كان لمسرور الخادم ، وغلام لعباس بن سعيد الجوهري ، وترجمان له قديم يقال له سرحون . فقالوا لي ما نبلغه ؟ قلت : لا تزيدون على ما أقول لكم شيئاً . فأقبلوا يترجمون ما أقول . فقبل الهدايا ولم يأمر لأحد منها بشيء ، وقربني وأكرمني ، وهيأ لي منزلاً بقربه . فخرجت فنزلت في منزلي . وأتاه أهل لؤلؤة برغبتهم في النصرانية وأنهم معه ، ووجهوا برجلين مما فيها رهينة من مسلمين » .

« فتغافل عني نحواً من أربعة أشهر حتى أتاه كتاب مخالطة أهل لؤلؤة واخذهم رسله واستيلاء العرب عليها فراجعوا مخاطبتي وانقطع الأمر بيني وبينهم في الفداء على أن يعطوا جميع من عندهم وأعطي جميع من عندي وكانوا أكثر من الف قليلا . وكان جميع الأسرى الذين في أيديهم أكثر من ألفين ، منهم عشرون امرأة معهم عشرة من الصبيان ، فاجابوني الى المحالفة فاستحلفت خاله فحلف عن ميخائيل ، فقلت : أيها الملك ، قد حلف لي خالك فهذه اليمين لازمة لك . فقال برأسه نعم . ولم أسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم الى أن خرجت منها إنما يقول الترجمان وهو يسمع ، فيقول برأسه نعم أو لا ، وليس يتكلم ، وخاله المدبر أمره ثم خرجت من عنده بالأسرى بأحسن حال .

« حتى اذا جئنا موضع الفداء أطلقنا هؤلاء جملة وهؤلاء جملة وكان عداد من صار في أيدينا من المسلمين أكثر من ألفين ، منهم عدة ممن كان تنصر ، وصار في أيديهم أكثر من ألف قليلاً ، وكان قوم تنصر فقال لهم ملك الروم : لا أقبل منكم حتى تبلغوا موضع الفداء ، فمن أراد أن أقبله في النصرانية فليرجع عن موضع الفداء والا فليضمن ويمض مع أصحابه . وأكثر من تنصر أهل الغرب وأكثر من تنصر بالقسطنطينية وكان هنالك صائغان قد تنصرا ، فكانا يحسنان الى الأسرى ، فلم يبق في بلاد الروم من المسلمين ممن ظهر عليه الملك الا سبعة نفر خمسة أتي بهم من صقلية أعطيت فداءهم على أن يوجه لهم الى صقلية ، ورجلين كانا من رهائن لؤلؤة ، فتركتهما ، قلت : اقتلوهما فانهما رغبا في النصرانية »[1].

وفي عهد الخليفة المنتصر بن المتوكل ، اتخذت الحروب مع البيزنطيين وسيلة لإبعاد بعض القواد المناوئين . فقد قامت العداوة والبغضاء بين احمد بن الخصيب وزير المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ) وبين وصيف التركي ، فعمل هذا الوزير على التخلص من ذلك القائد ، وأغرى الخليفة المنتصر بابعاده عن حاضرة الدولة لغزو الروم[2] .

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩ .
(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ٢٣٢ .

الباب الثاني

الاتجاهات الحضاريّة في الدّولة العبّاسيّة في عهد المتوكّل على اللّه

١ ـ عهد تشييد وعمران : تطوير مدينة سامراء وإنشاء مدينة المتوكلية .
٢ ـ التطورات الاجتماعية في عهد المتوكل .
٣ ـ موقف المتوكل من أهل الذمة .
٤ ـ الاتجاهات المالية والاقتصادية في عهد المتوكل .
٥ ـ الاتجاهات الدينية : موقف المتوكل من مذهب السنة ، ومن مذهب المعتزلة ، ومن قضية خلق القرآن .
٦ ـ موقف المتوكل من الإمام احمد بن حنبل .
٧ ـ الاتجاهات الفكرية في عهد المتوكل .

الباب الثاني

الاتجاهات الحضارية في الدولة العباسية في عهد المتوكل على الله

١ ـ عهد تشييد وعمران :

تطوير مدينة سامراء وإنشاء مدينة المتوكلية :

يعتبر عهد الخليفة المتوكل على الله ، عهد تشييد وعمران ، فقد اهتم بتطوير مدينة سامراء وإقامة كثير من المنشآت بها ، كما أنشأ مدينة جديدة ، عرفت باسم (المتوكلية) أو (الجعفرية) كما اهتم بانشاء الجوامع والقصور . وبلغ عدد قصور المتوكل تسعة عشر قصراً ، اتصفت بالتطور العمراني والتقدم الفني ودلت على ثراء الدولة العباسية في عهد المتوكل .

تطوير سامراء :

رأى المعتصم بعد توليته الخلافة أن جنود بغداد من الابناء لا يوثق بهم لكثرة الاضطرابات التي كانوا يثيرونها ، فعول على تأليف جيش من الأتراك لما اتصفوا به من شدة البأس[١]. وزاد عدد الأتراك ، وأنزلوا بأهالي بغداد ألواناً من الإيذاء والإرهاب[٢].

وطلب أهل بغداد من المعتصم أن يخرج بجنوده الأتراك من مدينتهم ، فروى ياقوت[٣]: « اجتمع أهل الخير على باب المعتصم وقالوا له : إما أن

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم جـ ٥ ص ٢١٠ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٩ .
(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ١٤ .

تخرج من بغداد ، فان الناس قد تأذوا بعسكرك او نحاربك ، فقال : كيف تحاربوني ؟ قالوا : نحاربك بسهام السحر . قال : وما سهام السحر ؟ قالوا : ندعو عليك . فقال المعتصم : لا طاقة لي بذلك » .

وأدى تكاثر عدد الجند الأتراك في بغداد الى حالة جديدة إذ كثر الزحام واضطرب الأمن ، وقامت مشكلة إسكان . فيقول صاحب كتاب العيون والحدائق(١): « ان المساكن والطرق ضاقت على الناس ببغداد لكثرة العساكر التي تجمعت مع المعتصم » . وشهدت طرقات بغداد صراعات دموية بين الجند الأتراك أنفسهم ، ووصفهم اليعقوبي بأنهم « غوغاء »(٢).

ولم يعد المعتصم يأمن على نفسه من جنود بغداد ، فيقول صاحب الفخري(٣): « ان المعتصم خاف من الجند في بغداد ولم يثق بهم ، فقال : اطلبوا لي موضعاً أخرج اليه وأبني فيه مدينة وأعسكر فيه ، فإن رابني من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة وكنت قادراً على أن آتيهم في البر والماء » .

وبدأ المعتصم يبحث عن مكان يبني فيه حاضرته الجديدة ، وأراد في أول الأمر البناء في الشماسية فتركها لضيق المحل « وكره قربها من بغداد »(٤) فمضى الى البردان ، وهي قرية من قرى بغداد ، بمشورة الوزير الفضل بن مروان ، فأقام بها أياماً فلم يعجبه مناخها(٥). فانتقل الى موضع يقال له (باحمشا) على الجانب الشرقي من نهر دجلة ، فلم يعجبه ايضاً لعدم توفر موارد المياه . ثم مر المعتصم بالقاطول فأعجبه الموضع بحيث يمر نهر القاطول بوسط المدينة الجديدة ويكون البناء على نهري القاطول ودجلة(٦).

---

(١) مؤلف مجهول : العيون والحدائق جـ ٣ ص ٥٠ - ويقول ابن طباطبا أيضاً (الفخري ص ٢١٠) : « قيل إن المعتصم استكثر من المماليك فضاقت بهم بغداد » .

(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٥٦ .

(٣) الفخري ص ٢١٠ .

(٤) اليعقوبي : البلدان ص ٢٥٦ .

(٥) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٥٥٢ .

(٦) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٥٦ .

وفي منطقة القاطول بدأ المعتصم البناء فارتفعت المباني والعمائر الى ارتفاع معين ، ثم لاحظ المعتصم عبث الاستمرار في البناء لصعوبة الأرض ولضيق المساحة فترك منطقة القاطول وخرج يبحث عن مكان جديد ، حتى توصل الى مكان سامراء ، على بعد ستين ميلاً شمال بغداد حيث يقوم دير مسيحي . وفي سنة **٢٢١** هـ بدأ المعتصم إنشاء عاصمته الجديدة[١].

توفر في مكان العاصمة الجديدة عدة مميزات ، فهي تقع على طرف شرقي دجلة بين بغداد وتكريت ، مما ييسر طرق المواصلات البرية والنهرية بين سامراء وبغداد[٢]. كما أن المياه التي تحيط بموضع سامراء تشكل منطقة دفاعية تحيط بالعاصمة الجديدة كما أن أرض سامراء ترتفع عن مستوى مياه النهر ، مما يحميها من أخطار الفيضان التي تعرضت لها بغداد دائماً[٣].

يصف ياقوت الحموي[٤] سامراء فيقول : « معشوقة السكنى ، حبيبة المثوى ، كوكبها يقظان وجوها عريان ، وحصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وترابها مسك أذفر ، ويومها غداة ، وليلُها سحر ، وطعامها هنيء ، وشرابها مريء » .

ويحلو للمؤرخين والجغرافيين المسلمين الأقدمين الاجتهاد في تفسير أسماء المدن القديمة ، وهم يقدمون عدة تفسيرات ، قد تختلف وتتناقض . ويرى المسعودي[٥] أن مدينة سامراء قامت مكان مدينة قديمة لسام بن نوح ، بينما يقول ياقوت[٦] : « كانت سامراء مدينة عتيقة من مدن الفرس تحمل اليها الاتاوة التي كانت تجلب لملك الفرس من ملك الروم . ودليل ذلك اسم المدينة ، لأن (سا) اسم الاتاوة و (مرة) اسم العدد ، والمعنى أنه مكان جباية

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٧ ـ المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٧ .
(٢) القزويني: آثار البلاد ص ٣٨٥ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٥٥٣ .
(٣) أحمد سوسة : ري سامراء جـ ١ ص ٥٥ .
(٤) ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ١٧٨ .
(٥) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٠ .
(٦) ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ١٣ ـ ١٤ .

جزية الرؤوس » . ويرى ابن عبد الحق[1] أن الاسم آرامي ، ورد في الكتابات الآرامية بلفظة (سامرا) . وقال ابن خلكان[2] : « وسر من رأى فيها ست لغات » .

وقيل ان مدينة المعتصم كانت تسمى بالعربية (سرور من رأى) ، حيث تسر الناظرين لجمالها ولبهائها ، ثم اختصر الناس الاسم فقالوا (سر من رأى) فلما لحق بها الخراب سموها (ساء من رأى) ، واختصر الاسم إلى (سامرا)[3] .

لم يتبع في تخطيط سامراء ما اتبع في تخطيط بغداد من حيث العناية بالأسوار والتحصين لأن الخلافة العباسية قد وطدت سلطتها وزال الخطر الذي كان يهددها منذ قيامها ، فلم تعد هناك حاجة إلى التحصينات[4] .

أحضر المعتصم الصناع والمهنيين والحرفيين من سائر الولايات العباسية واستورد مواد البناء من بغداد والبصرة وغيرهما من مدن العراق[5]. وشيد المعتصم قصراً ومسجداً جامعاً ، وثكنات للجند وأفرد لأهل كل صنف سوقاً ، كما أقطع القطائع لرؤساء الأتراك والأشروسية وغيرهم وتوافد الناس على سكنى سامراء وتشييد المباني الفخمة العالية[6]. ووكل المعتصم إلى أبي الفتح بن خاقان بناء الجوسق الخاقاني وإلى عمر بن فرج بناء القصر المعروف بالعمري وإلى أبي الوزير بناء القصر المعروف بالوزيري[7] . وأقطع (اشناس) وجماعته الموضع المعروف بالكرخ[8] ، وأقطع (خاقان عرطوج) وجماعته الموضع الذي يلي الجوسق الخاقاني ، وأقطع وصيفاً وجماعته الموضع الذي يلي (الحير)

---

(١) ابن عبدالحق : مراض الاطلاع جـ ٣ ص ٦٧ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٦٨ .
(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٢٣ .
(٤) جهادية القرغولي : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في سامراء ص ٦٩ .
(٥) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٥ .
(٦) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٥٩ .
(٧) المصدر السابق .
(٨) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٩٧ .

وكانت قطائع الأتراك الفراغنة بعيدة عن الأسواق[1] .

كانت الدولة العباسية في عهد المعتصم قوية ، ثرية ، مما وفر الفرص أمام المعتصم لبناء عاصمة كبرى ، تحفل بالمساجد والقصور والمرافق العامة ، وتحقق الإبداع الفني . ولم يكن في موضع سامراء أبنية تعرقل المنشآت الجديدة أو تحدد مساحة المباني الحديثة . ولم يكن المعتصم يريد إقامة مقر لخلافة أو معسكر جيش فحسب . بل أراد إنشاء عاصمة كبرى لدولة عظمى . تنافس بغداد في اتساعها وعمرانها . وساعدت طبيعة أراضي سامراء على الإبداع في البناء والنقش والزخرفة نتيجة طبيعة ونوعية الجص الموجود بها ، وظهر طراز خاص للزخرفة ارتبط باسم سامراء[2] .

كان قصر الخلافة من أبرز منشآت سامراء ، ويبلغ طول واجهته من جهة النهر سبعين متراً . وكانت المسافة بين باب القصر ونهاية المباني الخلفية أكثر من ثمانين متراً . وتحيط بالقصر حديقة واسعة غناء وتضم بركة كبيرة[3] .

ويعتبر (الجوسق) من أهم القصور في عهد المعتصم ، وقد سكنه المعتصم ويقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة ويطل على الحير ، وقام ببنائه أبو الفتح خاقان[4] . وهناك قصر (الحويصلات) على غربي نهر دجلة وتحيط به حديقة واسعة ، وتبلغ مساحة القصر والحديقة أكثر من مائة وثلاثين ألف متر مربع[5] .

توفي المعتصم سنة ٢٢٧ هـ ودفن في الجوسق[6] ، وتولى بعده ابنه هارون الواثق الذي تحول عن سكنى قصر الجوسق الخاقاني وشيد قصراً آخر سماه (القصر الهاروني) نسبة إليه[7] . وقام القصر الجديد على شاطىء

---

(١) ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ١٥ .
(٢) مديرية الآثار العراقية : سامراء ص ٣٦ ـ ٤٠ .
(٣) أحمد سوسة : ري سامراء جـ ١ ص ٦٦ .
(٤) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .
(٥) أحمد سوسة : ري سامراء جـ ١ ص ٨٧ .
(٦) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٦٨ .
(٧) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٩٧ .

دجلة ، وجعل الواثق فيه عدة مجالس في شرق وغرب القصر ، كانت تسمى الدكة الشرقية ، والدكة الغربية(١). واهتم الواثق بتوسيع محطة رسوّ السفن القادمة إلى سامراء وتسمى (الفرض) وزاد عدد سكان سامراء ، حيث أقاموا كثيراً من المباني .

حكم الواثق فترة قصيرة (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) مما لم يتح له الفرصة لتطوير سامراء وإقامة المنشآت فترك هذا الأمر لخلفه جعفر المتوكل على الله . وكان المتوكل شغوفاً بالبناء والتشييد ، فيقول ياقوت(٢) عنه : « لم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل » .

عند تولية المتوكل الخلافة ، اختار الإقامة في القصر الهاروني ، وفضله على جميع قصور المعتصم(٣) وأسكن ابنه المنتصر في قصر المعتصم المعروف باسم الجوسق الخاقاني وأسكن ابنه إبراهيم المؤيد في (المطيرة) وابنه المعتز في (بركوان) الذي كان يقع في شرقي (المطيرة)(٤) .

اهتم المتوكل بتطوير مدينة سامراء فخط فيها شارعين واسعين ، هما شارع الأسكر وشارع الحير الجديد . وكان شارع الأسكر مجاوراً لشارع برغامش التركي ، وفيه قطائع الأتراك والفراغنة منفصلة بعضها عن بعض وتمتد من المطيرة إلى دار صالح العباسي في بداية وادي اسحاق بن إبراهيم . وسكن في شارع الحير الجديد قواد الفراغنة والأشروسية وأهل خراسان(٥) .

وبذلك بلغ عدد شوارع سامراء سبعة شوارع ، فقد أنشأ المعتصم من قبل خمسة شوارع هي : الشارع الأعظم(٦) ، وشارع أبي أحمد(٧) ، وشارع الحير

---

(١) تاريخ اليعقوبي : جـ ٢ ص ١٧١ وما بعدها .
(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ١٧ .
(٣) اليعقوبي : البلدان ص ٢٦٥ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) المصدر السابق ص ٢٦٢ - ٢٦٥ .
(٦) يمتد من المطيرة إلى وادي إسحاق بن إبراهيم .
(٧) يمتد من دار بختيشوع الطبيب شرقاً إلى باب البستان .

الأول[١]، وشارع برغامش التركي[٢]، وشارع الخليج ويمتد على دجلة[٣].

ازدادت منشآت المتوكل في سامراء مما أدى إلى اتساعها وزيادة عمرانها وسكانها وبهائها. فقد أنشأ قصور بركوان، والعروس والصبيح واللؤلؤة والمختار[٤].

ورأى المتوكل هدم المسجد الجامع الذي أقامه الخليفة المعتصم حيث أصبح يضيق بالمصلين بعد زيادة تعداد سكان سامراء وأقام المتوكل مكانه جامعاً آخر، تلافى في بنائه عيوب جامع المعتصم. فقال اليعقوبي[٥]: « إن المتوكل جعل الطريق الذي يصل إلى الجامع من ثلاثة صفوف واسعة من الشارع الذي يأتي من وادي إبراهيم بن رياح عرض كل صف مائة ذراع، لئلا يضيق عليه الدخول إلى المسجد، إذا حضر في جيوشه ».

وقارن المقدسي[٦] بين جامع المتوكل والجامع الأموي بدمشق وأشاد بسعة جامع المتوكل، وفخامته، فقال انه أجمع من جامع دمشق، إذ طليت حيطانه بالميناء وكانت أساطينه بالرخام ويمتاز بمنارته الطويلة وبنافورته التي لا ينقطع ماؤها، وارتفاعها على سبعة أذرع، ومحيطها ثلاثة وعشرون ذراعاً وسمكها نصف ذراع[٧]. وأصبح جامع المتوكل يسع أكثر من ثمانين ألفاً من المصلين[٨].

وتميز جامع المتوكل بمئذنته، فهي عالية حتى تصل أصوات المؤذنين إلى جميع أرجاء سامراء، ويراها كل ساكن بالعاصمة، كما أنها (ملوية)

---

(١) يوازي شارع أبي أحمد ويمتد من وادي إسحاق بن إبراهيم إلى وادي إبراهيم بن رياح.
(٢) يمتد من المطيرة إلى الوادي الذي يتصل بوادي إبراهيم بن رياح.
(٣) اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٢٦٢ وما بعدها.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق ص ٢٦٥.
(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٢٢.
(٧) أحمد سوسة: ري سامراء جـ ١ ص ١١٠ وما بعدها.
(٨) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ٥٤.

وتشبه (اللولب) ويبلغ ارتفاعها نحو اثنين وخمسين متراً[1] .

كانت المئذنة الملوية مخروطة الشكل وتستند إلى قاعدة مربعة ، يصعد إلى قمتها من سطح مائل عريض ، يدور حولها من خارجها دوران الحلزون ، ويبلغ طول قاعدتها اثنان وثلاثون متراً ، ويبلغ قطر القمة ستة أمتار، وتبدأ المرقاة الحلزونية التي تضمن الصعود إلى القمة من وسط الضلع الجنوبي المقابل لجذر الجامع نفسه وتدور حول محور المئذنة باتجاه معاكس لاتجاه دوران عقرب الساعة خمس مرات ، إلى أن تصل إلى باب القمة الذي يفتح هو أيضاً في وسط القسم الجنوبي[2] .

وتكلفت حركة التشييد والبناء في عهد المتوكل نفقات طائلة قدرها ياقوت[3] بمائتين وأربعة وتسعين مليون درهم . وعلق المسعودي[4] على هذه النفقات بقوله : « إنه لم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها في أيام المتوكل ، ويقال إنه أنفق على الهاروني والجوسق الجعفري أكثر من مائة ألف ألف درهم . هذا مع كثرة الموالي والجند والشاكرية ودور العطاء لهم وجليل ما كانوا يقبضونه في كل شهر من الجوائز والهبات » .

إنشاء مدينة المتوكلية (الجعفرية) :

لم يكن المتوكل شغوفاً بالبناء والتشييد فحسب ، بل كان يتمتع بعقلية هندسية تجعله يبتكر ويبتدع طرزاً جديدة في البناء ، ذاعت بين الناس فحاكوها واتبعوها . فيقول المسعودي[5] : وأحدث المتوكل في أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيري والكمين والأروقة . وذلك أن بعض سُماره حدثه في بعض الليالي أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر أحدث بنياناً

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٩٧ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ١٩ .

(٢) مديرية الآثار العراقية : سامراء ص ٤٤ ، جهادية قرغولي : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في سامراء ص ٨٤ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ١٧ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٢٢ .

(٥) المصدر السابق جـ ٤ ص ٨٧ .

في دار قراره وهي الحيرة على صورة الحرب فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر والكمان ميمنة وميسرة ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه وفي اليمين منهما خزانة الكسوة وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب . والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق فسمي هذا البنيان إلى هذا الوقت بالحيري والكمين اضافة إلى الحيرة واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماماً بفعله واشتهر إلى هذه الغاية » .

وفي سنة ٢٤٥ هـ رغب المتوكل في ترك سامراء والبحث عن مكان آخر . ولم تشرح لنا المصادر التاريخية القديمة الدوافع التي أدت إلى هذا التحول وقيامه بانشاء مدينة جديدة هي المتوكلية أو الجعفرية . ونرى أن المتوكل كان مدفوعاً بعاملين ، أولهما رغبته في تخليد نفسه فيحاكي الخليفة أبا جعفر المنصور حين شيد بغداد ، وأباه الخليفة المعتصم حين أقام سامراء . فقد قال المتوكل حين انتقل إلى مدينته الجديدة : « الآن علمت أني ملك بنيت لنفسي مدينة سكنتها »[1] ، أما السبب الثاني ، فهو رغبة المتوكل في السكنى بعيداً عن الجند الأتراك بعد تكرر شغبهم وتكاثر عددهم ، واستبدادهم بالسلطة فلم يعد يأمن على نفسه في سامراء . وقد رأينا المتوكل في سنة ٢٤٣ هـ يتخذ خطوة إيجابية في نقل عاصمة الدولة ومقر الخلافة إلى دمشق . ولم ينجح المشروع . فرأى أن تكون المدينة الجديدة المتوكلية هي الحل لمشكلة الأتراك ، وقد حرص المتوكل على إنشاء المدينة الجديدة في أسرع وقت ، حتى ان تشييدها قد تم في نحو سنة واحدة[2] .

اختار المتوكل منطقة (الماحوزة) في شمال سامراء لتكون موضعاً لمدينته الجديدة[3] وحفر المتوكل في وسط هذه المنطقة نهراً بلغت تكاليف حفره مليوناً ونصف مليون درهم . ووزع المتوكل أراضي المدينة الجديدة على أولاده وقواده وجنوده وكتابه وعامة الناس . وأقام في وسطها الشارع الأعظم ،

(١) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٣٦٧ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٦٠ ـ الماحوز : الريحان .

الذي يبدأ من دار اشناس بالكرخ ويمتد ثلاثة فراسخ وكان عرضه مائتي ذراع وقامت أهم المباني على جانبيه[1].

تحدث الطبري عن سرعة بناء مدينة المتوكلية (الجعفرية) في منطقة الماحوزة فقال : « أمر المتوكل ببناء الماحوزة وسماها بالجعفري ، وأقطع القواد وأصحابه فيها، وجد في بنائها وتحول إلى المحمدية ، ليتم أمر الماحوزة ، وأمر بنقض القصر المختار والبديع وحمل ساجهما إلى الجعفري وأنفق عليها فيما قيل أكثر من ألفي ألف دينار ، وجمع فيها القراء فقرأوا وحضر أصحاب الملاهي فوهب لهم ألفي ألف درهم . وكان يسميها هو وأصحابه الخاصة بالمتوكلية وبنى فيها قصراً سماه لؤلؤة لم يُـرَ مثله في علوه ، وأمر بحفر نهر يأخذ رأسه خمسة فراسخ فوق الماحوزة من موضع يقال له كرمي يكون شرباً لما حولها من فوه النهر اليها ، وأمر بأخذ جبلنا والخصاصة العليا والسفلى وكرمي وحمل أهلها على بيع منازلهم وأرضهم فأجبروا على ذلك حتى تكون الأرض والمنازل في تلك القرى كلها له ويخرجهم عنها وقدر للنهر من النفقة مائتي ألف دينار وصير النفقة عليه إلى دليل بن يعقوب النصراني كاتب بغا في ذي الحجة من سنة ٢٤٥ هـ وألقى في حفر النهر اثني عشر ألف رجل يعملون فيه . فلم يزل دليل يعتمل فيه ويحمل المال بعد المال ويقسم عامته في الكتاب حتى قتل المتوكل فبطل النهر وأخربت الجعفرية ونقضت ولم يتم أمر النهر »[2] .

وفي أول المحرم سنة ٢٤٧ هـ ، انتقل المتوكل إلى قصره بالمتوكلية ومنح كل من ساهم في البناء مكافآت سخية ، ونقل إليها دواوين الدولة[3]. ولكن المتوكل لم يهنأ طويلاً بمدينته الجديدة فقد لقي حتفه ـ كما مر بنا ـ في قصر الجعفري في ٣ شوال سنة ٢٤٧ هـ . أي بعد تسعة شهور وثلاثة أيام[4] .

(١) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٦٦ وما بعدها ، الطبري : جـ ٧ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ٣٠ وما بعدها .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ .
(٣) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٦٧ .
(٤) الطبري جـ ٧ ص ٣٨٨ .

وفي ذلك يقول المسعودي « ثم قتل المتوكل .. ليلة الأربعاء لثلاث ساعات خلت من الليل ، وذلك لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين وقيل لأربع خلون من شوال سنة سبع وأربعين »[1].

وبعد مقتل المتوكل بويع لابنه المنتصر في المتوكلية ولكنه ما لبث أن تحول عنها ورأى العودة إلى سامراء وأمر الناس بهجر المتوكلية وهدم مبانيها ، وحمل أنقاضها إلى سامراء مما أدى إلى خراب مدينة المتوكل[2]. وفي رأينا أن مصير المتوكلية لم يكن صورة لحقد المنتصر على أبيه فحسب بل كان أيضاً صورة لحقد الأتراك على المتوكل .

كان المسجد الجامع أشهر أبنية مدينة المتوكلية (الجعفرية) ويسمى (جامع أبي دلف) نسبة إلى أبي دلف وهو القاسم بن عيسى بن ادريس وقد اشتهر بالكرم والشجاعة وقال عنه الشاعر علي بن جبلة[3]:

إنما الدنيا أبو دلف بين مغزاه ومحتضره
وإذا ولى أبو دلف ولّت الدنيا على أثره

كما قال هذا الشاعر أيضاً في كرم وشجاعة أبي دلف :

أنت الذي تنزل الأيام منزلها وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما مددن مدى طرف إلى أحد إلا قضيت بأرزاق وآجال

وقام جامع أبي دلف على نفس طراز المسجد الجامع في سامراء ، فهو مستطيل الشكل وله صحن مكشوف تحيطه الأروقة من الجهات الأربع ومئذنته ملوية أيضاً وأصبحت هاتان المئذنتان الملويتان نموذجاً احتذاه أحمد بن طولون في بناء جامعه بالقطائع بمصر . وأقام المتوكل جامعه بالآجر ، وزين أبواب الجامع بزخارف جصيّة[4].

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١١٨ .
(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٣٦٧ .
(٣) الأصفهاني : الأغاني جـ ٧ ص ٤٩ - ١٥٠ .
(٤) أحمد سوسة : ري سامراء جـ ١ ص ١٣٧ وما بعدها ، أرنولد : تراث الإسلام جـ ١ ص ١٣٥ .

وتبدو عظمة حركة البناء والتشييد في عهد المتوكل في فخامة قصوره ، وقد بلغ عددها تسعة عشر قصراً منها : الشاه ، العروس ، الشبداز ، البديع ، الغريب ، البُرج ، المختار ، الوحيد ، الجعفري ، الجوسق ، القلائد ، اللؤلؤة ، المليح والصبيح ، والمعشوق[1] .

وقصر الجعفري نسبة إلى جعفر المتوكل . وقد سمى المتوكل النهر الذي يشق عاصمته بنهر الجعفري . أما قصر العروس فهو الذي تمت فيه الاحتفالات حين عقد المتوكل البيعة بولاية العهد لأبنائه الثلاثة وقد قدم الناس إلى القصر للتهنئة والتأييد[2] . وكان قصر البرج من أفخر قصور المتوكل وفيه يعقد مجالس الندماء واللهو واهتم بتزيينه بالطرائف الفنية الغالية والرائعة ومنها شجرة من الذهب تنتشر الطيور عليها وهي مصنوعة من الجواهر الثمينة وتصدر أصواتاً موسيقية ،والجدران محلاة بالفسيفساء وبعضها من الرخام المذهب . وبالقصر بركة واسعة بلاطها من الفضة ،ولكن المتوكل ما لبث أن تشاءم من هذا القصر لاصابته فيه بالحمى فهجره وهدمه[3] . وكان قصر اللؤلؤة أكثر قصور مدينة المتوكلية ارتفاعاً وتكلف خمسة ملايين درهم[4] .

وبعد المتوكل أصبحت سامراء هي العاصمة ومقر دواوين الحكومة ، من سنة ٢٤٧ هـ وحتى ٢٧٩ هـ طوال عهود خمسة خلفاء هم : المنتصر (٢٤٧ هـ) والمستعين (٢٤٨ هـ)، المعتز (٢٥٢ هـ) والمهتدي (٢٥٥ هـ) والمعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) .

ولم تشهد سامراء خلال عهود هؤلاء الخلفاء الخمسة أي تقدم عمراني مشهود ، فقد ازداد نفوذ الأتراك وتصارعوا حول الاستبداد بالسلطة . وقد ترك المعتمد سامراء ليعود إلى بغداد العاصمة القديمة لمدة ستة شهور قبل وفاته . سنة ٢٧٩ هـ ثم عاد الخليفة المعتضد بالله نهائياً إلى بغداد ، فسارع الخراب

---

(١) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٩١ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ٢٠ وما بعدها .
(٢) الأصفهاني : الأغاني جـ ٩ ص ٣٠ـ٣١ .
(٣) الشابشتي : الديارات ص ١٠٣ .
(٤) ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ٢٢ .

إلى سامراء . وفي ذلك يقول ياقوت[1] : « إلى أن كان آخر من انتقل إلى بغداد من الخلفاء وأقام بها وترك سر من رأى بالكلية كان المعتضد بالله أمير المؤمنين وخربت حتى لم يبق منها إلا موضع المشهد ومحلة أخرى بعيدة منها يقال لها كرخ سامراء ، وسائر ذلك خراب يباب يستوحش الناظر اليها ».

وبذلك كان عهد المتوكل هو آخر العهود الذهبية لمدينة سامراء ، كما أنه يعتبر مؤسس مدينة جديدة وإن كان الخراب قد سارع إليها بعد وفاته، إلا أن ذلك كان نتيجة السياسة والحقد . ولكن المتوكل وفر لمدينته الجديدة كل أسباب العمران في وقت وجيز جداً ، إذ خصص الأموال الضخمة وجلب آلاف المهندسين والعمال والحرفيين ووفر موارد المياه ، وشيد مسجداً جامعاً عظيماً وقصوراً فخمة حفلت بوسائل الترف وبالفنون الجميلة التي تصور تقدم النقش والزخرفة ، فضلاً عن تطور هندسة البناء .

٢ ـ التطورات الاجتماعية في عهد المتوكل

بدأت التطورات الاجتماعية في عهد المتوكل في مدينة سامراء باعتبارها العاصمة السياسية والاجتماعية للدولة العباسية . أما باقي مدن العراق ، أو الولايات العباسية المختلفة ، فقد سارت فيها الحياة الاجتماعية سيرها المعتاد التقليدي . إذ ان فترة خلافة المتوكل وهي خمسة عشر عاماً لم تكن كافية لإحداث تطورات أو تغييرات اجتماعية جوهرية في المجتمع العباسي . ولكن التطورات الاجتماعية انحصرت في العاصمة العباسية متأثرة بوجود الخليفة ووزرائه وقواده وحاشيته ورجال الدولة وعامة الناس المتصلين بالخليفة وحكومته وجيشه .

كان عصر المتوكل عصر رخاء اقتصادي ونشاط اجتماعي وكان ميالاً إلى اللهو والهزل . وقلدته الرعية ، فلا غرو أن الناس على دين ملوكهم ، فقال المسعودي[2]: « وكانت أيام المتوكل أحسن أيام وأنضرها من استقامة الملك

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٩ .
(٢) مروج الذهب جـ ٤ ص ٨٦ .

وشمول الناس بالأمن والعدل ولم يكن المتوكل ممن يوصف في عطائه وبذله بالجود ولا بتركه وإمساكه بالبخل ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل مما قد استفاض في الناس تركه ، إلا المتوكل ، فإنه السابق إلى ذلك والمحدث له ، وأحدث أشياء فاتبعه فيها الأغلب من خواصه وأكثر رعيته ،فلم يكن في وزرائه والمتقدمين من كتابه وقواده ممن يوصف بجود ولا أفضال أو يتعالى عن مجون وطرب » .

وكان عصر المتوكل عصر رخاء اجتماعي وهدوء نفسي حافل بالترف والرفاهية إذ فرغ الناس من مشاكلهم المادية ليعيشوا في أماني الحب وأحلام الشباب ، فقال المسعودي[1] : « وكانت أيام المتوكل في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها ، أيام سراء لا ضراء ، كما قال بعضهم : كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ، ورخص السعر ، وأماني الحب وأيام الشباب ، وقد أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

قربك أشهى موقعاً عندنا من لين السعر وأمن السبيل
ومن ليالي الحب موصولة بطيب أيام الشباب الجميل » .

أقام المعتصم مدينة سامراء نتيجة ظروف سياسية تولدت بعد سياسته في الاعتماد على الأتراك ، لكن المعتصم اهتم في نفس الوقت بإقامة مدينته الجديدة على أسس عمرانية وحضارية . وكما تدخل الخليفة أبو جعفر المنصور ، في أول الأمر ، في اختيار وتحديد عناصر سكان بغداد . فقد اهتم المعتصم أيضاً باختيار سكان حاضرته سامراء . فقد خصص أحياء خاصة للأتراك بحيث يعيشون فيها في عزلة عن سائر الأهالي ومنع اختلاطهم بالمولدين حتى انه اشترى لهم الجواري ليتزوجوا بهن وخصص للزوجات رواتب من بيت المال . حتى يمنع المعتصم تزاوج هؤلاء الأتراك مع العناصر الأخرى للسكان[2] .

---

(١) مروج الذهب جـ ٤ ص ١٢٢ .
(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٥٨ وما بعدها .

وكان لسياسة المعتصم في الاعتماد على الأتراك أثرها في نوعية الحياة الاجتماعية ، فالترك آنذاك شعب بدوي ميزته الوحيدة شجاعته العسكرية . فهو لا يفهم الأسس المعنوية والاجتماعية التي قامت عليها الدولة العباسية ولا خبرة له بالإدارة بل هو مجرد من كل ثقافة(١) .

وقد دخلت السرايا التركيات البيوت العربية وقصور الخلفاء في وقت مبكر . فكانت أم الخليفة الأموي يزيد بن الوليد تركية وكانت أمهات الخلفاء العباسيين المعتصم والمكتفي والمقتدر من أصل تركي(٢) . وأعجب العرب بالسرايا التركيات وأنهن ـ على حد تعبير ابن بطلان ـ قد جمعن الحسن والبياض ووجوههن مائلة إلى الجهامة وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة . وقد يوجد فيهن السمراء الأسيلة وقدودهن ما بين الربع والقصر والطول فيهن قليل ومليحتهن غاية وقبيحتهن آية وهن كنوز الأولاد ومعادن النسل قلما يتفق في أولادهن وحشي ولا رديء التركيب فيهن نظافة ولياقة ولا يكاد يوجد فيهن نكهة متغيرة وفيهن أخلاق سمحة وقلة وفاء(٣) .

واشتهر الأتراك بالصفات العسكرية وقد كتب الجاحظ رسالة في مدحهم فوصفهم بأنهم أشجع من الخوارج لأن الخصال التي فضل بها الخارجي على جميع المقاتلة غير تامة في الخارجي وتامة في التركي . والتركي يرى مدبراً ومقبلاً وجلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على الأرض . والترك أعراب العجم ، لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ولا الطب ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصبر وركوب الخيل ومقارعة الأبطال وتدويخ الولدان(٤) .

اشتهر الأتراك بقوة البأس والجرأة والشجاعة ، والإقدام(٥) . وقال عنهم القاضي صاعد الأندلسي(٦) أنهم من الأمم التي لم تعن بالعلوم كثيرة العدد

---

(١) الدوري : العصر العباسي الأول ص ١٣٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ص ٣٥-٣٦ .

(٤) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٢٣١ .

(٥) الاصطخري : مسالك الممالك ص ١٢٧ .

(٦) طبقات الأمم ص ٨٠٧ .

فخمة الممالك وفضيلتهم التي برعوا فيها وأحرزوا خصلتها معاناة الحروب فهم أحذق الناس بالفروسية وأبصرهم بالطعن والضرب والرماية. ويذكر الجاحظ[1] أن الأتراك أصبحوا في الدولة العباسية مادة الإسلام وللخلفاء وقاية وموئلاً وجنة حصينة وشعاراً دون الدثار.

ومنذ عهد المعتصم بدأ الوضع السياسي والاجتماعي في الدولة العباسية يصطبغ بالصبغة التركية بعد أن كانت الأحداث تتصل بأعلام الفرس كأبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني والبرامكة وبني سهل، أصبحت الأحداث مرتبطة بأشناس وإيتاخ في سامراء والمتوكلية وبغا الكبير وبغا الصغير وأمثالهم من الأتراك حيث كانوا القابضين على زمام الدولة[2].

وبعد أن استبد الأتراك بالسلطة في السياسة والإدارة والجيش، أرادوا أن يعيشوا حياة اجتماعية تتصف بالترف والرفاهية فحازوا كثيراً من الاقطاعيات واهتموا بجمع الثروات وامتلكوا الجواري والعبيد وعاشوا في قصور فخمة واهتموا بملابسهم وطعامهم ومواكبهم وبدأوا يفقدون شيئاً من بداوتهم الأولى. وأثرت البيئة الجديدة في سامراء والمتوكلية في أخلاقهم وطباعهم.

وزاد من اعتماد المعتصم على الأتراك مواجهته حركة من أخطر حركات الزنادقة وهي حركة بابك الخرمي التي انضم إليها آلاف من الزنادقة الفرس في الأطراف الشرقية من الدولة. كما واجه تعصب الجند الفرس لابن أخيه العباس بن المأمون. ولذا قرب إليه الافشين وأشناس. وقدم المسعودي[3] صورة اجتماعية من عهد المعتصم توضح تملقه للأتراك. فقال: «وتوج - المعتصم - الافشين بتاج من الذهب مرصع بالجوهر وإكليل ليس فيه من الجوهر إلا الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر قد شبك بالذهب وألبس وشاحين. وزوج المعتصم الحسن بن الافشين بأترجة بنت أشناس وزفت إليه

---

(1) الجاحظ: مناقب الترك ص ٢٩٢.
(2) أحمد أمين: ظهر الإسلام ص ٦.
(3) مروج الذهب جـ ٤ ص ٥٩.

وأقيم لها عرس يجاوز المقدار في البهاء والجمال وكانت توصف بالجمال والكمال ولما كان من ليلة الزفاف ما عم سروره خواص الناس وكثيراً من عوامهم قال المعتصم أبياتاً يصف حسنهما وجمالهما واجتماعهما ، وهي :

زفت عروس إلى عروس بنت رئيس إلى رئيس
أيهما كان ليت شعري أجل في الصدر والنفوس
أصاحب المرهف المحلى أم ذي الوشاحين والشموس »

لم يكن الأتراك هم وحدهم من سكنوا سامراء ، فقد كانت في عصر المتوكل أحياء خاصة بالفراغنة والأشروسية ومناطق خراسان ذات شوارع متسعة ودروب طويلة . كما كانت هناك أحياء خاصة بالقواد العرب والقواد الخراسانيين من أهالي أصبهان وقزوين وقم وأذربيجان والجبل . ثم هناك أحياء للمغاربة ، وأشهرها حي الازلاخ[1] . وكانت هذه العناصر تبغض الأتراك ورأت أن تتناسى ما بينها من بغضاء شعوبية لتتحالف في مواجهة الأتراك الذين أصبحوا أصحاب السلطة والنفوذ . بل إنهم وضعوا بعض الأحاديث النبوية التي تحذر من خطر الأتراك على العرب مثل الحديث المنسوب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام الذي يقول فيه : « الترك أول من يسلب أمتي ما خولوا ولا تقوم الساعة حتى يجيء قوم عراض الوجوه صغار الأعين فطس الأنوف حتى يربطوا خيولهم بشواطىء دجلة »[2] .

حاول المتوكل الوقوف في وجه ازدياد النفوذ التركي فهو يقتل (إيتاخ) ، وبذلك يخالف المتوكل سياسة سلفيه المعتصم والواثق . ويصور الطبري[3] سياسة الخلفاء الثلاثة فيقول : « وكان لإيتاخ رجلة وبأس فرفعه المعتصم ومن بعده الواثق حتى ضم إليه من أعمال السلطان أعمالاً كثيرة وولاه المعتصم معونة سامراء . . وكان من أراد المعتصم أو الواثق قتله فعند إيتاخ يقتل . . . فلما ولي المتوكل كان إيتاخ في مرتبته ، إليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد

(١) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان (مادة ترك) جـ ٢ ص ٢٣ .
(٣) الطبري جـ ٧ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ .

والحجابة ودار الخلافة . . » ورأى المتوكل الخلاص من هذا الطاغية .

ورأينا المتوكل يغادر سامراء التركية إلى دمشق العربية محاولاً نقل العاصمة والعودة إلى الاعتماد على العنصر العربي . ويحاول المتوكل جاهداً التخفيف من سيطرة الترك وربقتهم . والتحرر من تلك الصبغة الاجتماعية التركية التي سادت سامراء . فنراه ـ مثلاً ـ يعيد الاحتفال بعيد النيروز الفارسي في سنة ٢٤٥ هـ ، وفي ذلك يقول الشاعر البحتري الطائي :

إن يـوم النيروز عـاد إلى العهـ ـد الـذي كـان سنّـه أردشيـر[١]

وبعد مصرع المتوكل أنشد البحتري قصيدته السينية المشهورة وفيها يتحسر على أمجاد الفرس ويقارن بين الفارسي الذي اعتاد الرفه والنعمة وتمرس في السلطة والتركي حديث النعمة الذي لم يسبق له أن حكم شعباً وعرف نظام الدولة[٢] .

وامتلأت سامراء والمتوكلية في عهد المتوكل بآلاف من الرقيق ، من كل جنس ولون . وأقبل الناس في عهد المتوكل على شراء الجواري تشبهاً بالخليفة ، فقد كان للمتوكل أربعة آلاف سرية وطئهن كلهن[٣] . وامتلك المتوكل عدداً ضخماً من الغلمان كانوا يتولون حراسة قصره بالتناوب . كما قام بعضهم بالخدمة في مجالس لهوه ، وكان أشهر هؤلاء الخدم هم شفيع وفرج الصغير ومؤنس وأبو عيسى مارد[٤] .

وزاد عدد الجواري الروميات نتيجة الصدام العسكري بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية في عهد الخليفة المتوكل كما رأينا في الفصل الأخير من الباب

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٨٧ .
(٢) ديوان البحتري ص ٢١٥ .
(٣) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٢٢ .
(٤) الطبري : جـ ٧ ص ٣٩٤ .

الأول من هذا البحث[١] . وكان في سامراء سوق للرقيق فيها طرق متشعبة وعدة حوانيت لبيع الرقيق[٢] .

ولنترك عناصر سكان سامراء لنقوم بجولة قصيرة في هذه العاصمة حفلت سامراء بالقصور والدور التي تثبت التقدم الهندسي ، والتطور الفني ، مما يدل على ارتفاع مستوى المعيشة ورقي التذوق الفني . ومعظم بيوت سامراء من طابع واحد ، بداخلها نافورة ، تفتح عليها الأبواب والغرف ويضم البيت عدة قاعات داخلية وقد زينت الجدران بزخارف فنية ملونة وصُنعت السقوف من الجص أو الفسيفساء أو الفضة حسب درجة الثراء[٣] . وكان للدار بابان يتصلان بها بدهليز وتحاط بعض الدور بحدائق أو بساتين ، والدار مفروشة بالسجاد والبسط والحصر والطنافس والمطارح . وتزين الجدران بالستائر الحريرية المزركشة ، ويستخدم أهل الدار مراوح الخيش لتخفيف درجة الحرارة في الصيف[٤] .

ابتكر المتوكل طرازاً جديداً في البناء يسمى (الحيري) شاع بين الناس ، ويتألف من مقدمة وثلاثة أجزاء وسطها الباب الأكبر وإلى جانبه البابان الصغيران ويسميان « الكمين » . وبنى المتوكل في قصوره ثلاثة أبواب ضخمة كان الفارس يدخل منها حاملاً رمحه[٥] .

وامتد ابتكار المتوكل إلى الأزياء والملابس وقلده الناس في ثيابه ، فيقول المسعودي[٦] : « وأظهر ـ المتوكل ـ لباس ثياب الملحمة وفضل ذلك على سائر الثياب واتبعه من في داره على لبس ذلك وشمل الناس لبسه وبالغوا في ثمنه اهتماماً بعمله ، واصطنع الجيد منها لمبالغة الناس فيها ، وميل الراعي والرعية

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٧٦ .
(٢) ميتز: الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٢٢٨ .
(٣) دائرة المعارف الإسلامية (مادة سامراء جـ ١١ ص ٨٦ ـ ٨٨) .
(٤) الدمشقي : محاسن التجارة ص ١٦ .
(٥) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٥٤ .
(٦) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٨٦ .

إليها ، فالباقي في أيدي الناس إلى هذه الغاية من تلك الثياب يعرف بالمتوكلية وهي نوع من ثياب الملحم نهاية في الحسن والصبغ ، وجودة الصنع » .

واختلفت الأزياء في سامراء باختلاف درجة الثراء ، ونوعية العمل والحرفة . فكان الأثرياء يرتدون سروالاً فضفاضاً وقميصاً ودراعة وسترة وقفطاناً وقباء وقلنسوة وعباءة وجبة . وكان الخليفة يرتدي في المواكب القباء الأسود أو البنفسجي الذي يصل إلى الركبة ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجوهر ويتشح بعباءة سوداء ، ويضع على رأسه قلنسوة طويلة . ويحتذي كبار الشخصيات حذو الخلفاء في أزيائهم[1] . ويلبس الكتاب الدراعات وهي ثياب مشقوقة من الصدر ، ويلبس القواد الأقبية الفارسية القصيرة . أما الشعراء فيلبسون الوشي والأردية السوداء . ويرتدي القضاة الطيلسان والقلانس العظام . وتختلف العمامة باختلاف العمر والمهنة ودرجتي الثراء والعلم[2] .

أما المرأة ، فكانت ملابسها تتألف من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة ، عليه رداء قصير ضيق ، يلبس عادة عند اشتداد البرودة . وحين تغادر المرأة بيتها تضع ملاءة طويلة تغطي كل جسمها وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة وقد حلي الغطاء بسلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر الثمينة وحرصت المرأة على التزين بالخلاخل في رجليها وبالأساور في معصميها وزنديها[3] .

وازداد إقبال الناس على الشراب ومجالس اللهو والمجون في عهد المتوكل تشبهاً بالخليفة . وقد قدم المسعودي[4] صورة اجتماعية لمجلس من مجالس المتوكل في مدينته الجديدة الجعفرية ، فقال : « وحكي عن الفتح بن خاقان قال : كنت عند المتوكل وقد عزم على الصبوح[5] بالجعفري[6] ، وقد

---

(١) ميتز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ١٦٧ .
(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ٤٤٢-٤٤٣ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٩٩ .
(٥) الصبوح : أي عقد مجلس شراب في الصباح .
(٦) الجعفري : أي مدينة المتوكلية المعروفة بالجعفرية أو الجعفري .

وجه خلف الندماء والمغنين قال : فجعلنا نطوف وهو ـ أي المتوكل ـ متكىء علي وأنا أحادثه حتى وصلنا إلى موضع نشرف منه على الخليج ، فدعا بكرسي فقعد عليه وأقبل يحادثني ، إذ بصر بسفينة مشدودة بالقرب من شاطىء الخليج ، وملاح بين يديه قدر كبيرة يطبخ فيها سكباج من لحم بقر ، وقد فاحت روائحها ، فقال : يا فتح رائحة قدر سكباج والله ويحك أما ترى ما أطيب رائحتها ، عليّ بها على حالها . فبادر الفراشون فانتزعوها من بين يدي الملاحين ، فلما عاين الملاحون أصحاب السفينة ما فعل بهم ذهبت نفوسهم فرقاً وخوفاً وجاءوا المتوكل بالقدر تفور كهيئتها ، فوضعت بين أيدينا فاستطاب ريحها واستحسن لونها ، ودعا برغيف فكسر منه كسرة ودفعها إلي وأخذ هو منه مثلها وأكل كل واحد منا ثلاث لقم . وأقبل الندماء والمغنون فجعل يلقم كل واحد منهم لقمة من القدر . وأقبل الطعام ووضعت الموائد ، فلما فرغ من أكله أمر بتلك القدر ، ففرغت وغسلت بين يديه وأمر أن تملأ دراهم ، فجيء ببدرة ففرغت فيها ، ففضل من الدراهم مقدار ألفي درهم ، فقال لخادم كان بين يديه : خذ هذه القدر فامض بها حتى تدفعها لأصحاب السفينة ، وقل لهم : هذا ثمن ما أكلناه من قدركم ، وادفع إلى من طبخها ما فضل من هذه البدرة من الدراهم هبة له على تجويده طبخها . قال الفتح : فكان المتوكل كثيراً ما يقول إذا ذكر قدر الملاح : ما أكلت أحسن من سكباج أصحاب السفينة في ذلك اليوم » .

ويقدم المسعودي[1] صورة اجتماعية أخرى لمجلس من مجالس لهو المتوكل ، فيروي : « وذكر محمد بن أبي عون ، قال : حضرت مجلس المتوكل على الله في يوم نيروز ، وعنده محمد بن عبدالله بن طاهر[2] . وبين يديه الحسين بن الضحاك الخليع الشاعر ، فغمز المتوكل خادماً على رأسه حسن الصورة أن يسقي الحسين كأساً ويحييه بوردة عنبر ، ففعل ذلك ، ثم التفت المتوكل إلى الحسين فقال : قل فيه أبياتاً ، فأنشأ يقول :

---

(١) مروج الذهب جـ ٤ ص ١٢٣ .

(٢) يقول المسعودي (مروج الذهب جـ ٤ ص ١٧٢) عن محمد بن عبدالله بن طاهر : « وكان من الجود والكرم وغزارة الأدب وكثرة الحفظ وحسن الإشارة وفصاحة اللسان وملوكية المجالسة على ما لم يكن عليه أحد من نظرائه في عصره » .

وكـالـدرة البيضـاء حيّا بعنبـر ... من الورد يسعى في قراطِقَ .كالورد
لـه عبثات عنـد كـل تحيـة ... بعينيه تستدعي الخليَّ إلى الوجد
تمنيت أن أُسْقَى بكفيه شربة ... تذكرني ما قد نسيت من العهد
سقى الله دهراً لم أبِتْ فيه ساعة ... من الليل إلا من حبيب على وعد

قال المتوكل : أحسن والله ، يعطى لكل بيت مائة دينار . فقال محمد بن عبدالله : ولقد أجاب فأسرع وذكر فأوجع ولولا أن يد أمير المؤمنين لا تطاولها يد لأجزلت له العطاء ولو بالطارف والتالد . فقال المتوكل عند ذلك : يعطى لكل بيت ألف دينار » .

ومن أشهر النساء في عصر المتوكل ، قبيحة أم ولده المعتز ، وقد سميت بذلك لحسنها وجمالها ، كما كان يسمى الأسود كافوراً[1] . وقد أثرت على زوجها المتوكل فجعلته يعامل ابنه المنتصر معاملة جافة . وكان المتوكل قد عهد لأولاده الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد بولاية العهد . ويسمي الطبري[2] المعتز دائماً بأبي عبدالله بن قبيحة . ويذكر الطبري أيضاً أن قبيحة كانت دائماً تحرض المتوكل على تقديم ابنها المعتز على أخيه المنتصر ، وقد كان مولد المعتز قبل أخيه بيوم واحد[3] .

وكانت قبيحة تستميل زوجها المتوكل برقتها وأنوثتها ومجاملتها له ، حتى انها كانت تحرص على تقديم الهدايا الرمزية له في شتى المناسبات . لتثبت له حبها له ، واهتمامها به . وكانت آخر هداياها له ليلة مصرعه ، وقد صور الشاعر البحتري تلك الليلة فقال : « . . . أقبل خادم من خدم قبيحة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها إليه قبيحة ، فقال له الرسول : يا أمير المؤمنين ، تقول لك قبيحة : إني استعملت هذه الخلعة لأمير المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها . قال البحتري : فإذا فيه دراعة حمراء لم أر مثلها قط ، مُطْرَفُ خز

(١) علي إبراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب ص ٩٣ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٥٨ .
(٣) الطبري جـ ٧ ص ٣٩٠ .

أحمر كأنه ديبقي من رقته . فلبس ـ المتوكل ـ الخلعة والتحف بالمطرف . قال البحتري : فتصيدت لأبدره ببادرة تكون سبباً لأخذ المطرف فجذبه جذبة فخرقه من طرفه إلى طرفه . قال البحتري : فأخذه ولفه ودفعه إلى خادم قبيحة الذي جاءه بالخلعة ، وقال : قل لها احتفظي بهذا المطرف عندك ليكون كفناً لي عند وفاتي . فقلت في نفسي : إنا لله وإنا إليه راجعون ، انقضت والله المدة »[1] .

واشتهرت قبيحة بالثراء الواسع حتى بلغت ثروتها في أواخر حياتها مليوناً وثمانمائة ألف دينار[2] .

ومن الجواري المغنيات في عصر المتوكل : محبوبة ، وفضل الشاعرة ، ونخلة وشجرة الدر وراجز وبنان الشاعرة[3] .

أما محبوبة فقال عنها المسعودي[4] : « لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله أهدى إليه الناس على أقدارهم ، وأهدى إليه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف ، وفي الهدية جارية يقال لها محبوبة كانت لرجل من أهل الطائف قد أدبها وثقفها وعلمها من صنوف العلم وكانت تقول الشعر وتلحنه وتغني به على العود . وكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس فحسن موقعها من المتوكل وحلت من قلبه محلاً جليلاً لم يكن أحد يعدلها عنده » .

وظلت محبوبة ، بعد مصرع المتوكل على اخلاصها وولائها له ، فيروي المسعودي[5] : « فلما قتل المتوكل ضمت محبوبة وكثير من الوصائف إلى بغا الكبير فدخلت عليه يوماً للمنادمة فأمر بهتك الستارة وأمر بالقينات فأقبلن يرفلن في الحلي والحلل وأقبلت محبوبة خاسرة من الحلي والحلل عليها بياض فجلست مطرقة منكسة ، فقال لها وصيف : غني . فاعتلت عليه . فقال :

---

(1) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٢٠ .
(2) ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ٧٠ .
(3) الجاحظ : المحاسن والأضداد ص ١١٨ ، الأصفهاني : الأغاني جـ ١١ ص ١١٤ .
(4) مروج الذهب جـ ٤ ص ١٢٤ - ١٢٥ .
(5) مروج الذهب جـ ٧ ص ١٢٦ .

أقسمت عليك ، وأمر بالعود فوضع في حجرها . فلما لم تجد بداً من القول تركت العود في حجرها ، ثم غنت عليه غناء مرتجلاً :

أي عيش يلذ لي لا أرى فيه جعفرا
ملك قد رأيته في نجيع مُعفّرا
كل من كان ذا خبال وسقم فقد برا
غير محبوبة التي لو ترى الموت يُشترى
لاشترته بما حوته يداها لِتُقبرا

فغضب عليها وصيف وأمر بسجنها ، فسجنت وكان آخر العهد بها » .

وعندما تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢ هـ كان اسحاق الموصلي ، المغني النديم قد جاوز الثمانين من عمره . وقد سأل المتوكل عنه قبيل وفاته بقليل فعلم أنه قد كف بصره وأنه ملازم داره . فاستدعاه . فلما دخل عليه أجلسه أمام السرير وأعطاه وسادة وقال له : « بلغني أن المعتصم دفع اليك مخدة يوم جلست بين يديه وهو خليفة » . ثم سأله : هل أكل ؟ قال : نعم . فأمر أن يسقى . فلما شرب ، قال المتوكل : هاتوا لأبي محمود عوداً . وأمسك اسحاق بالعود واندفع يغني :

ما علة الشيخ عيناه بأربعة[1] تغرورقان بدمع ثم تنسكب

ثم صحب المتوكل اسحاق الموصلي إلى الرقة ، وكان يستطيبها لاعتدال جوها وجمال الطبيعة بها وكثرة تغريد الطيور فيها . وأثار هذا التغريد كوامن اسحاق فغنى :

أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى على غُصُنٍ غض الشباب من الرند
بكيت كما يبكي الحزين صبابة وشوقاً وتابعت الحنين إلى نجد[2]

وأبدى المتوكل سروراً عظيماً ، وأمر لاسحق الموصلي بمائة ألف

(١) يقال عيناه تدمعان بأربعة أي تسيلان بأربعة آماق وهو أشد البكاء .
(٢) الأصفهاني : الأغاني جـ ١١ ص ١٥٥ .

درهم ، وأذن له بالانصراف ، فقد أدرك المتوكل أن الموصلي لا يستطيع الابتعاد عن بغداد طويلاً والإقامة في الرقة بعيداً عن الوطن والأهل . وكان هذا آخر العهد بغناء اسحاق النديم(١) .

٣ ـ موقف المتوكل من أهل الذمة

الذمة في اللغة العهد والأمان والضمان ، وأهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الإسلام من غير المسلمين ، وسموا بهذا الاسم لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، وأصبحوا في ذمة المسلمين(٢) .

واختلف موقف الدولة العباسية من أهل الذمة باختلاف الخلفاء وسياساتهم ونزعاتهم ، وبموقف أهل الذمة أنفسهم من الدولة ومدى احترامهم للنظم الموضوعة لهم ومدى تطبيقهم لها . كما تأثر الموقف أيضاً بالعلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية . وقد كان للخليفة المتوكل موقف خاص من أهل الذمة ، ندرسه في هذا الفصل .

اتبع الخلفاء العباسيون غالباً سياسة الخلفاء الراشدين والأمويين في معاملة أهل الذمة ، واعتمدوا على خبرتهم في الأعمال الإدارية والمالية ، فتولوا كثيراً من وظائف الدواوين ، وتقاطر الذميون على العاصمتين بغداد وسامراء للدخول في خدمة الدولة العباسية ، بأقلامهم وعقولهم بعد أن أطلق العباسيون لهم الحرية الدينية ، وأبدوا لهم التسامح الديني والاجتماعي والاقتصادي . وعاشوا في رفاهية ، وتمتعوا بهبات الخلفاء واحتفلوا بأعيادهم الدينية(٣) . ويذكر الشابشتي(٤) عدد الأديرة التي بنيت في العصر العباسي وهي لم تكن مقراً ومقصداً للرهبان ورجال الدين المسيحي فحسب ، بل أصبحت متنزهات

---

(١) دكتور محمود الحفني : إسحاق الموصلي ص ١٩٠ .
(٢) الخربوطلي : الإسلام وأهل الذمة ص ٦٥ .
(٣) الصابي : تاريخ الوزراء ص ٩٥ .
(٤) الشابشتي : الديارات ص ٩٠ وما بعدها .

يقصدها المسلمون في أعياد النصارى للمتعة والنزهة ، بل قصدها بعض الخلفاء أيضاً ، مثل هارون الرشيد[1] .

ورغم قلة عدد اليهود ، فقد تمتعوا في العصر العباسي بالتسامح الديني والحرية في نشاطهم الاقتصادي وكانوا يتبعون رئيسهم الروحي (رأس الجالوت) ويخضعون لنظمهم الدينية . وكان الواسطة بين الدولة وبين اليهود حين يؤدون الضرائب . وكان لليهود مستعمرة كبيرة في بغداد[2] . كما تمتع الصابئة أيضاً بالحرية الدينية وكانوا يرتدون ملابسهم الخاصة ويطلقون شعورهم[3] . وكان للمجوس - كاليهود والنصارى - رئيس يمثلهم في قصر الخلافة[4] ويلقب بالملك[5] ، ونعموا بالتسامح الديني حتى لا ينضموا إلى حركات الزنادقة[6] .

في عصر الخليفة أبي العباس أول الخلفاء العباسيين زاد ارتباط المسلمين بالمسيحيين حتى شارك المسلمون في إقامة الجثالقة وانتخاب المطارنة . وقد وقف الخليفة أبو العباس إلى جانب المسيحيين حين أرادوا إليه (ابان) التدخل في اختيار الجاثليق ، ومنح النصارى الحرية التامة في الانتخاب[7] .

وفي عهد الخليفة العباسي الثاني المنصور ارتفع شأن طبيبه جرجيس بن بختيشوع حتى أذن له بالدخول على حرمه وحظاياه[8] . وأدى ارتفاع شأن أهل الذمة إلى سخط جماعة من المسلمين فاجتمعوا إلى شبيب بن شيبة ، وسألوه مخاطبة المنصور « أن يدفع عنهم المظالم ولا يمكن النصارى من ظلمهم ، وعسفهم في ضياعهم »[9] .

---

(١) نزل الرشيد في دير مارزكي على ضفة البليخ (افرام برصوم : اللؤلؤ المنثور ص ٥١٠) .
(٢) المسعودي : التنبيه والإشراف ص ١١٣ .
(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٣٢٠ .
(٤) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٤٠ .
(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٤٩٣ .
(٦) مليحة رحمة الله : الحالة الاجتماعية في العراق ص ٤٥ .
(٧) رفائيل : أحوال نصارى بغداد ص ٤٥ .
(٨) القفطي : أخبار العلماء ص ١١٠ .
(٩) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ص ٢١٤ .

وعامل الخليفة العباسي الثالث محمد المهدي أهل الذمة معاملة طيبة مما أدى إلى ازدياد نفوذهم فغضب بعض المسلمين وشكوا لولي العهد موسى الهادي ، فنقل شكواهم إلى الخليفة المهدي ، فكتب المهدي إلى عماله : « لا تترك أحداً من الذمة يكتب لأحد من العمال »(١) . ولكن هذا الحدث كان طارئاً ولم يكن سياسة عامة ، فقد استمر المهدي في تسامحه مع أهل الذمة ، حتى أن جارية نصرانية من جواريه كانت تدخل عليه وفي صدرها صليب ذهبي(٢) . وكان للنصارى في عهد المهدي كثير من الأديرة في بغداد وضواحيها ، عددها المستشرق (لسترنج)(٣) .

أما الخليفة الرابع الهادي ، فقد كان يكرم الأساقفة ويجالسهم ، فكان يستدعي الأسقف (تيموتاوس) إليه ويحاوره في الدين كما سمح الهادي ببناء الكنائس والاحتفال بالأعياد . وتولى الذميون الوظائف العامة(٤) وولى إبراهيم ابن ذكوان الحارثي وهو صابئي ديوان الرسائل(٥) .

وفي عهد هارون الرشيد ارتفع شأن الطبيب جبرائيل بن بختيشوع حتى قال الرشيد : كل من كانت له حاجة إليّ فليخاطب بها جبريل لأني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني(٦) . وقد تولى أطباء الرشيد الإشراف على المستشفيات كما تولى يوحنا بن ماسويه الإشراف على المدارس كما قام بترجمة كتب الطب القديمة لمّا وجدها بأنقره وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون(٧) وكان النصارى في عهد الرشيد يخرجون في موكب حافل ، وبين أيديهم الصليب ويتقدمهم رؤساء دينهم(٨) . وترك الرشيد للنصارى حرية اختيار رؤسائهم

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٥ .
(٢) الطبري جـ ٦ ص ٢١٠ .
(٣) لسترنج : بغداد ص ١٨٠ وما بعدها .
(٤) المقريزي : السلوك جـ ٢ ص ١١٥ .
(٥) الطبري : جـ ٦ ص ٣٢٠ .
(٦) القفطي : إخبار العلماء ص ٩٥ .
(٧) محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ص ٤٣ القفطي : إخبار العلماء ص ٣٨٠ .
(٨) ابن العبري : مختصر تاريخ الدول ص ٢٣٩ .

وكان يغدق على هؤلاء الرؤساء الأموال والهدايا[1] .

ومما يوضح أثر تطور العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية في موقف الخلفاء العباسيين من أهل الذمة ما حدث في عصر هارون الرشيد ، فقد روى الطبري[2] في حوادث سنة ١٩١ هـ أن الروم أغاروا على ثغر مرعش وأصابوا من المسلمين ، فأمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور ، وكتب إلى السندي ابن شاهنك يأمره بأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم ويذكر ابن قيم الجوزية[3] أن هذا الإجراء كان سببه ما رآه الرشيد من معونة نصارى الثغور للروم . ويذكر ابن الأثير[4] أن اجراءات الرشيد كانت قاصرة على الثغور فقط حيث إن الروم قد قاموا بهجومهم بمعاونة النصارى على ثغور مرعش وطرطوس والمصيصة وانطاكية ، فأصابوا المسلمين ، وهدموا المساجد ، ورأى الرشيد إرضاء مشاعر المسلمين بهدم الكنائس أيضاً وإعادة بناء المساجد ، وفرض قيوداً على ملابس أهل الذمة . ويعلق المرحوم أحمد أمين[5] على موقف الرشيد فيقول : إن هذا الإجراء وأمثاله كان أثراً من آثار سوء العلاقة السياسية بين الدولة الإسلامية والمملكة البيزنطية ، ولا أثر فيه للتعاليم الدينية .

ونحن نرى أن هذا الحدث كان طارئاً ، نتيجة ظروف معينة ، ترتبت على الهجوم البيزنطي على الثغور . ولكن سياسة التسامح الديني كانت هي الدائمة والمتبعة . فيذكر المستشرق (فتال)[6] أن الرشيد قد سمح ببناء الكنائس والأديرة وكانت زوجته زبيدة (أم الأمين) قد ساعدت سرجيوس أسقف البصرة ليبني كنائس فيها ، وقد حصلت من زوجها الرشيد على هذا السماح للنساطرة ليعيدوابناء الصوامع الآيلة للسقوط . وكانت زبيدة تهدي للنساطرة وللكاثوليك

---

(١) ماري : أخبار بطاركة كرسي المشرق ص ١٢٩ .
(٢) الطبري جـ ٦ ص ٣٧٢.
(٣) ابن القيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ص ٤٨ .
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٢٠٦ .
(٥) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ١ ص ٣٦٢ .
(٦) Fattal: Le Statut. des Non Musulmans, P. 188.

الهدايا من الصلبان الذهبية والفضية .

ويعتبر المستشرق (فتال)[1] أيضاً أن عصر الأمين هو عصر ازدهار بالنسبة لبناء الكنائس والصوامع المسيحية كما كان عصر الأمين من أزهى عصور الصابئة[2] .

وشهد عصر الخليفة المأمون إصلاحاً واسعاً للكنائس والمعابد[3] . وبلغ عدد الكنائس التي شيدت في عهد المأمون أحد عشر ألف كنيسة ، إلى جانب مئات الهياكل اليهودية وبيوت النار المجوسية ، وارتفع شأن رجال الأديان[4] . واستعان المأمون بالعلماء من مختلف الأديان في حركة تدوين العلوم وفي الترجمة[5] . وكان يعمل في خدمة المأمون عندما قدم إلى مصر سنة ٢١٧ هـ فراشون من المسيحيين الملكانيين وقاموا بتجديد بناء كنيسة السيدة مريم على جبل المقطم . واشتهرت باسم (كنيسة الفراشين)[6] وفي عهد المأمون تحول كثير من الذميين إلى الإسلام ، عن اقتناع وقبول[7]. وقد ذكر المستشرق (ترتون)[8] عدة روايات وقصص تصور كلها التسامح الديني في عهد المأمون .

كما نعم الذميون بالتسامح الديني والاجتماعي والاقتصادي في عهد الخليفة المعتصم الذي قرب إليه العلماء والأطباء النصارى ومنهم طبيبه (سلمويه) الذي عاده المعتصم في مرضه الأخير ، حتى إذا مات شيع جنازته

---

(١) Fattal: Le Statut. des Non Musulmans, P. 189.

(٢) متز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٥٢ .

(٣) Fattal: P. 189.

(٤) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص ٢٣٦ .

(٥) كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ص ٤٣ ، رفاعي : عصر المأمون جـ ١ ص ٣٥٣ - ٣٥٩ .

(٦) ابن بطريق : التاريخ المجموع ص ٥٨ .

(٧) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٠٤ .

(٨) ترتون : أهل الذمة في الإسلام ص ١٢٥ .

من قصر الخلافة ، وامتنع عن الطعام في ذلك اليوم[1] . كما كان إبراهيم أخو سلمويه خازن بيوت الأموال[2] .

وصف الجاحظ[3] أحوال أهل الذمة فكان مما قال : أنهم نافسوا المسلمين في لباسهم وركوبهم وألقابهم وتسموا بالحسن والحسين والعباس ، واكتنوا بذلك . . وترك كثير منهم عقد الزنانير وامتنع كثير من كبرائهم عن إعطاء الجزية وأنفوا مع اقتدارهم دفعها . . واتخذوا البراذين الشهيرة ، والخيل العتاق . .

ويبدأ بعصر المتوكل ، عهد جديد متميز لأهل الذمة . ففي أحداث سنة ٢٣٥ هـ ، روى الطبري[4] : « وفي هذه السنة أمر المتوكل بأخذ النصارى وأهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وبتصيير كرتين على مؤخر السروج وبتصيير زرين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالف لونهما لون الثوب الظاهر الذي عليه وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره والأخرى منهما خلف ظهره وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع ولونهما عسلياً ، ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون العسلي ومن خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز إلا في إزار عسلي . وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزنانير ويمنعهم لبس المناطق .

« وأمر ـ المتوكل ـ بهدم بيعهم المحدثة وبأخذ العشر من منازلهم وإن كان الموضع واسعاً صير مسجداً ، وإن كان لا يصلح أن يكون مسجداً صير فضاء . وأمر المتوكل أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة تفريقاً بين منازلهم وبين منازل المسلمين . ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري أحكامهم فيها على المسلمين . ونهى أن يتعلم

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٤٠ .
(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء جـ ١ ص ١٦٥ .
(٣) رسائل الجاحظ : ص ١٨ .
(٤) الطبري جـ ٧ ص ٣٥٤ .

أولادهم في كتاتيب المسلمين ولا يعلمهم مسلم . ونهى أن يظهروا في شعانينهم صليباً وأن يشمعلوا في الطريق . وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين » .

وفي أحداث سنة ٢٣٩ هـ قال الطبري[١] : « أمر المتوكل بأخذ أهل الذمة بلبس دراعتين عسليتين على الأقبية والدراريع في المحرم منها ، ثم أمر في صفر بالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحمر ، دون الخيل والبراذين » .

كتب المتوكل بهذه الأوامر إلى عماله في سائر الولايات وحذرهم من العقوبة إذا خالفوا أوامره[٢] . وقد شمل هذا الإجراء اليهود أيضاً حيث لبسوا الغيار والعمائم الصفر . أما النساء فقد لبسن الأزر العسلية ، وأصبحت المرأة تلبس خفاً يختلف في لونه من الخف الآخر فيكون الواحد منهما أسود والآخر أبيض ، وتضع المرأة في عنقها طوقاً من حديد إذا دخلت الحمام[٣] .

علق ابن قيم الجوزية[٤]على معاملة المتوكل لأهل الذمة ، فقال : نرى أن الكنائس كانت منذ زمن عرضة للهدم وتبعاً لهوى الوالي ولا مشاحة أن يكون الخطر عليهم أعظم وأشد في أوقات الاضطرابات السياسية والغالب ـ وليس دوماً ـ أن الأمور تتوقف على طبيعة الحاكم خليفة كان أم والياً على أن الشيء الوحيد الذي لا يرقى اليه الشك هو أن القرن الأول الهجري لم يحرف قط شيئاً عن عهد عمر بن الخطاب ، ومنذ القرن الثاني تبلورت الفكرة القائلة : بأن تهدم جميع أماكن العبادة التي بنيت زمن الاسلام ثم ما لبثت هذه الفكرة أن أصبحت عامة فيما بعد .

حقيقة انفرد المتوكل ـ دون سائر الخلفاء السابقين ـ بالأمر بهدم الكنائس

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٧٢ .
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ٥٢ ، ابن خلدون : العبر جـ ٣ ص ٢٧٥ .
(٣) غنيمة : نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ص ١٢١ .
(٤) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ص ٥٢ .

والبيع ، حتى المستحدثة في الاسلام . فإن أوامر عمر بن عبد العزيز كانت تقضي بمنع إنشاء الكنائس والأديرة وعدم إصلاح ما تهدم منها .

وكان المتوكل أول خليفة عباسي يفرض على المسيحيين واليهود أن يرتدوا أزياء تختلف عن أزياء المسلمين[1]. ويعلق المؤرخ الهندي المسلم (صلاح الدين خودابخش)[2] على سياسة المتوكل نحو أهل الذمة ، فيقول : يجب ألا ننسى أن ذلك الخليفة هو الرجل الذي اعتدى على قبر الحسين وخالف أبرز تعاليم الاسلام ، فهل يمكن أن نعتبره نموذجاً لمعاملة قادة المسلمين ؟ فقد أدت أعماله الشيطانية الى اشتهاره بأنه رجل فاسد . وفيما يتعلق بهذا الموضوع يجدر بنا أن نتذكر أن المسلمين تعلموا من الشعوب المغلوبة كل ما استطاعوا أن يتعلموه عدا محاكاتهم في عاداتهم وملابسهم وان كان هناك بعض الخلفاء قد اقتبسوا بعض أزيائهم . وخير مثال على ذلك المأمون والمعتصم بالله .

ونحن نرى أن موقف المتوكل من أهل الذمة كان مرتبطاً بتطور العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية . وقد شهدنا في هذا الفصل الخليفة هارون الرشيد يغير من تسامحه نحو الذميين بعد الهجوم البيزنطي على الثغور الاسلامية بالشام رغم اشتهار الرشيد بالتسامح دائماً . وفي عهد المتوكل تكرر الصدام العسكري بين العباسيين والبيزنطيين .

ومن العوامل ايضاً ، رغبة البيزنطيين في تنصير الأسرى المسلمين فقد روى ابن كثير[3] أن أم الامبراطور البيزنطي عرضت على الأسرى المسلمين التنصر وكانوا نحواً من عشرين ألفاً ، فمن أجابها الى النصرانية منهم سلم وإلا قتلته ، وقد قتلت فعلاً اثني عشر ألفاً منهم .

ونذكر عاملاً ثالثاً ، هو موقف بعض الذميين من ولاتهم ، فقد تحدث

---

(١) الخربوطلي : الإسلام وأهل الذمة ص ١٤٤ .

(٢) خودابخش : الحضارة الإسلامية ص ١١٨ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٢٤ .

الطبري[1]عن شعب نصارى حمص ضمن أحداث سنة ٢٤٠هـ فقال: «ذكر أن أهل حمص وثبوا في جمادى الآخرة من هذه السنة بمحمد بن عبدويه عاملهم على المعونة ، وأعانهم على ذلك قوم من نصارى حمص فكتب بذلك الى المتوكل فكتب اليه يأمره بمناهضتهم وأمده بجند من راتبة دمشق مع صالح العباسي التركي وهو عامل دمشق ، وجند من جند الرملة فأمره أن يأخذ من رؤسائهم ثلاثة نفر فيضربهم بالسياط ضرب التلف ، فاذا ماتوا صلبهم على أبوابهم وأن يأخذ بعد ذلك من وجوههم عشرين إنساناً فيضربهم ثلثمائة سوط كل واحد منهم ويحملهم في الحديد الى باب أمير المؤمنين . وأن يخرب ما بها من الكنائس والبيع ، وأن يدخل البيعة التي الى جانب مسجدها في المسجد وأن لا يترك في المدينة نصرانياً إلا أخرجه منها وينادي فيهم قبل ذلك فمن وجده فيها بعد ثلاثة أحسن أدبه».

وكان المتوكل يغضب اذا عاد نصراني قد أسلم الى نصرانيته ، فروى الطبري[2] في أحداث سنة ٢٤٢ هـ : « وفيها قتل المتوكل عطاردا رجلاً كان نصرانياً فأسلم ، فمكث مسلماً سنين كثيرة ثم ارتد فاستتيب فأبى الرجوع الى الاسلام ، فضربت عنقه لليلتين خلتا من شوال ، وأحرق بباب العامة » .

ومن العوامل الثانوية ، عامل نفسي هو تحوله عن طبيبه بختيشوع بن جبريل . وكان هذا الطبيب يضاهي المتوكل في لباسه وفي امتلاك الجواري والعبيد . ولما دعاه الى قصره أحضر كل ما في بغداد من الخيش وطبه بالماء ليصير كل مكان يمر به الخليفة رطباً . وكان من عادة الطبيب أن يجلس في عربة من الابنوس ويخرج بها من قصره وبين يديه ألف من الرجال ، كما كان ينفق في كل ليلة خمسمائة دينار على الشموع والزيت والبخور[3].

ولا شك أن المتوكل قد شعر بالغيرة من بختيشوع ، فروى الخطيب

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٧٤ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٨٠ .
(٣) ترتون : أهل الذمة في الإسلام ص ١٧٠ - ١٧١ .

البغدادي[1] عن علي بن يحيى المنجم : « خرجنا مع المتوكل الى دمشق ، فلحقنا ضيعة ضيقة بسبب المؤ ن والنفقات التي كانت تلزمنا ، فبعثت إلى بختيشوع وكان لي صديقاً أسأله أن يقرضني عشرين ألف درهم، فأقرضنيها. فلما كان بعد يوم أو يومين دخلت مع الجلسات الى المتوكل ، فلما جلسنا بين يديه قال : يا علي لك عندي ذنب وهو عظيم . قلت : يا سيدي فما هو ، فإني لا أعرف لي ذنباً ولا خيانة ؟ قال : بلى ، أضقت فاستقرضت من بختيشوع عشرين الف درهم . أفلا أعلمتني ؟ قلت : يا مولاي صلات أمير المؤمنين عندي متواترة ، وأرزاقه وانزاله علي دارة ، واستحيت نعماً قد أنعم الله علينا به من هذا التفضل أن أسأله . قال : ولم ؟ إياك أن تستحي من مسئلتي أو الطلب مني ، وأن تعاود مثل ما كان منك . ثم قال : مائة ألف درهم بغير صروف . فاحضرت عشر بدر ، فقال : خذها واتسع بها ».

وفي سنة ٢٤٤ هـ ، قال الطبري :[2] « وفيها غضب المتوكل على بختيشوع ، وقبض ما له ، ونفاه الى البحرين ، فقال أعرابي :

يا سخطة جاءت على مقدار ثار له الليث على اقتدار
منه وبختيشوع في اغترار لما سعى بالسادة الاقمار
بالأمراء القادة الأبرار ولاة عهد السيد المختار
وبالموالي وبني الأحرار رمى به في موحش القفار
بساحل البحرين للصغار ».

وفي أحداث سنة ٢٤٥ هـ ، يقول الطبري[3] : « وفيها ضرب بختيشوع المتطبب مائة وخمسين مقرعة ، وأثقل بالحديد وحبس في المطبق في رجب » . ويذكر (ترتون)[4] أن بختيشوع خرج على تعاليم المسيحية فجمع في بيته بين امرأتين في وقت واحد .

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٥ ص ١٦٨ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٨٢ .
(٣) الطبري جـ ٧ ص ٣٨٧ .
(٤) أهل الذمة في الإسلام ص ١٨٣ .

ويذكر المستشرق (كاهن)[1] أن إجراءات المتوكل أو غيره من الخلفاء نحو أهل الذمة كان تطبيقها لفترة قصيرة الأمد ولا تطبق إلا في المراكز الاسلامية وفي العواصم ، ولم يكن التطبيق حرفياً كاملاً . أما في العصور العادية فكان وضع الذميين يقارب وضع المسلمين . كما أشاد المستشرق (جوتن)[2] بحسن معاملة المسلمين لليهود ، فكانت معاملة أفضل مما لقيه اليهود في اوروبا في العصور الوسطى إذ تمتعوا في العالم الاسلامي بالحرية الاجتماعية والاقتصادية مثل العرب ، فامتهنوا الزراعة والتجارة وسائر الحرف ، وقال آدم ميتز[3] : وتعايش اليهود والنصارى مع المسلمين مما خلق جواً من التسامح لم تعرفه اوروبا في العصور الوسطى ، وقد سمح الاسلام بالزواج من الكتابيات مما أدى الى ترابط المجتمع الواحد ، وانتشار السلام والمحبة والطمأنينة .

ورغم سياسة المتوكل هذه نحو أهل الذمة ، فقد استخدم بعض الذميين في بعض وظائف الدولة ، فقد تولى مالك بن الوليد النصراني أحد الدواوين ، كما أسند المتوكل ديوان الخاصة وبيت المال الى نصرانيين هما أبي الغفائي وأخيه ، كما كان (بنان) النصراني كاتباً لصاحب الديوان . كما كان من أبرز أطباء المتوكل حنين بن اسحق النصراني . ومن أشهر موظفي المتوكل المسيحيين دليل بن يعقوب النصراني[4] . وقد كان دليل هذا كاتباً لبغا، وقد تولى عملية حفر نهر الجعفري في مدينة المتوكلية الجديدة التي أسسها المتوكل سنة ٢٤٥هـ[5] .

٤ ـ الاتجاهات المالية والاقتصادية في عهد المتوكل

رغم قصر فترة خلافة المتوكل ، فهي نحو خمس عشرة سنة ، إلا أن هذا

(١) Cahen: Encycl. of Islam. P. 228.

(٢) Goitein: Jews and Arabs, P. 6 — 7.

(٣) ميتز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٢٥٠ .

(٤) ترتون : أهل الذمة في الإسلام ص ٢٠ .

(٥) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٦٦ .

العهد قد شهد تطورات مالية واقتصادية في الدولة العباسية ، وتغير في اتجاهات الإدارة المالية .

ومن أبرز أحداث عهد المتوكل مما يرتبط بالمال والاقتصاد ، كثرة المصادرات. وقد بدأ المتوكل عهده بمصادرة أموال وممتلكات وزيره محمد بن عبد الملك الزيات ، فيقول المسعودي[1] : « وقد كان سخط المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات بعد خلافته بأشهر ، فقبض أمواله وجميع ما كان له » . وشملت المصادرة أموال وممتلكات أسرة الوزير ، في بغداد وفي سامراء ، وقام راشد المغربي بالمصادرة في بغداد . فقال الطبري[2] في أحداث سنة ٢٣٣ هـ : « وذكر أن المتوكل وجه في هـذا اليوم من قبض ما في منزله من متاع ودواب وجوار وغلمان ، فصير ذلك كله في الهاروني ، ووجه راشداً المغربي الى بغداد في قبض ما هنالك من أموال وخدم ، وأمر أبا الوزير يقبض ضياعه وضياع أهل بيته حيث كانت ، فأما ما كان بسامرا فحمل الى خزائن مسرور . . . ووجدت له بيوت فيها أنواع التجارة من الحنطة والشعير والدقيق والحبوب والزيت والزبيب والتين وبيت مملوء ثوماً ، فكان جميع ما قبض له من قيمة ما وجد تسعين ألف دينار » .

واحياناً تكون المصادرة وسيلة إرهاب وتخويف ثم يصالح المتوكل من يصادر أموالهم على أن يؤدي للخليفة مبلغاً ضخماً من المال مقابل رد ضياعه اليه . فقد غضب المتوكل في سنة ٢٣٣ هـ على عمر بن فرج فصادر أمواله وضياعه ومتاعه ، وعذبه وسجنه واضطهد أسرته ، ثم صالحه على عشرة ملايين درهم مقابل رد ضياع الأهواز فقط ، دون سائر الأموال والضياع ، ووافق عمر بن فرج مقابل إطلاق سراحه والنجاة من السجن .

وتتضح التفاصيل في نص للطبري[3] يصور هذا الارهاب والاضطهاد ، حيث قال في أحداث سنة ٢٣٣ هـ : « وفيها غضب المتوكل على كاتبه عمر بن

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٨٨ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٤٥-٣٤٦ .
(٣) الطبري جـ ٧ ص ٣٤٧ .

فرج الرخجي ، وذلك في شهر رمضان فدفع الى اسحاق بن ابراهيم بن مصعب فحبس عنده وكتب في قبض ضياعه وأمواله وصار نجاح بن سلمة الى منزله فلم يجد فيه إلا خمسة عشر ألف درهم ، وحضر مسرور فقبض جواريه ، وقيد عمر ثلاثين رطلا ، وأحضر مولاه نصر من بغداد فحمل ثلاثين الف دينار ، وحمل نصر من مال نفسه أربعة عشر ألف دينار وأصيب له بالاهواز اربعون الف دينار . ولأخيه محمد بن فرج مائة الف دينار وخمسون ألف دينار . وحمل من داره من متاعه وفرشه على خمسين جملاً كرت مراراً ، وألبس جبة صوف وقيد ، فمكث بذلك سبعاً ، ثم أطلق عنه وقبض قصره وأخذ عياله ففتشوا ، وكن مائة جارية . ثم صولح على عشرة آلاف ألف درهم ، على أن يرد عليه ما حيز عنه من ضياع الاهواز فقط ونزعت عنه الجبة الصوف والقيد وذلك في شوال » .

تولى نجاح بن سلمة أمر المصادرة ، وهنا يظهر الحاقدون والحاسدون ، فقد حرضه الشاعر علي بن الجهم بن بدر على أن يمضي في انتزاع أموال عمر ابن فرج الرخجي ولو انتهت حياة عمر بالقتل ولم يجد الشاعر حرجاً في الاساءة الى قومه ، رجالاً ونساء ، فأنشد :[1]

أبلغ نجاحاً فتى الكتاب مألكة يمضي بها الريح إصداراً وإيرادا
لا يخرج المال عفواً من يدي عمر أو يغمد السيف في فوديه إغمادا
الرخجيون لا يوفون ما وعدوا والرخجيات لا يخلفن ميعادا

وفي نفس السنة اي سنة ٢٣٣ هـ « أمر المتوكل بابراهيم بن الجنيد النصراني ، أخي أيوب كاتب سمانة ، فضرب له بالاغمدة ، حتى أقر بسبعين ألف دينار ، فوجه معه مباركاً المغربي الى بغداد حتى استخرجها من منزله ، وجيء به فحبس »[2].

وكان المتوكل بعد تعذيبه لوزيره محمد بن عبد الملك الزيات حتى الموت ، قد « استكتب رجلاً من كتابه يقال له أبو الوزير من غير أن يسميه

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٤٧ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٤٧ .

بالوزارة ، فكتب له مدة يسيرة ، ثم نكبه ، وأخذ منه مائتي الف دينار واستوزر الجرجرائي »[1].

وحدثت هذه المصادرة الجديدة في نفس السنة ، اي سنة ٢٣٣ هـ ، وقد شهدت عدة مصادرات ، فيقول الطبري[2]: « وفيها غضب المتوكل على أبي الوزير في ذي الحجة ، وأمر بمحاسبته ، فحمل نحواً من ستين ألف دينار وحمل بِـدَرَ دراهم وحلياً ، وأخذ له من متاع مصر اثنين وستين سفطاً واثنين وثلاثين غلاماً وفرشاً كثيراً . وحبس بخيانته محمد بن عبد الملك ، أخو موسى ابن عبد الملك ، والهيثم بن خالد النصراني ، وابن اخيه سعدون بن علي . وصولح سعدون على أربعين ألف دينار ، وصولح ابنا اخيه عبد الله وأحمد على نيف وثلاثين ألف دينار ، وأخذت ضياعهم بذلك » .

وفي سنة ٢٣٧ هـ ، غضب المتوكل على أولاد أحمد بن أبي دؤاد ، وصادر أموالهم وكان ابن أبي دؤاد قد أصيب بالفالج وبذلك تنكر المتوكل لجميله . ولم يرحمه في شيخوخته ومرضه الأخير . فقد مر بنا كيف رشح أحمد ابن أبي دؤاد جعفر المتوكل للخلافة ، رغم اتجاه معظم الحاشية الى البيعة لمحمد بن الواثق بالخلافة . وقد كان ابن أبي دؤاد هو الذي ألبسه ثياب الخلافة والعمامة ، وكان أول من قال له : « السلام عليك يا أمير المؤمنين »[3].

غضب المتوكل على محمد بن أحمد بن أبي دؤاد المعروف بأبي الوليد ، وكان على مظالم سامراء ، فعزله . وامتد سخطه على سائر أبناء ابن أبي دؤاد ، فقال الطبري[4] في أحداث سنة ٢٣٧ هـ : « وفيها غضب المتوكل على ابن أبي دؤاد ، وأمر بالتوكيل على ضياع احمد بن أبي دؤاد لخمس بقين من صفر ،

---

(١) الفخري ص ٢١٦ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٤٨ .
(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٥ ص ١٦٥ .
(٤) الطبري جـ ٧ ص ٣٦٧-٣٦٨ ، المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٩٦ .

وحبس يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول ابنه ابو الوليد محمد بن احمد بن أبي دؤاد في ديوان الخراج ، وحبس اخوته عند عبيد الله بن السري خليفة صاحب الشرطة . فلما كان يوم الاثنين حمل ابو الوليد مائة الف دينار وعشرين ألف دينار ، وجواهر بقيمة عشرين ألف دينار ، ثم صولح بعد ذلك على ستة عشر ألف ألف درهم ، واشهد عليهم جميعاً ببيع كل ضيعة لهم . وكان أحمد بن أبي دؤاد قد فلج ، فلما كان يوم الأربعاء لسبع خلون من شعبان ، أمر المتوكل بولد احمد بن أبي دؤاد فحدروا الى بغداد » .

وكان المتوكل حينما عزل ابا الوليد محمد بن احمد بن أبي دؤاد قد ولى بدله يحيى بن اكثم ، فتولى المظالم ومنصب قاضي القضاة . واحتفظ بمنصبه حتى سنة ٢٤٠ هـ ، ثم عزله المتوكل « وقبض منه ما كان له ببغداد ، ومبلغه خمسة وسبعون الف دينار ومن اسطوانة في داره الفا دينار واربعة آلاف جريب بالبصرة »[١].

وقد مر بنا ذكر سخط المتوكل على طبيبه بختيشوع ومصادرة أمواله ، ثم نفيه الى البحرين ثم ضربه وسجنه حتى مات سنة ٢٤٥ هـ[٢].

إن هذه المصادرات لتدل على ما وصلت اليه الحال من فساد في الإدارة ، ومن فقد الأمانة عند موظفي الدولة . ولم تكن هناك وسيلة لاسترداد الأموال إلا بالمصادرة والحبس والتعذيب . وهذه المصادرات تدل على أن المصادرة لم تكن جزاء لخيانة وإنما أصبحت غرضاً لذاته ، أي طريقة للحصول على الأموال بتسلط الدولة على كبار الأفراد الذين يعرف عنهم الثراء . والى جانب ما في هذا العمل التعسفي من المجافاة للعدل ، فإنه في ذاته دليل على الارتباك المالي الذي وقعت فيه الدولة[٣].

وزاد الأمر سوءاً حينما بدأ المتوكل بناء مدينته الجديدة المتوكلية

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٧٣ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٨٧ .
(٣) الريس : الخراج في الدولة الإسلامية ص ٤٧٤ .

(الجعفرية) واحتاج الى أموال ضخمة لبناء هذه العاصمة ، فتقدم اليه كاتبه نجاح بن سلمة وكان يتولى ديوان التوقيع ومتابعة العمال ، يقترح على الخليفة أن يدفع اليه الحسن بن مخلد وكان يتولى ديوان الضياع وموسى بن عبد الملك وكان يتولى ديوان الخراج ليستخرج منهما أربعين مليون درهم بعد اتهـامهما بالخيانة والاهمال . وتقدم الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان الى الخليفة يحذره من تنفيذ نصيحة نجاح فيقول : « يا أمير المؤمنين ، أراد أن لا يدع كاتباً ولا قائداً ولا عاملاً إلا أوقع بهم ، فمن يقوم بالأعمال يا أمير المؤمنين ؟» .

ودارت الدائرة على نجاح ، فأمر المتوكل بضربه وتعذيبه وسجنه وصادر أمواله هو وابنه فبلغت نحواً من مائة واربعين ألف دينار سوى القصور والضياع في سامراء وبغداد[١] .

ويبدو أن الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان قد استفاد من التجارب فروى صاحب الفخري[٢] عنه : « قيل أن صاحب مصر حمل اليه مائتي ألف دينار وثلاثين سفطاً من الثياب المصرية ، فلما أحضرت بين يديه قال لوكيل صاحب مصر : لا والله لا أقبلها ولا أثقل عليه بذلك ثم فتح الاسفاط وأخذ منها منديلاً لطيفاً وضعه تحت فخذه ، وأمر بالمال فحمل الى خزانة الديوان » .

وبذلك لم تعد الدولة تأمن عمالها وكتاب دواوينها على أموالها . ولما لم يكن هناك سبيل إلى معرفة ما ينتهب من أموال فإنها لا تجد إلا أن تلجأ إلى إجراء المصادرة أو التغريم كلما أشارت الأدلة إلى وجود خيانة أو كانت هي بحاجة إلى أموال . وهذه الظاهرة ـ التي تدل على فساد الإدارة ـ هي إحدى العلامات المؤذنة بقرب الانهيار[٣] .

كان النيروز أول السنة الفارسية، وكان من أعظم الأعياد عند الفرس وقد جعلوه ميقاتاً للبدء في جباية الخراج . واستمر هذا النظام في العصر الإسلامي .

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٨٦ .
(٢) الفخري ص ٢١٦ .
(٣) الريس : الخراج في الدولة الإسلامية ص ٤٧٠ .

روى الطبري[1] في أحداث سنة ٢٤٥ هـ : « وكان نيروز المتوكل الذي أرفق أهل الخراج بتأخيره إياه عنهم فيها يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ولسبع عشرة ليلة خلت من حزيران . ولثمان وعشرين من ارديوهشت ماه » .

وأنشد الشاعر البحتري في هذه المناسبة مادحاً المتوكل[2] :

إن يوم النيروز قد عاد للعهـــ ـد الذي كان سنّه أردشيـر
أنت حولته إلى الحالة الأو لى وقد كان حائراً يستدير
فافتتحت الخراج فيه ، فللأ مة في ذاك مرفق مذكور
منهم الحمد والثناء ، ومنك العد ل فيهم والنائل المشكور

كان للفرس تقويمهم الخاص ، فكانت السنة عندهم ٣٦٠ يوماً ، كل شهر ثلاثون يوماً كاملة ، ويضيفون إليها خمسة أيام بين الشهرين الثامن والتاسع من سنتهم ، فيكون مجموع الأيام كل سنة ٣٦٥ يوماً . ولكن بما أن حقيقة السنة الشمسية $\frac{1}{4}$ ٣٦٥ يوم و $\frac{1}{5}$ ساعة ، فإنه يجتمع من ربع اليوم في كل ١٢٠ سنة شهر تام ومن $\frac{1}{5}$ الساعة في نفس المدة يوم واحد أي يكون المجموع ٣١ يوماً ، وهو في ١١٦ سنة ٣٠ يوماً فقط . فكان الفرس كلما مضت ١١٦ سنة يلحقون بها شهراً تاماً وتكون تلك السنة الأخيرة كبيسة ، فهي ثلاثة عشر شهراً . وبناء على ذلك كانوا كلما مضت هذه المدة يؤخرون النيروز عن وقته شهراً كاملاً . وكان أول السنة الفارسية يقع في زمن إدراك الغلات ، أي في وقت الانقلاب الصيفي في شهر يونيه من السنة الرومية أو حزيران من السنة السريانية ، فكلما تقدم الميعاد إلى أيار وهو مايو ، ردوه إلى يونيه[3] .

ثم أغفل هذا الكبس عند تدهور الدولة الفارسية واستمر الاغفال بعد سقوط الدولة والفتوحات الإسلامية حتى كان عهد ولاية خالد القسري في خلافة

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٨٧ .
(٢) البيروني : الآثار الباقية ص ٣٢ .
(٣) الريس : الخراج في الدولة الإسلامية ص ٤٨٩ .

هشام بن عبدالملك في الدولة الأموية ، فطلب كبار الملاك (الدهاقون) تأخير النيروز شهراً ، حيث أثر تقدمه بالفلاحين ، ورفض خالد القسري الاستجابة لهم إذ خشي أن يكون هذا التأخير من « النسيء » المنهي عنه . وفي عهد الخليفة العباسي الخامس هارون الرشيد طلب الفلاحون من الوزير يحيى بن خالد البرمكي تأخير النيروز نحو شهرين وأراد تحقيق طلبهم ولكنه عدل عن ذلك ، فقد اتهمه أعداؤه بالزندقة والتعصب للمجوسية الفارسية ، وظل الأمر على الأوضاع القديمة .

ثم تولى الخليفة المتوكل ، وبينما كان يتجول في بعض البساتين ، رأى الزرع لا يزال أخضر وكان وزيره عبيدالله بن يحيى بن خاقان قد استأذنه في جباية الخراج ، فأبدى المتوكل تعجبه فكيف يؤدي الفلاحون الخراج ولم ينضج الزرع ولم يتم الحصاد . وسأل المتوكل عن سياسة أكاسرة الفرس في الماضي فأخبروه بنظام الكبس الذي أهمل طوال العصور الإسلامية . فأمر المتوكل بالعودة إلى النظام الفارسي القديم في تحديد موعد النيروز ، وكان قد تقدم حتى صار في ابريل (نيسان) فتقرر تأخيره إلى ١٧ يونيو (حزيران) مما أدى إلى كثير من التيسير وإلى تحسين أحوال المزارعين . وأهمل خلفاؤه هذا النظام ، حتى تولى المعتضد الخلافة ، فأعاد موعد النيروز على ما كان عليه في عهد المتوكل ، مما يدل على حسن سياسته[١] .

ومن الاتجاهات المالية والاقتصادية في عهد المتوكل ، اتساع نظام التقبل أو الضمان ، حتى أصبح بعد ذلك هو النظام السائد وهو الذي أصبح يسمى نظام الالتزام . بالرغم من أن الفقهاء قد صرحوا بمخالفته لمبادىء الشريعة الإسلامية ، وحمل عليه أبو يوسف[٢] بشدة لأنه يؤدي إلى ظلم الفلاح[٣] .

---

(١) البيروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية ص ٣١ - ٣٣ .
المقريزي : الخطط جـ١ ص٢٧٣ وما بعدها .
الخضري : الدولة العباسية ص ٤٤٢ .

(٢) أبو يوسف : هو قاضي القضاة في عهد هارون الرشيد والتلميذ النابه للإمام أبي حنيفة وقد كلف الرشيد أبا يوسف بوضع كتاب الخراج الذي أصبح كدستور اقتصادي ومالي للدولة العباسية .

(٣) الريس : الخراج في الدولة الإسلامية ص ٤٨٥ .

وحينما سيطر الأتراك على الدولة أصبحوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال عدا الهدايا والطرف كما كان متبعاً في نظام الإقطاع الذي ساد أوروبا في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين)[1] .

على أن نظام الإقطاع أو الالتزام لم يخل من عيوب ، إذ ان المقطع أو الملتزم كان يعمل على الإثراء وجمع المال ، ولا يتردد في إرهاق الأهالي وإثقالهم بالضرائب المختلفة ، حتى يستطيع أن يؤدي إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ويحتفظ لنفسه بما زاد على ذلك. والأهالي في ذلك مغلوبون على أمرهم قلما تصل شكاياهم إلى السلطة المركزية ، فضلاً عما كان يسلكه معهم بعض الجباة من وسائل التعذيب[2]. فيروي الطبري[3] أن نجاح بن سلمة « كان على الضياع فكان جميع العمال يتقونه ويقضون حوائجه ولا يقدرون على منعه من شيء يريده » ، وخير ما يصور نظام القبالة أو الالتزام نص للمقريزي[4] هو : « كان متولي خراج مصر يجلس في جامع عمرو بن العاص في الفسطاط ، في الوقت الذي تتهيأ فيه قبالة الأراضي[5] ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن . فيقول رجل ينادي على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما ينتهي إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس . وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من تقبل أرضاً وضمنها إلى ناحيته فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها . ويحمل ما عليه من الخراج في إبانه على أقساط . ويحسب له من مبلغ قبالته

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ٢٩٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الطبري جـ ٧ ص ٣٨٤ .

(٤) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٨٢ .

(٥) التقبل : وهو أن يجعل شخص قبيلاً أي كفيلاً بتحصيل الخراج وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه وهو ما عرف فيما بعد بنظام الالتزام فيستفيد السلطان تعجيل المال ويستفيد المتقبل الفرق بين ما دفعه وما حصله (الخضري : الدولة العباسية ص ١٩٩) .

وضمانة لتلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها ، بضرابة مقدرة في ديوان الخراج . ولم يزل يعمل في جامع عمرو بن العاص إلى أن عمر أحمد بن طولون جامعه » .

ومن التطورات المالية والاقتصادية في عهد المتوكل إبطال نظام « الإيغارات » والإيغار ـ كما جاء في القاموس ـ أن يوغر الملك الرجل الأرض فيجعلها له من غير خراج ، أو هو أن يؤدي الخراج إلى السلطان الأكبر فراراً من العمال[1] . وذكر البلاذري[2] : « وكانت بالثغر إيغارات قد تحيَّفَتْ ما يرتفع عن أعشاره ، حتى قصَّرت عن نفقاته . فأمر المتوكل في سنة ٢٤٣هـ بإبطال تلك الإيغارات فأبطلت » . وكلمة « الثغر » في نص البلاذري يقصد بها حدود الدولة الإسلامية مما يلي الروم .

اهتم المتوكل بتنمية الثروة الزراعية ولذا عني بمشاريع الري ، فقد حفر قناتين في دجلة ، شتوية وصيفية ، تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامراء[3] . كما حفر المتوكل أيضاً نهر الجعفري في مدينة المتوكلية التي بناها في الماحوزة وتكلف النهر نحو مليون ونصف مليون درهم[4] .

وكانت المياه تحيط بمدينة سامراء من كل مكان ، وقد حفر الخليفة المعتصم نهر الاسحاقي وشق منه عدة قنوات تروي الأراضي الواقعة على الجانب الغربي من نهر دجلة ، وجلب المعتصم إلى سامراء النخيل من بغداد والبصرة كما جلب أنواعاً مختلفة من النباتات من الشام والجزيرة ، وأصبح الجانب الشرقي من سامراء يضم كثيراً من الحدائق والبساتين[5] . وكانت الحنطة والشعير والتين الوزيري والكروم من أشهر إنتاج سامراء الزراعي . واشتهرت تكريت من أعمال سامراء بالسمسم[6] . وكان في سامراء في عهد

---

(١) الفيروزأبادي : القاموس المحيط (مادة : الوغرة) .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٧١ .
(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ١٧ .
(٤) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٦٦ .
(٥) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٣٠٠ ، اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٣٦٣ .
(٦) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١١٥ .

المتوكل سوق كبيرة تسمى (دار البطيخ) يباع فيها جميع أنواع الفاكهة والزهور[١] .

وتطورت سامراء في عهد المتوكل حتى نافست بغداد في ازدهار الصناعة ، والرواج التجاري . كما أدى بناء مدينة المتوكلية (الجعفرية) إلى قدوم آلاف من المهندسين والصناع والحرفيين المهرة مما أدى إلى تقدم الفنون الهندسية والعمرانية وأصبحت صناعة البناء من أبرز الصناعات وخاصة ـ كما رأينا ـ أن المتوكل ابتدع طرازاً معيناً من أطرزة البناء . واستخدم المتوكل الآجر والجص في بناء قصوره وحلّى جدرانها بالصور[٢] . وقد عثر في حفائر سامراء على أعمدة نقشت عليها صور حيوانات وطيور ونباتات وأسماك كما عثر على ملابس عليها زخارف مختلفة تشبه الزخارف الفارسية الساسانية[٣] . واهتم المتوكل بدور الطراز ، التي تصنع الملابس الموشاة بالذهب والألوان الزاهية وينقش عليها اسم الخليفة وعبارات الدعاء ، فضلاً عن الزخارف البديعة[٤] . وكان يصنع أيضاً في دار الطراز ما يحتاجه الخليفة من بسط وثياب وبنود وفرش[٥] . وهجر كثير من العمال العاصمة القديمة ليرحلوا إلى سامراء ثم إلى المتوكلية . كما قدم كثير من عمال البصرة والكوفة وخاصة عمال الخزف وتثبت البقايا الخزفية التي عثر عليها في أطلال سامراء تقدم صناعة الخزف وروعة ألوانها وتنوعها وثباتها[٦] .

وكثرت معامل الزجاج في سامراء والمتوكلية في عهد المتوكل ، لحاجته إلى الزجاج والبللور ، في قصوره . واستخدم الزجاج في الثريات والقناديل وأدوات الزينة ، وتحمل المصنوعات الزجاجية زخارف نباتية ، وتشتهر بالبريق المعدني[٧] .

---

(١) الثعالبي : ثمار القلوب ص ٤١١ .
(٢) عبدالعزيز مرزوق : الفن الإسلامي ص ٧٥ .
(٣) أحمد تيمور : التصوير عند العرب ص ١٤٢ .
(٤) مرزوق : الفن الإسلامي ص ١٢٢ .
(٥) رسائل الصابي ص ١٤١ .
(٦) عبدالعزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ص ٩٧ .
(٧) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٦٤ ، زكي حسن : فنون الإسلام ص ٥٨٨ .

أنشأ المتوكل في قصر البرج ، بركة واسعة ، واستخدم فيها صفائح الفضة ، وعليها شجرة من ذهب تحمل أنواعاً من الطيور تصدر أصواتاً . كما أقام سريراً من الذهب وأقام في قصوره الرخام المذهب ، وطلى الجدران بالفسيفساء[1] . وكان للمتوكل « حراقات » في نهر دجلة ، واهتم بصناعتها وتزيينها ، وكثيراً ما خرج فيها مع حاشيته للنزهة والترويح عن النفس ومعه الندماء والمغنون[2] .

وشهدت سامراء والمتوكلية في عهد المتوكل نهضة تجارية . وقد اهتم الخليفة المعتصم بأسواق سامراء عند إنشائها ، فنظمها وجعلها صفوفاً ، وأفرد لكل تجارة سوقاً خاصة على غرار ما كانت عليه أسواق بغداد . فيقول اليعقوبي[3] : « كل تجارة منفردة وكل أهل مهنة لا يختلطون بغيرهم » . وكان المعتصم قد أنشأ المسجد الجامع في طرق منطقة الحير وأحاطها بالأسواق ثم فصل « أسواق أصحاب البياعات الدنيئة مثل أصحاب الفقاع والهرائس »[4] . وجعل قطائع الأتراك والفراغنة العجم بعيدة عن الأسواق وأفرد لهم سويقات خاصة تباع في حوانيتها الحاجات الضرورية ، وزاد الخليفة الواثق في عدد الأسواق[5] .

وحين شيد المتوكل مدينته المتوكلية (الجعفرية) شمال سامراء ، أنشأ الأسواق في نواحيها وأرباعها[6] . وحين بنى المسجد الجامع بنى أيضاً ثلاثة شوارع تتصل مباشرة بساحة المسجد الجامع وعلى طول هذه الشوارع الثلاثة توزعت صفوف الحوانيت من الجانبين « فيها أصناف التجارات والصناعات والبياعات »[7] وجعل عرض كل شارع « مائة ذراع بالذراع السوداء[8] لئلا يضيق

(١) الشابشتي : الديارات ص ١٠٣ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٩٩ ـ ١٠٠ .
(٣) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٦١ .
(٥) المصدر السابق ص ٢٦٥ .
(٦) الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ص ١٣٣ .
(٧) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .
(٨) الذراع الأسود : وضع هذه الوحدة من القياس هارون الرشيد وقدرها بذراع خادم أسود كان يقف =

عليه الدخول إلى المسجد »[1] . خاصة أيام الجمع ، فاتسع أهل الأسواق بتلك الحوانيت المجاورة للمسجد الجامع . وكان معظم التجار من العراقيين وتجارتها داخلية بين شمال وجنوب العراق[2] . وكان الطريق التجاري من بغداد إلى الموصل يمر بسامراء[3] . وكانت مدينة تكريت ترتبط مدينة سامراء بصلات تجارية وثيقة[4] .

وفي متحف تاريخ الفنون بمدينة (فينا) صورة سكة باسم الخليفة المتوكل وعلى أحد وجهي السكة رسم يرجح أنه للمتوكل نفسه وعلى رأسه تاج ساساني الطراز وفي أذنيه قرط وحول هذا الرسم شريط فيه كتابة بالخط الكوفي نصها : باسم الله محمد رسول الله المتوكل على الله . أما الوجه الآخر فعليه رسم رجل يقود جملاً ، وحول الرسم شريط دائري به كتابة بالخط الكوفي فيها تاريخ هذه السنة وهو سنة ٢٤١ هـ[5] .

وكان المتوكل يستخدم في هباته للشعراء والندماء والمغنين (صرة) بها عدد ضخم من الدراهم ، يصل إلى الآلاف ، وتسمى (بدرة)[6] .

ورغم ضخامة موارد الدولة في عهد المتوكل إلا أن كثرة النفقات كانت تؤدي إلى عدم التوازن بين الإيرادات والمصروفات . وخاصة أن المتوكل شيد عاصمة جديدة وأسرف في الإنفاق وبالغ في بناء القصور وتزيينها ، واهتم بوسائل الترف والرفاهية كما رأينا . ولذا اضطر المتوكل إلى المصادرات مما أدى إلى خوف أصحاب الأموال وإخفائها ودفنها في الأرض أو الآبار .

وخير ما يصور الإسراف في الإنفاق ، نص للمؤرخ المسعودي[7] ، يقول

على رأسه (ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ص ٨٧) .

(١) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٦٦ .

(٢) الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٤١ .

(٤) لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١١٣ .

(٥) أحمد تيمور : التصوير في الإسلام ص ٢٦١ .

(٦) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٠٠ .

(٧) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٠٠ .

فيه : « إنه لم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها في أيام المتوكل . ويقال إنه أنفق على الهاروني والجوسق الجعفري أكثر من مائة ألف وألف درهم ، هذا مع كثرة الموالي والجند الشاكرية ودرور العطاء لهم ، وجليل ما كانوا يقبضونه في كل شهر من الجوائز والهبات . ولا يعلم أحد في صناعته في جد ولا هزل إلا وقد حظي في دولته وسعد بأيامه ، ووصل إليه نصيب وافر من ماله » .

وأدت كثرة النفقات إلى قلة ما في بيوت المال من أموال . حتى ان المتوكل لم يتمكن من غزو الأراضي البيزنطية كما فعل أسلافه الرشيد والمأمون والمعتصم من قبل . ولذا اعتمد على المتطوعة الذين نهضوا بأعباء الدفاع وعلى رأسهم ابن الأقطع ، وعلي بن يحيى[1] . وقد رأينا في فصل العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية تكرر هجوم البيزنطيين على الأراضي الإسلامية وخاصة على مدينة دمياط ومدينة عين الزربة . ولم يرد المتوكل الصاع صاعين كما فعل أبوه المعتصم الذي ثأر من الروم وانتصر عليهم في عمورية فانتقم لتخريب زبطرة . ولكن الروم في عهد المتوكل ، تجرأوا على الدولة العباسية التي لم تنجح في أن تظهر بمظهر القوة .

وقد نجد العذر للمتوكل ، فقد كان متخوفاً دائماً من سيطرة الأتراك واستبدادهم بالسلطة ، والإقطاعيات ، والأموال . وخاصة أن ابنه المنتصر كان متواطئاً مع هؤلاء الأتراك . واضطر المتوكل إلى اصطناع قوة عسكرية تتألف من العرب والمرتزقة ، كانت تكلفه كثيراً من الأموال .

ويصور المسعودي[2] هذه الأحداث كلها فيقول : « وبايع ـ المتوكل ـ لبنيه الثلاثة بولاية العهد بعده : المنتصر ، وأبي عبدالله المعتز ، وإبراهيم المؤيد . وجفا الموالي من الأتراك واطرحهم وحط مراتبهم وعمل على الاستبداد بهم والاستظهار عليهم ـ وضم إلى وزيره عبيدالله بن يحيى بن خاقان

---

(١) الريس : الخراج في الدولة الإسلامية ص ٤٧٧ .

(٢) المسعودي : التنبيه والإشراف ص ٣١٣ .

نحواً من اثني عشر ألفاً من العرب والصعاليك وغيرهم برسم المعتز وكان في حجره وضاق عليهم المال بشركة هؤلاء معهم فيه . وجعل يجيل الآراء في استئصالهم ونال ابنه محمداً ـ المنتصر ـ بأنواع الذلة والهوان . فأجمع على قتله ، فواطأ وصيفاً وبغا وغيرهما من الموالي على قتله فأعدوا لذلك عدة من أصاغر الموالي منهم باغر وغيره فقتلوه بمدينته المسماة الجعفرية من سر من رأى » .

ومن العوامل التي قللت من موارد الدولة العباسية في عهد المتوكل ، غير إسراف المتوكل وهجوم الروم ، واستبداد الأتراك ، حدوث اضطرابات أذربيجان ، وأرمينية والشام ومصر .

فقد خرج على المتوكل محمد بن البعيث ، مع عرب ربيعة في سنة ٢٣٤ هـ بجهة أذربيجان وقد انتصر على عدة جيوش عباسية معظمها من الجنود الأتراك ، « فقتل من أولياء السلطان في حربه في ثمانية أشهر نحو من مائة رجل وجرح نحو من أربعمائة وانتصر أخيراً بغا الشرابي على الثائر وقبض عليه ، ثم عفا المتوكل عنه »[1] .

كما ثار أهل أرمينية سنة ٢٣٧ هـ على يوسف بن محمد المروزي عامل المتوكل عليها سنة ٢٣٧ هـ ، وقاد البطارقة الثورة وقتلوا يوسفاً ، وأرسل المتوكل جيشاً بقيادة بغا الشرابي « فظفر بهم ، فقتل زهاء ثلاثين ألفاً وسبى منهم خلقاً كثيراً ، فباعهم بأرمينية »[2] .

وفي سنة ٢٤٠ هـ . ثار أهالي حمص على عامل المعونة وصاحب الخراج . ثم ثاروا سنة ٢٤١ هـ على عامل المعونة الجديد محمد بن عبدويه « وأعانهم على ذلك قوم من نصارى حمص ، فكتب بذلك إلى المتوكل فكتب إليه يأمره بمناهضتهم ، وأمده بجند من راتبة دمشق مع صالح العباسي التركي وهو عامل دمشق ، وجند من جند الرملة » وأمر المتوكل بالتنكيل بأهالي حمص

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٤٨ ـ ٣٥٠ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٦٧ .

وضرب رؤسائهم ، وتخريب الكنائس والبيع ، وإخراج النصارى من حمص[1] .

وفي سنة ٢٤١ هـ أيضاً نقضت (البجة) العهد وأغارت على الأراضي المصرية . والبجة قبائل بدوية كانت تعيش في الصحراء الشرقية الممتدة من الصعيد الأعلى إلى السودان ويشبهون أهل النوبة . وتنتشر المعادن وخاصة الذهب في هذه المنطقة وكانت البجة قد تعهدت بدفع ضرائب عما يستخرجوه من معادن بالاشتراك مع المسلمين .

« فلما كان أيام المتوكل ، امتنعت البجة عن أداء ذلك الخراج سنين متوالية ، فذكر أن المتوكل ولى بريد مصر رجلاً من خدمه يقال له يعقوب بن إبراهيم الباذغيسي مولى الهادي . . . فكتب يعقوب إلى المتوكل أن البجة قد نقضت العهد الذي كان بينها وبين المسلمين ، وخرجت من بلادها إلى معادن الذهب والجوهر وهي على التخوم فيما بين أرض مصر وبلاد البجة فقتلوا عدة من المسلمين ممن كان يعمل في المعادن ويستخرج الذهب والجوهر ، وسبوا عدة من ذراريهم ونسائهم . . . فانقطع بذلك ما كان يؤخذ للسلطان بحق الخمس من الذهب والفضة والجوهر الذي يستخرج من المعادن . فاشتد إنكار المتوكل لذلك وأحفظه وشاور في أمر البجة ، فأنهي إليه بأنهم قوة أهل بدو وأصحاب إبل وماشية وأن الوصول إلى بلادهم صعب ، لا يمكن أن يسلك إليهم الجيوش . . . فأمسك المتوكل عن التوجيه إليهم ، وجعل أمرهم يتزايد وجراءتهم على المسلمين تشتد حتى خاف أهل الصعيد من أرض مصر على أنفسهم وذراريهم منهم . فولى المتوكل محمد بن عبدالله المعروف بالقمي محاربتهم . . . وأن يكاتب عنبسة بن إسحاق الضبي العامل على حرب مصر وكتب إلى عنبسة بإعطائه جميع ما يحتاج إليه من الجند والشاكرية المقيمين بمصر . . . »[2] .

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

ومما هو جدير بالذكر أن عنبسة بن إسحق هذا كان آخر من يلي أمور مصر من العرب ، وقد « أظهر من العدل ما لم يسمع بمثله في زمانه »[1] .

ورغم كثرة نفقات المتوكل ، فقد « مات وفي بيوت الأموال أربعة آلاف ألف دينار ، وسبعة آلاف ألف درهم »[2] . وهو مبلغ كبير إذا علمنا أن تركة المعتصم كانت ثمانية ألف ألف درهم[3] . كما أننا نغفر للمتوكل إسرافه إذا علمنا أن نفقات قصر المأمون كانت ستة آلاف دينار يومياً[4] . أي أكثر من مليوني دينار سنوياً ، وإذا علمنا النفقات الطائلة الخيالية التي أنفقها المأمون في زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل مما لم يشهده التاريخ في جميع العصور[5] . وقد فرغت خزينة الدولة من الأموال في آخر عهد المأمون ، وقال : « لم يبق في بيت مالي درهم واحد »[6] . فقد أنفق المأمون كثيراً من الأموال في قتال الروم ، وثورات مصر ، وثورات الشيعة .

وقد كان جعفر المتوكل على نقيض من أبيه المعتصم ، فقد اهتم بالإنفاق على البناء وتزيينه ، ولم يهتم بالإنفاق على الحروب ، فتجرأت الدولة البيزنطية على الأراضي العباسية ، على عكس أبيه المعتصم الذي قال عنه وزيره الفضل ابن مروان : « لم يكن للمعتصم لذة في تزيين البناء ، وكانت غايته فيه الاحكام ، ولم يكن بالنفقة على شيء أسمح منه بالنفقة في الحرب »[7] . وكانت مشروعات المعتصم العمرانية من أجل تنمية الموارد المالية ، فقد قال لوزيره محمد بن عبد الملك الزيات : « إذا وجدت موضعاً أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهماً ، فلا تؤامرني فيه »[8] . بينما كان

---

(١) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٣١٢ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٢٢ .
(٣) الفخري ص ٢٠٩ .
(٤) الفخري ص ٢٢٦ .
(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ١٤٤ ، الفخري ص ٢٢٢ .
(٦) الطبري جـ ٦ ص ٤٥٠ .
(٧) الطبري جـ ٦ ص ٤٥٦ .
(٨) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٩٠ .

المتوكل يهتم بمنشئات الترف والرفاهية .

تشدد المتوكل في جمع الجزية من أهل الذمة ، نتيجة سياسته الجديدة معهم ، فأصبحت من أبرز موارد بيت المال في عهد المتوكل[١] . وقد بلغ المتحصل من ضريبة الجزية في أواخر القرن الثالث الهجري بمدينة بغداد مائتي ألف درهم في السنة .

واستمر في عهد المتوكل النظام الذي وضعه سلفه الواثق الذي أمر في سنة **٢٣٢** هـ ، وهي نفس سنة تولية المتوكل الخلافة بترك جباية أعشار سفن البحر ، مما أدى إلى نشاط التجارة وتوفر مواد التموين[٢] .

وكان العطاء من مصروفات الدولة ، وقد منح المتوكل الجند عند توليته الخلافة ، عطاء ثمانية أشهر[٣] . وكثيراً ما تأخر عطاء الجند مما أدى إلى شغبهم ، وقد رأينا صورة لشغب الجند في دمشق حين رحل المتوكل إليها . وكثيراً ما طالب الجند بزيادة عطائهم . وكان هذا الشغب من عوامل عدول المتوكل عن اتخاذ دمشق عاصمة له[٤] .

من أشهر دواوين الدولة في عهد المتوكل : ديوان الخراج وديوان زمام الضياع وديوان التوقيع والتتبع على العمال . وقد اضطربت ـ في عهد المتوكل ـ أحوال هذه الدواوين نتيجة اختلاسات القائمين عليها ، ولذا أسرف المتوكل في تغييرهم والقبض عليهم ومصادرة أموالهم . وكثرت السعايات بكبار موظفي الدولة وكان المتوكل غالباً ما يستمع إلى الوشايات . حتى أصبح يشك في كل رجاله ، من وزراء وكتاب ورؤساء دواوين . وكان المتوكل ـ كما جاء في الطبري[٥] ـ يشعر بالسرور حين يصادر أموال رجاله ، فهو يعتبر هذه الأموال حقاً للدولة اغتصبها القائمون على الدواوين والمصالح الحكومية . وتدل النصوص

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٧٤ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٣٠ .
(٣) الطبري جـ ٧ ص ٣٤١ .
(٤) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١١٥ .
(٥) الطبري جـ ٧ ص ٣٨٤ .

التاريخية التي ذكرها الطبري ، أن المتوكل كان دائماً شرهاً إلى المال .

ومن ضمن الصور التاريخية التي قدمها الطبري[1] سعى موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد بنجاح بن سلمة الذي كان مقرباً من المتوكل ويتولى كل الضياع ويخشاه كبار رجال الدولة . وقد استمع المتوكل إلى وشايتهما بعد أن تكفلا له باستخراج أموال كثيرة من نجاح وضمنا له هذه الأموال ، فسمح المتوكل لهما بضرب نجاح حتى الموت ، ولكن الواشيين لم يفيا بوعودهما ، وحازوا الأموال المصادرة ، « فكان المتوكل كثيراً ما يقول لهما كلما شرب : ردوا علي كاتبي وإلا فهاتوا المال . . . ومكث موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد على ذلك يطالبهما المتوكل بالأموال التي ضمناها من قبل نجاح » . ولم ينقذ موسى بن عبد الملك سوى إصابته بالفالج ثم وفاته بعد يومين .

ومن أشهر رجال المال والاقتصاد الذين اعتمد عليهم المتوكل في جمع الأموال ، أحمد بن المدبر ، ولم يجد المتوكل حرجاً في استخدامه . رغم أن الواثق سجنه وطالبه بالأموال ولم ينقذه سوى وفاة الواثق[2] . وقد تولى مناصب الخراج واشتهر بالقوة والعنف ، وحرصه على جمع أكبر قدر من الأموال لإرضاء الخليفة ، مهما وقع بالرعية من عسف وإرهاب[3] .

قلد المتوكل خراج مصر أحمد بن المدبر ، الذي لجأ إلى القسوة في جباية الخراج ، فزاد الضرائب وحجر على النطرون بعد أن كان مباحاً ، وفرض على الكلأ المباح ضريبة سميت « مال المراعي » - كما قدر على ما يصاد في البحر والنيل والبحيرات والبرك ضريبة أسماها « مال المصايد » .

وكان مال الضرائب ينقسم في ذلك الوقت إلى قسمين : خراجي وهلالي . فالخراجي هو ما يؤخذ على الأرض التي تزرع حبوباً ونخلاً وعنباً وفاكهة ، وما يؤخذ من المزارعين على سبيل الهدية مثل الغنم والدجاج . أما

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .
(٢) الفخري ص ٢٢٥ .
(٣) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٣١٤ .

الهلالي : فهو ما يؤخذ من الضرائب على الكلأ وما يصاد من السمك . وكان الهلالي يعرف في زمن ابن المدبر وما بعده بالمرافق والمعاون .

وكان ابن المدبر يجمع الخراج ويرسل منه الجزية إلى دار الخلافة ويتصرّف فيما بقي تصرفاً لا يتفق ومصلحة البلاد ، مما أدى إلى اضطراب اقتصادها ، فنقص الخراج إلى ثمانمائة ألف دينار ، رغم أنه بلغ مائة وعشرين ألف دينار في عهد عمرو بن العاص ، ومائة وأربعين ألف في عهد خلفه عبدالله ابن سعد بن أبي سرح ، وبلغ في عهد ابن طولون أربعة ملايين وثلثمائة ألف دينار[1] .

٥ ـ الاتجاهات الدينية : موقف المتوكل من مذهب السنة ، ومن مذهب المعتزلة ، ومن قضية خلق القرآن

ساقت الأقدار الخلافة إلى المتوكل ، فلم يسع إليها ، ولم يكن في حسبانه توليها . ولذا حمد الله تعالى وشكره أن الله تعالى قد جعله يتولى الخلافة ، فهو ابن المعتصم الخليفة العباسي العظيم . وبدأ المتوكل عهده باتجاهات دينية طيبة . فأبدى أنه يتقبل النصيحة ، فقد دخل عليه نصر بن علي الجهضمي « فجعل نصر يحُضّ المتوكل على الرفق ، ويمدح الرفق ويوصي به ، والمتوكل ساكت ، فلما سكت نصر ، التفت المتوكل إلى يحيى بن أكثم القاضي فقال له : أنت يا يحيى حدثتني . . . عن النبي ﷺ قال : (من حُرم الرفق حرم الخير) . ثم أنشأ يقول :

الرفق يمن والأناة سعادة فاستأن في رفق تلاق نجاحا
لا خير في حَزم بغير روية والشك وهن إن أردت سراحا[2] »

والتقى المتوكل بيزيد المهلبي ، فقال المتوكل له : يا مهلبي ان الخلفاء

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .
(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٥ ص ١٦١ .

كانت تتصعب على الرعية لتطيعها ، وأنا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني .

وتحدث المسعودي[1] عن اتجاهات المتوكل الدينية بعد توليه الخلافة مباشرة ، فقال : « ولما أفضت الخلافة إلى المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال ، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق والمأمون وأمر الناس بالتسليم والتقليد ، وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السُّنة والجماعة » .

روى الخطيب البغدادي عن علي بن الجهم أنه قال : « وجه إلي أمير المؤمنين المتوكل ، فأتيته ، فقال : يا علي رأيت النبي ﷺ الساعة في المنام ، فقمت إليه ، فقال لي : تقوم إلي وأنت خليفة ؟ فقلت : أبشر يا أمير المؤمنين أما قيامك إليه فقيامك بالسنة ، وقد عدك من الخلفاء . فسُرَّ ـ المتوكل ـ بذلك »[2] .

وكان إبراهيم بن محمد التيمي قاضي البصرة يقول : الخلفاء ثلاثة ، أبو بكر الصديق ، قاتل أهل الردَّة حتى استجابوا له ، وعمر بن عبد العزيز رَدَّ مظالم بني أمية ، والمتوكل محا البدع وأظهر السُّنة[3] .

ونهى المتوكل عن شتم الصحابة وزوجات النبي ، فقال الطبري[4] في أحداث سنة ٢٤١ هـ : « وفيها ضرب عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم صاحب خان عاصم ببغداد ألف سوط ، وكان السبب في ذلك أنه شهد عند أبي حسان الزيادي قاضي الشرقية عليه أنه شتم أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة ، سبعة عشر رجلاً ، شهاداتهم فيما ذكر مختلفة من هذا النحو . فكتب بذلك صاحب بريد بغداد إلى عبيدالله بن يحيى بن خاقان ، فأنهى عبيد الله ذلك إلى المتوكل ، فأمر المتوكل أن يكتب إلى محمد بن عبدالله بن طاهر يأمره بضرب عيسى هذا بالسياط ، فإذا مات رمي به في دجلة ، ولم تدفع جيفته إلى أهله » .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٨٦ .
(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٥ ص ١٧٠ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) الطبري جـ ٧ ص ٣٧٥ .

والخطاب الذي أرسله وزير المتوكل ، عبيدالله بن يحيى بن خاقان يصور هذا الاتجاه الديني في إحياء السُّنة ، وفي احترام الصحابة ، وجاء في هذا الخطاب : « بسم الله الرحمن الرحيم . أبقاك الله وحفظك وأتم نعمته عليك . وصل كتابك في الرجل المسمى عيسى بن جعفر بن عاصم صاحب الخانات وما شهد به الشهود عليه من شتم أصحاب رسول الله ﷺ ولعنهم وإكفارهم ورميهم بالكبائر ، ونسبتهم إلى النفاق وغير ذلك مما خرج به إلى المعاندة لله ولرسوله ﷺ ، وتثبتك في أمر أولئك الشهود وما شهدوا به ، وما صح عندك من عدالة من عدل منهم ، ووضح لك من الأمر فيما شهدوا به وشرحك ذلك في رقعة درج كتابك ، فعرضت على أمير المؤمنين أعزه الله ذلك ، فأمر بالكتاب إلى أبي العباس محمد بن عبدالله بن طاهر مولى أمير المؤمنين أبقاه الله بما قد نفذ إليه مما يشبه ما عنده ، أبقاه الله من نصرة دين الله وإحياء سنته والانتقام ممن ألحد فيه ، وأن يضرب الرجل حداً في مجمع الناس حتى الشتم ، وخمسمائة سوط بعد الحد للأمور العظام التي اجترأ عليها ، فإن مات ألقي في الماء من غير صلاة ليكون ذلك ناهياً لكل ملحد في الدين خارج من جماعة المسلمين ، وأعلمتك ذلك لتعرفه إن شاء الله تعالى . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته »[1] .

وروى الخطيب البغدادي[2] أن عمرو بن شيبان الحلبي رأى حلماً في نومه ، بعد مصرع المتوكل بشهور على يد ابنه محمد المنتصر ، فسأل المتوكل : ما فعل بك ربك ؟ فأجاب المتوكل : غفر لي . فسأله عمرو : بماذا ؟ فقال المتوكل : بالقليل من السنة تمسكت بها . فعاود عمرو السؤال : فما تصنع هاهنا ؟ فأجاب : انتظر محمداً ابني أخاصمه إلى الله الحليم العظيم الكريم .

ازدهرت تعاليم المعتزلة في العصر العباسي الأول وبلغت قمة ازدهارها في عصر المأمون الذي وافقهم على القول بخلق القرآن واستخدم نفوذه في

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٧٥ .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٥ ص ١٧١ .

سبيل إقرار هذه العقيدة في أذهان الناس ، وأصبح مذهب الاعتزال بذلك مذهب الدولة الرسمي . ثم سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن . واقتدى الواثق بأبيه المعتصم وعمه المأمون في انتصاره للمعتزلة وتشدّده في فرض آرائهم الدينية على الناس وبلغ به الأمر أن جعل إطلاق أسرى المسلمين في بلاد الدولة البيزنطية وافتدائهم مقصوراً على الذين يقولون بخلق القرآن واعتبار من سواهم خارجين على الإسلام ، لقد بلغ تحمس الواثق لقضية خلق القرآن أن أمر بامتحان أهل الثغور في القرآن كما امتحن الأسرى الذين استعادهم المسلمون[1] .

ثم جاء المتوكل فكانت له سياسة أخرى وموقف آخر . لقد بدأ المتوكل عهده بنهي الناس عن القول بخلق القرآن مخالفاً في ذلك المأمون والمعتصم والواثق وانتصر لمذهب أهل السنة . وبعد ذلك بسنوات قليلة يتم انتصار مذهب أهل السنة بظهور أبي الحسن الأشعري (ولد ٢٦٠ هـ) بعبارة أخرى لقد كانت خلافة المتوكل انتعاشاً لمذهب أهل السنة ، وضعفاً لمذهب المعتزلة .

للمعتزلة مبادىء يكادون يشتركون فيها جميعاً ، وهي خمسة أصول : (١) القول بالتوحيد (٢) القول بالعدل (٣) القول بالوعد والوعيد (٤) القول بالمنزلة بين المنزلتين (٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .[2]

وأثارت المعتزلة مسألة كلام الله وخلق القرآن . وقالت المعتزلة أنه ثبت بالبرهان أن الله ـ ذاته وصفاته ـ وحدة لا تقبل التجزئة بحال من الأحوال . وثبت بالبرهان أن ذات الله وصفاته لا يلحقها تغير ولا تقوم بها المحدثات وإذا كان الله وصفاته وحدة لا تقبل التغير فمحال أن يكون القرآن كلام الله على معنى أنه صفة من صفاته ، لأنه لو كان كذلك لكان هو وذاته وبقية صفاته شيئاً واحداً ، وترى المعتزلة أن في القرآن أمراً ونهياً وخبراً واستخباراً ووعداً ووعيداً، فهذه حقائق مختلفة وخصائص متباينة ومن المحال أن يكون « الواحد » متنوعاً إلى خواص مختلفة ، وهذه الخواص قد تتضاد كالذي بين الأمر والنهي .

---

(١) فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية جـ ٢ ص ٢١٨ .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٢١-٢٢ .

ثم تقول المعتزلة : اذا كان القرآن كلاماً ازلياً هو صفة من صفات الله ترتب على ذلك جملة استحالات : أولها : أن الأمر لا قيمة له ما لم يصادف مأموراً ، فلا يصح أن تصدر (أقيموا الصلاة) إلا اذا كان هناك مأمورون بالصلاة ولم يكن في الأزل مأمورون مخاطبون ومحال ان يكون المعدوم مأموراً .

ثانيها أن الخطاب مع موسى عليه السلام غير الخطاب مع محمد ﷺ ومناهج الكلامين مع الرسولين مختلفة ، ويستحيل أن يكون معنى واحداً هو في نفسه كلام مع شخص على معان ومناهج ، وكلام مع شخص آخر على معانٍ ومناهج أخرى ، ثم يكون الكلامان شيئاً واحداً ومعنى واحداً ؛ أضف إلى ذلك أن الخبرين عن أحوال الأمتين مختلفان لاختلاف حال الامتين ، فكيف يتصوّر أن تكون حالتان مختلفتان يُخْبر عنهما بخبر واحد ؟! والقصة التي جرت ليوسف وإخوته غير القصة التي جرت لآدم ونوح وإبراهيم واذا اختلفت هذه الاختلافات استحال أن يكون الكلام صفة لله ، وهو الواحد في ذاته وصفاته الذي لا يختلف ولا يطرأ عليه اختلاف .

ثالثها : أن المسلمين أجمعوا قبل ظهور هذا الخلاف على أن القرآن كلام الله واتفقوا على أنه سُوَر وآيات وحروف منتظمة ، وكلمات مجموعة وهي مقروءة مسموعة ، ولها مفتتح ومختتم ، وهو معجزة رسول الله ، وأجمعت الأمة على أنه بين أيدينا نقرؤه بألسنتنا ونمسه بأيدينا ، ونبصره بأعيننا ونسمعه بآذاننا ، ومحال أن يكون هذا كله وصفاً لصفة الله . فالكلام الأولى الذي هو صفة الله لا يُوصَف بمثل هذه الأوصاف[1].

أجمع المعتزلة على اختلاف فرقهم على نفي الصفات الالهية ، وعارضوا كل فكرة تتنافى مع وحدة الله ، ولكي ينزهوا الله عن الظلم ، اعترفوا للانسان بالحرية التامة في خلق أفعاله ، وكان من تعاليمهم أن إدراك وسائل الخلاص وطرق النجاة إنما ترجع الى سلطان العقل وأنه يمكن تمحيص هذه المسائل في

---

(١) المرجع السابق جـ ٣ ص ٣٤ ـ ٣٥ (لخص المرحوم أحمد أمين ما جاء في كتاب مقالات الإسلاميين للأشعري ص ١٥٥ ـ ١٥٦ تلخيصاً موجزاً واضحاً ، فضلنا أخذه عن المرحوم أحمد أمين) .

ضوء العقل . أي أن الله لم يخلق أفعال العباد لا خيراً ولا شراً ، وأن إرادة الأنسان حُرة والانسان خالق أفعاله ومن أجل ذلك كان مثاباً على الخير معاقباً على الشر . بعبارة أخرى العلاقة بين قدرة الله وأعمال العباد : هل أعمال العباد مخلوقة لله أو هي مخلوقة للعبد ؟ وهذه هي المسألة التي يطلق عليها عادة « خلق الأفعال » . فأفعال العباد من عملهم هم وباختيارهم المحض في قدرتهم أن يفعلوها وأن يتركوها . لقد قرر المعتزلة حرية إرادة الانسان وقدرته بأجلى مظاهرها[1] .

وعارضت المعتزلة عقيدة أزلية القرآن ، أي أنه كلام الله ، كما عارضوا فكرة الوحي بمعنى أن الله يتصل بالانسان ويوحي اليه كما جاء في سورة الشورى (سورة ٤٢ آية ٥١) « وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسِلَ رسولاً فيوحيَ بإذنه ما يشاءُ إنّه عليٌ حكيم » . وكانوا لا يصغون الى أية فكرة يشم منها رائحة التجسد لله سبحانه وتعالى ، كذلك رفض المعتزلة دعوى أن الله خلق الكافر[2] ، كما لم يرضوا القول بأن الله يضر لمنافاة ذلك للعدل الالهي ، وهم يقدرون اختيار الانسان في أفعاله ولم يعترفوا بالمعجزات التي وردت في القرآن[3] .

وكان يناهض المعتزلة في صفة الكلام وخلق القرآن وغيرها من الصفات فريقان : فريق يسمون « السلف » يرون أن الله وصف نفسه بصفات : من قدرة ، وإرادة وعلم وكلام وسمع وبصر ، ووصف نفسه أنه على العرش ، فيجب أن نؤمن بها كما جاءت ، ولا نتعرض لتأويلها وشرحها ، فنجري ظواهر النصوص على مواردها ، ونكف عن تأويلها ، وتفوض معانيها الى الله .

وفريق آخر من بعض الحنابلة ، رأى أن « القرآن بحروفه وأصواته

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٤٤-٥٨ .

(٢) يقصدون أن كل إنسان خلق قابلاً للإيمان فطرة الله التي فطر الناس عليها . وأن الكفار صاروا كذلك بتمردهم وبمحض إرادتهم واختيارهم ، وليس بجبر من الله بمعنى أن الله لم يرد كفر الكافر . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٣ ص٢١٤ - ٢١٥ .

(٣) حسن إبراهيم : المرجع السابق جـ ٣ ص ٢١٦ - ٢١٧ .

قديم . . . ولما تقرر الاتفاق على أن كلام الله غير مخلوق فيجب أن تكون الكلمات أزلية فيه غير مخلوقة »[1].

هذان هما الفريقان اللذان ناهضا المعتزلة في قولهم بخلق القرآن ، فكان الخلاف دائراً حول القرآن ، أعني حروفه وألفاظه وكلماته ، يقول المعتزلة بحدوثها ويقول بعض الحنابلة بقدمها ، ويقول آخرون لا نتكلم في هذا الموضوع[2]. وظل النزاع محصوراً في هذه الدائرة أيام محنة القول بخلق القرآن زمن المأمون والمعتصم والواثق .

ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا علاقة لها بالسياسة ، بخلاف ما كان عليه الشيعة والخوارج والمرجئة ، إلا أنها سرعان ما تدخلت في الأمور السياسية الهامة ، فبحثت مسألة الإمامة ووصفت الشروط التي يجب أن تتوافر في الأئمة ، كما كان هناك تشابه بين بعض مبادىء المعتزلة وتعاليم الشيعة ، فكانت الشيعة تسمي نفسها « أهل العدل » كالمعتزلة ، كما قالت المعتزلة بحرية الارادة التي وضع أساسها علي بن أبي طالب ، كذلك كان المعتزلة يلقبون فقهاءهم بلقب « إمام » فضلاً عن تأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة في عقيدتهم القائلة أن الامام المنتظر سوف يظهر لينشر العدل والتوحيد ، وهذا نفس ما يقوله المعتزلة[3] .

وكان المأمون يميل الى الأخذ بمذهب المعتزلة ، لأنه أكثر حرية ، واعتماداً على العقل ، فقرب أتباع هذا المذهب اليه فزاد نفوذهم في الدولة . ووافق المأمون المعتزلة فيما ذهبوا اليه من أن القرآن مخلوق وعمد الى تسخير قوة الدولة لحمل الناس على القول بخلق كتاب الله[4].

وروى الطبري[5] في أحداث سنة ٢١٨ هـ : « وفي هذه السنة كتب

---

(١) الشهرستاني : نهاية الاقدام ص ٣١٢ .
(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٤٠ .
(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ١٤٠ .
(٤) المرجع السابق جـ ٢ ص ١٤٣ .
(٥) الطبري جـ ٧ ص ١٩٥ - ١٩٧ .

المأمون الى اسحاق بن ابراهيم في امتحان القضاة والمحدثين وأمر بإشخاص جماعة منهم إليه الى الـرّقة . . فأشخصوا اليه ، فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق ، فأشخصهم الى مدينة السلام ، وأحضرهم اسحاق بن ابراهيم داره ، فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ، فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون ، فخلى سبيلهم » .

واتبع المعتصم سياسة أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن ، رغم أنه لم يكن مثله في علمه وثقافته ، واضطهد الامام أحمد بن حنبل وسائر العلماء والقضاة الذين لم يأخذوا برأي المعتزلة في القول بخلق القرآن[1] .

وغالى الواثق بالله (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ) في أخذ الناس بالقول بخلق القرآن ، وكتب بذلك الى جميع ولاته ، فقال الكندي[2] : « لما استخلف الواثق ورد كتابه محمد بن ابي الليث ـ قاضي مصر ـ بامتحان الناس أجمع ، فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ولا مؤذن ولا معلم حتى أخذ بالمحنة ، فهرب كثير من الناس وملئت السجون ممن أنكر المحنة ، وأمر ابن أبي الليث بالاكتتاب على المساجد : لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق ، فكتب ذلك على المساجد بفسطاط مصر ، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد وأمرهم أن لا يقربوه » .

وثار أهل بغداد ضد الواثق ، وتزعمهم أحمد بن نصر[3] بن مالك الخزاعي وأنكروا القول بخلق القرآن ، ودعوا الى عزل الواثق ، ولكن الواثق نجح في إخماد الثورة والقبض على احمد بن نصر ، وحملوه الى الواثق في

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٥٢ .

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ص ٤٥١ .

(٣) كان جده مالك بن الهيثم أحد نقباء بني العباس خلال الدعوة العباسية ، وكان يرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتنفيذ ذلك بيده ، ويجيز الثورة على الحكومة إن جارت ، وكان قد ثار أيضاً على المأمون ، واختفى فلم يصل المأمون إليه .

سامراء ، وناظره في مسألة خلق القرآن وأصر على رأيه ، ورأى الواثق قتله . وحاول القاضي احمد بن أبي دؤاد إنقاذه ولكنه لقي حتفه على يد الواثق نفسه وأمر الواثق بصلب جثته ، في الجانب الشرقي من سامراء ، ثم في الجانب الغربي ، وعلق على أذنه رقعة مكتوب عليها : « هذا رأس الكافر المشرك الضال احمد بن نصر بن مالك ممن قتله الله على يدي عبد الله هارون الامام الواثق بالله أمير المؤمنين ، بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ، ونفى التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع الى الحق ، فأبى الا المعاندة والتصريح . . . . »[1].

وحينما تم الفداء وتبادل الأسرى بين الواثق والروم « وجه من يمتحن الأسرى من المسلمين فمن قال منهم أن القرآن مخلوق وأن الله عز وجل لا يرى في الآخرة ، فودي به ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم »[2].

ثم تولى المتوكل الخلافة ، فبدأ عهد جديد متميز ، ورأى العدول تماماً عن سياسة أسلافه المأمون والمعتصم والواثق . فروى الطبري[3]: « وقد كان المتوكل لما أفضت اليه الخلافة ، نهى عن الجدال في القرآن وغيره ، ونفذت كتبه بذلك الى الآفاق ، وهَمَّ بإنزال احمد بن نصر عن خشبته ، فاجتمع الغوغاء والرعاع الى موضع تلك الخشبة وكثروا وتكلموا ، فبلغ ذلك المتوكل فوجه اليهم نصر بن الليث فأخذ منهم نحواً من عشرين رجلاً فضربهم وحبسهم . وترك إنزال احمد بن نصر من خشبته لما بلغه من تكثير العامة في أمره ، وبقي الذين أخذوا بسببه في الحبس حيناً ثم أطلقوا ، فلما دفع بدنه إلى أوليائه ، حمله ابن أخيه موسى إلى بغداد وغُسل ودُفن وضم رأسه إلى بدنه ».

وروى الكندي[4] ان كتاب الخليفة المتوكل قد ورد على والي مصر هرثمة بن النضر الجبلي يأمره فيه بترك الجدل في مسألة خلق القرآن، والكف

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٢٩ .
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٣٣٢ .
(٣) الطبري جـ ٧ ص ٣٦٨ - ٣٦٩.
(٤) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٩٧ .

عن امتحان الناس وذكر المؤرخ ابو المحاسن[1] أن الواثق كان قد رأى في اواخر حياته الرجوع عن القول بخلق القرآن، ولكن المنية عاجلته قبل أن ينفذ هذا الرأي، حتى اذا تولى المتوكل الخلافة وضع الأمر موضع التنفيذ.

ورغم ان القاضي احمد بن أبي دؤاد هو الذي رشح المتوكل للخلافة بعد وفاة الواثق ـ كما رأينا ـ الا ان المتوكل سخط عليه، ونكل به، وصادر امواله، ونحن نرى ان اشتراك هذا القاضي في امتحان الناس في عهد الواثق، خلال محنة خلق القرآن، كان من عوامل سخط المتوكل عليه. فقد أنشد الشاعر ابو العتاهية بعد التنكيل بابن أبي دؤاد، ثلاثة أبيات وجهها الى القاضي، وهي :

لو كنت في الرأي منسوباً الى الرشد ... وإن عـزمـك عـزمـاً فيـه تـوفيق
لكان في الفقه شغل لو قنعت به ... عن أن تقول كلام الله مخلوق
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم ... ما كان في الفرع لولا الجهل والموق[2]

وفي عهد المتوكل، وفي سنة ٢٣٤ هـ، مات محمد بن عبد الله بن محمد الاسكافي «وكان من أهل النظر والبحث ومن علية أهل العدل». كما مات في نفس السنة جعفر بن المبشر الثقفي، «وكان من كبار أهل العدلية وأهل الديانة من البغداديين»[3]. وكان جعفر مقدماً في الكلام والفقه والحديث والقرآن والنسك والاجتهاد، وله كتب كثيرة ويرى اتباع ظاهر القرآن والسنة والاجماع، ويكره الرأي والقياس[4].

ولا شك أن موقف المتوكل من قضية خلق القرآن، والرجوع عنها وعن مذهب المعتزلة يعتبر شجاعة وجرأة منه. فقد أصبح التمسك بالقضية والمذهب يصور هيبة الدولة والخليفة ولم يجرؤ الواثق على التراجع، رغم قيام ثورة احمد بن نصر بن مالك وسخط عامة المسلمين في سائر الولايات العباسية. وقد أصبح كل من المأمون والمعتصم والواثق رئيس حزب ديني، له آراؤه

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٦٦.
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٢٦٨.
(٣) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٠٣.
(٤) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ٣ ص ١٤٨.

وتعاليمه الخاصة ، ويواجه أحزاب المعارضة ، وخاصة حزب الحنابلة . والناس في كل عصر يتعاطفون مع حزب المعارضة غالباً ، فهو يمثل مركز الضعف ، بينما تمثل الحكومة مركز القوة . ونظر الخلفاء الثلاثة الى المعارضة على انهم مشاغبون ، خارجون على طاعة وتعاليم الدولة مما يوجب تأديبهم وقمعهم .

ووقفت جماعة من عامة الناس تبدي دهشتها لهذا الصراع بين الحكومة والمعارضة فهي قضية جديدة لم تكن في عهد الرسول وخلفائه الراشدين ، ولم يفكر فيها أحد من المسلمين الأوائل رغم صدق عقيدتهم وعمق إيمانهم وسعة علمهم . وقال كثير من عامة الناس : « بأن الكلام في القرآن بدعة يتكلف المجيب ما ليس عليه ، ويتعاطى السائل ما ليس له ، وما نعلم خالقاً إلا الله وما سوى الله فمخلوق ، والقرآن كلام الله »[1]. وعامة الناس على حق ، فعلم الكلام من العلوم الصعبة ، ولم تنجح العامة في فهم واستيعاب تعاليم المعتزلة . والناس دائماً مشغولون بأعباء الحياة ، وبلقمة العيش . والآراء لا تفرض أبداً بواسطة السلطة الحاكمة ، ولا بوسائل الإرهاب والتنكيل ، ولا بد أن تصل الآراء والتعاليم الى العقول والقلوب ، وتخضع لعنصر الاختيار الحر .

أخذ مذهب المعتزلة في الضعف منذ بداية العصر العباسي الثاني ، حيث بدأ المتوكل ، أول خلفاء هذا العصر ، عهده بنهي الناس عن القول بخلق القرآن ، وتوج انتصار مذهب أهل السنة بظهور أبي الحسن الأشعري[2]، ذلك أنه لم يكد يمضي اثنا عشر عاماً على موت المتوكل حتى ولد (سنة ٢٦٠ هـ) ذلك الرجل الذي تربى بين أصحاب مذهب المعتزلة ، ثم رفض تعاليمهم في الأربعين من عمره بعد أن تسلح بالأسلحة المنطقية التي أمدوه بها وحاربهم بها بقية حياته ، وحمل على آرائهم حملة كتب لها التوفيق والنجاح . ذلك الرجل هو ابو الحسن الأشعري[3].

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ٣٢٧ .

(٢) وهو من أحفاد أبي موسى الأشعري ، الفقيه المعروف ، والذي كان أحد الحكمين بعد موقعة صفين التي كانت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان .

(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ٣١٨ .

وكان لإبطال المتوكل لمحنة خلق القرآن ، أثره في فوزه بشعبية واسعة فنال رضا عامة المسلمين ، وتناسوا ما عرف عنه من إقبال على الخمر والمجون ، فيقول الحصري[1] : « كان المتوكل أول من أظهر من خلفاء بني العباس الانهماك على شهوته ، وكان أصحابه يستخفون بحضرته ، وكان يهاتر الجلساء ويفاخر الرؤساء ، وهو مع ذلك محبب من قلوب الناس اذ أمات ما أحياه الواثق من إظهار الاعتزال والجدال » .

اعتمد المتوكل على قوة الرأي العام ضد الاعتزال وما سببته هذه المسألة من مشاكل للدولة فرأى أن يخلص من هذه المشاكل ، ويريح نفسه وحكومته منها ، ولم يقف موقف الحياد ، بل أظهر الميل للمحدثين ووقف بجانبهم[2] .

دعا المتوكل المحدثين الى سامراء ، وأجزل العطاء لهم وأكرمهم وجلس ابو بكر بن أبي شبية في جامع الرصافة ، فاجتمع حوله ثلاثون ألف مسلم ، وجلس أخوه في جامع المنصور فاجتمع حوله نفس العدد. وتوجه الجميع بالدعاء الى المتوكل ، وأثنوا عليه ، وعظموا قدره[3] . وبدأ انتقام المحدثين وأهل السنة من المعتزلة ، بالأيدي ، وبالعلم . وكان عهد المتوكل هو نهاية أمجاد المعتزلة وقوتهم ، فقد فقدوا سلطتهم نهائياً .

ومدح أبو بكر بن الخبازة المتوكل فأنشد :

وبعد فإن السنة اليوم أصبحت	معززة حتى كأن لم تذلل
تصول وتسطو اذ أقيم منارها	وحُط منار الإفك والزور مِن عَلِ
وولى أخو الإبداع في الدين هارباً	الى النار يهوي مدبراً غير مقبلِ
شفى الله منهم بالخليفة جعفرٍ	خليفته ذي السنة المتوكلِ
خليفةَ ربي وابن عم نبيه	وخير بني العباس من منهم ولِي

(١) الحصري : زهر الآداب ص ٢٧٠ .
(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ٣ ص ١٩٨ .
(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٣٨ .

٦ ـ موقف المتوكل من الإمام أحمد بن حنبل

كان مولد الإمام أحمد بن حنبل في ربيع الأول سنة ١٦٤هـ في بغداد ، وهو عربي من بني شيبان[١] ، وشارك جده حنبل بن هلال في الدعوة العباسية ، ولحقه الأذى من الأمويين . وعاشت الأسرة في بغداد ، تعمل للخلافة العباسية . ونشأ أحمد يتيماً ، فقيراً . وتلقى تعليمه في بغداد التي كانت تموج بالآراء والتعاليم والمعارف ، وحفظ القرآن ، وعلوم اللغة ، وتدرب في الديوان على التحرير والكتابة ، واشتهر بالنبوغ والاستقامة والتقوى ، ودرس على القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة فترة ، ثم مال إلى المحدثين ، واطلع على ما أنتجته عقول الفقهاء العراقيين من فتاوى وأقضية وتجريح . وأخذ عن علماء الحديث في العراق والشام والحجاز ، وتكررت رحلاته ، وتحمل المشاق في طلب الحديث . ثم جلس للتحديث والفتوى ، وتمسك بما أثر عن السلف[٢] .

عارض أحمد بن حنبل تعاليم المعتزلة ، وما ذهب إليه المأمون حول خلق القرآن . وأراد المأمون حمل ابن حنبل على أن يقول مقالته في خلق القرآن . وكتب المأمون عدة كتب إلى عامله ببغداد وإلى ولاة الأمصار . وقد كان الكتاب الأول من هذه الكتب لشرح الفكرة وبسط الرأي . والكتاب الثاني لإشخاص المحدثين السبعة إليه في طرسوس لمحاجتهم ومناقشتهم والكتاب الثالث يؤكد فيه نصح الخليفة للرعية واجتهاده في الرأي وإصراره في حمل الناس إليه . والكتاب الرابع يوبخ فيه الممتنعين عن الإجابة بخلق القرآن ويتوعدهم . والكتاب الخامس ينكر فيه أشد الإنكار على من أجابوا تقية[٣] . وقد كان أحمد بن حنبل في قائمة هؤلاء السبعة الذين أراد المأمون أن يمتحنهم على انفراد ، ولكي يضغط عليهم ضغطاً يجعلهم يستسلمون ويجيبون . ولكن

---

(١) وهي قبيلة عربية عدنانية ، ونزل بنو شيبان البصرة عند إنشائها ، وكان منها المثنى بن حارثة .
(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٤ ص ٤١٥ وما بعدها ، ابن الجوزي : المناقب ص ٢٠ وما بعدها ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٢٦ ، وما بعدها .
(٣) انظر هذه الكتب في تاريخ الطبري جـ ٧ ص ٥٢ وما بعدها .

أحمد بن أبي دؤاد رأى كياسة أو دهاء أن يرفع اسم أحمد بن حنبل من القائمة ، لكيلا يرى العلماء صلابته فيتشجعوا به ، فرفع اسمه[١] .

أرسل والي بغداد سبعة علماء[٢] إلى المأمون في صورة لا تليق بكرامة العلماء ولا بهيبة المحدثين . وكان المقصود أن تكون نوعاً من التخويف والإرهاب . ولم يتحمل العلماء السبعة تهديد ووعيد المأمون ، فأجابوه بخلق القرآن ، ووافقوا على رأيه . مما أدى إلى سخط الرأي العام ، وقال أحمد بن حنبل : « لو كانوا صبروا وقاموا لله ، لكان انقطع الأمر ، وحذرهم الرجل » .

وقدم كتاب ثالث على اسحاق بن إبراهيم ، والي بغداد ، يطلب المأمون فيه امتحان العلماء والفقهاء ، فجمع الوالي عدداً منهم ، كان أحمد بن حنبل في مقدمتهم . وتفاوتت اجابات العلماء ، وحرص معظمهم على أن يجيب إجابات مجملة أو غامضة ، كما حرص بعضهم على أن يتستر بالعبارات الحرفية الواردة في القرآن . أما أحمد بن حنبل فكان صريحاً جريئاً . وكتب الوالي إلى المأمون بإجابات العلماء ، فهاج وماج ، وكتب كتابه الخامس المملوء بالتعنيف والتقريع والتوبيخ ، وأطلع والي بغداد العلماء على كتاب المأمون وجاء فيه عن أحمد بن حنبل : « وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه ، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها ، واستدل على جهله وآفته بها »[٣]. وهكذا وصف المأمون ابن حنبل بالجهل، وقد كان بالأمس يجله ويحترمه . وأصر ابن حنبل على رأيه ، ورأى المأمون إشخاصه إليه في طرسوس .

برز اسم الإمام أحمد بن حنبل على رأس المعارضين لفكرة خلق القرآن ، بروزاً شغل المأمون وهو في ميدان الحرب وعكر صفوه . وقد كان هو

(١) الدومي : أحمد بن حنبل ص ١٣٠ .

(٢) هم : محمد بن سعد كاتب الواقدي ، وأبو مسلم مستملي يزيد بن هارون ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب أبو خيثمة ، وإسماعيل بن داود ، وإسماعيل بن أبي مسعود ، وأحمد بن إبراهيم الدورقي .

(٣) ابن الجوزي : المناقب ص ٢٧ ، الطبري جـ ٧ ص ٥٥ .

وأحمد بن أبى دؤاد يعملان حساباً لمعارضة ابن حنبل ، لما يعلمان عنه من التفاف الناس حوله ، وإكبارهم إياه[١] .

أشخص والي بغداد ابن حنبل ومحمد بن نوح من بغداد إلى طرسوس ، محمولين على بعيرين ، مقيدين بالقيد الثقيل . وفي الطريق ، قبل أن يصلوا إلى طرسوس ، مات الخليفة المأمون ، ورد ابن حنبل وابن نوح إلى الرقة وفي الطريق مات ابن نوح ، وعاد ابن حنبل إلى بغداد حيث ألقي به في السجن[٢] .

أوصى المأمون خلفه وأخاه المعتصم بشيئين ، أولهما : الاستمرار في المحنة ، وثانيهما : الاهتمام بأحمد بن أبى دؤاد وإشراكه معه في كل الأمور ، فهو المنفذ لفكرة خلق القرآن وأصبح قاضي القضاة[٣] . ولم يكن المعتصم رجل علم ، بل كان رجل سيف ، فترك أمر خلق القرآن لابن أبي دؤاد[٤] .

ومن سجن بغداد ، سيق أحمد بن حنبل إلى المعتصم ، واتخذت معه ذرائع الإغراء والإرهاب ، دون جدوى فضربوه بالسياط المرة بعد الأخرى ، وتكرر ذلك مع حبسه نحواً من ثمانية وعشرين شهراً ، فلما استيأسوا منه أطلقوا سراحه ، وأعادوه إلى بيته وقد أثخنته الجراح ، وأثقله الضرب المبرح المتوالي ، والإلقاء في غيابات السجون[٥] .

قضى أحمد بن حنبل فترة في بيته ، استرد خلالها صحته وقواه ، ثم خرج إلى المسجد يحدِّث ويدرِّس حتى مات المعتصم ، وتولى الواثق ، وعادت المحنة ثانية ، ولكن الواثق لم يلجأ إلى الضرب والتعذيب ، فقد نال ابن حنبل في عهد المعتصم عطفاً من الناس، وحاز شعبية واسعة بين العامة[٦]. فمنعه الواثق من الاجتماع بالناس ، وعاش ابن حنبل في عزلة لا يخرج إلى صلاة حتى مات الواثق سنة ٢٣٢هـ .

---

(١) الدومي : أحمد بن حنبل ص ١٤٨ .
(٢) ابن الجوزي : المناقب ص ٢٩ .
(٣) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٥٧ .
(٤) أبو زهرة : ابن حنبل ص ٦٥ .
(٥) ابن الجوزي : المناقب ص ٢٦٠ .
(٦) كان ابن أبي دؤاد يستخدم تعبير (حشو الأمة) .

وعاد أحمد بن حنبل في عهد المتوكل إلى الدرس والتحديث مكرماً عزيزاً ترفعه عزة التقى ، وجلال السن والقناعة والزهادة وحسن البلاء ، فقد ذهبت دولة المحنة والبلاء ، وجاءت دولة الاطمئنان والقرار(١) .

وما لبث أحمد بن حنبل أن تعرض لمحنة جديدة في عهد المتوكل ، ولكنها من لون جديد ، ولا ترتبط بقضية خلق القرآن ، إنما كانت نتيجة السعاية والوشاية . فقد رأينا المتوكل في الباب الأول من هذا البحث ، يبدي عداء شديداً في سنة ٢٣٦هـ للعلويين مما أسخط عليه عامة الناس . وفي سنة ٢٣٧هـ أرسل المتوكل إلى أحمد بن حنبل يدعوه للقدوم عليه في العاصمة ، ولبى الإمام الدعوة .

وفي الطريق رأى ابن حنبل قضاء الليلة في مسجد في موضع يقال له (بصرى) ، ثم فوجىء بأمر يصل إليه بالرجوع ، إذ سعى الوشاة به إلى المتوكل ، فاتهموه بأنه يؤوي في داره علوياً . ووجه الخليفة حاجبه الخاص وصاحب البريد ليفتشا الدار ، وقامت امرأتان تعملان لصاحب البريد بتفتيش نساء الدار ، بل انهم دلوا شمعة في البئر ، ولم يجدوا شيئاً . وجاء إلى الإمام كتاب من علي بن الجهم ، نديم الخليفة وشاعره ، يعلن فيه ثبوت براءته ، ويدعوه للقدوم على الخليفة ، وحمل الرسول مع الكتاب جائزة قدرها عشرة آلاف درهم ، وفي الكتاب نصيحة خاصة من علي بن الجهم يحذره من رفض الجائزة ، إذ هو يعرف قناعته وزهده . وقبل الإمام الجائزة ، متورطاً ، وأمر ابنه صالحاً بحفظها حتى الصباح ، وبات مهموماً ، يبكي ، ويقول : أسلمت من هؤلاء من ستين سنة حتى إذا كان آخر عمري بليت بهم(٢) .

وفي الصباح ، فرق ابن حنبل المال كله في ابناء المهاجرين والأنصار ، والمحتاجين والفقراء . فقد كان ابن حنبل يرى أن هذا المال لسد الثغور وإعداد العتاد ، ومد الجند ، وإغاثة المحتاج . وقد قبل ابن حنبل الجائزة قطعاً لألسنة

---

(١) أبو زهرة : ابن حنبل ص ٧٧ .
(٢) ابن الجوزي : المناقب ص ٣٦٩ .

الوشاة وأهل السوء التي لا تني عن تحريض المتوكل ضد ابن حنبل[1] .

وكتب صاحب البريد إلى المتوكل بتفريق ابن حنبل أموال الجائزة في الناس ، وغضب الخليفة ، ولكن نديمه علي بن الجهم أزال غضبه حين قال له : يا أمير المؤمنين ، قد علم الناس أنه قبل منك ، وما يصنع أحمد بالمال وقوته رغيف ؟ فقال المتوكل : صدقت .

ورحل ابن حنبل إلى العاصمة تلبية لدعوة الخليفة المتوكل . فإذا الرجل الذي رفع رأسه في وجوه الجبابرة الثلاثة ـ المأمون والمعتصم والواثق ـ يراه الناس يمشي منكس الرأس تواضعاً لله في مقام الانتصار، وتذكيراً للمسلمين بالضعف الانساني في مركز القوة[2] .

وجاء رسول المتوكل على ابن حنبل يقول له : إن أمير المؤمنين يكثر ذكرك ، ويشتهي قربك ، وأن تقيم هنا تحدث . فيقول الإمام : أنا ضعيف . ويضع يديه على بعض أسنانه ، ثم يقول : إن بعض أسناني تتحرك وما أخبرت بذلك ولدي .

وكان المتوكل قد أمر لابن حنبل بعشرة آلاف درهم بدلاً من تلك الجائزة التي فرقها بين الناس ، وأمر الخليفة ابنه صالحاً ألا يعلم أباه بهذه الجائزة الجديدة حتى لا يغتم .

ثم تقدم الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان إلى الإمام يقول له : إن الخليفة أمر أن تكون لك مرتبة في أعلى المراتب ، وأن يكون ولي عهده ـ المعتز ـ في حجرك . كما أعلمه الوزير أن المتوكل خصص له ولأهله جراية أربعة آلاف درهم كل شهر . وفي اليوم التالي ، صحب الوزير الإمام إلى دار المعتز ، ولي العهد . وجلس المتوكل مع أمه وراء ستر ، ينظران إلى هذا الإمام الجليل ، ثم قال لأمه : « يا أماه ، قد دخل الدار ، أو قد نارت الدار » . وألبس الوزير الإمام طيلساناً وقلنسوة وقميصاً . ولكن مظاهر التكريم لم تدخل

---

(١) أبو زهرة : ابن حنبل ص ٧٧ .
(٢) الجندي : أحمد بن حنبل ص ٥٠٧ .

السرور إلى قلب الإمام بل عاد إلى داره يبكي ويقول : « سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة ، حتى إذا كان آخهر عمري بليت بهم . ما أحسبني سلمت منذ دخولي على هذا الغلام ، فكيف بمن يجب علي نصحه من وقت أن تقع عليه عيني إلى أن أخرج من عنده »[1] .

أنزل المتوكل الإمام أحمد بن حنبل دار (ايتاخ) التركي . ولم يتحمل الإمام ما حفل به القصر من وسائل الترف والرفاهية ، ولم يرتح للفراش الوثير ، وللطعام الشهي . ومرض الإمام فعاده طبيب الخليفة يوحنا بن ماسويه النصراني ، ووجد الطبيب أن علته قلة الزاد ، وطول السهاد ، ولم ينفذ الإمام تعاليم الطبيب ، بل طلب مغادرة القصر ، فاستأجروا له داراً أخرى ، ولكن الإمام عاود طلب مغادرتها ، فأكروا له داراً متواضعة بمائتي درهم ، وفيها واصل صيامه . فكان يصوم ثلاثة أيام متوالية ، يفطر بعدها على تمر . ورفض الإمام في إصرار شراء دار له ، وقال لابنه صالح : لئن أقررت لهم بشرائها لتكونن القطيعة بيني وبينك إنما يريدون أن يكون هذا البلد لي مأوى أو مسكناً[2] .

وقدم رسل المتوكل على الإمام يطلبون منه لقاء الخليفة ، فيسكت ولا يرد عليهم . ثم قدم رسول يلح عليه في مقابلة المتوكل ، ويقول : أمير المؤمنين مشتاق إليك ويقول أنـظر اليوم الذي تصير إليه فيه حتى أعرفه . فقال الإمام : ذلك اليكم . فقال الرسول : يوم الأربعاء خال . وادرك المتوكل طبائع ابن حنبل ، فأعفاه من لقائه ، وبعث إليه برسول يقول له : أبشر أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك قد أعفيتك من لبس السواد والركوب إلى ولي العهد وإلى الدار (أي القصر) . وحمد الإمام الله تعالى ، فقد كان يدعو ربه دائماً حتى لا يلقى المأمون والمتوكل[3] .

ورأى الإمام أن يبعد ابنيه صالحاً وعبد الله عن العاصمة فيعودا إلى

---

(١) ابن الجوزي : المناقب ص ٣٨٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٨٦ .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٤ ص ٤٢٠ وما بعدها .

وطنهما بغداد ، حتى لا يتأثرا بمظاهر الترف والرفاهية . وقضى ابن حنبل أيامه في سامراء حزيناً مهموماً ، لا يأكل ، فأصابه الهزال ، وكان يقول : إني لأتمنى الموت صباح مساء ، لقد تفكرت البارحة فقلت هذه محنتان ، امتحنت بالدين (أي في القرآن) ، وهذه محنة الدنيا .

وتدخل الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، ونديم الخليفة علي بن الجهم ، لينقذا أحمد بن حنبل مما سماه بمحنة الدنيا . فقال ابن الجهم للمتوكل : يا أمير المؤمنين ، هذا رجل زاهد لا ينتفع به فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن له . وأتوا للإمام بحراقة تنقله في نهر دجلة إلى بغداد ، ورفض الإمام ركوب الحراقة الفخمة ، وركب زورقاً متواضعاً، حتى إذا وصل إلى داره في بغداد ، تجرد من الثياب التي خلعها الخليفة المتوكل عليه ، وأمر ببيعها والتصدق بثمنها ، وعاد إلى ثيابه القديمة الخشنة البسيطة[١] .

وتمر الأيام ، ويمر المتوكل ببغداد في طريقه إلى المدائن ، وخرج العلماء للقاء المتوكل ، ولم يخرج أحمد بن حنبل . وتوجه الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان إلى بيت الإمام ، في زقاق صغير ، فأقرأه سلام الخليفة ، وطلب منه الدعاء له ، وأعطاه ألف دينار يفرقها على ذوي الحاجة . وداوم المتوكل السؤال عن ابن حنبل واستشارته في بعض الأمور[٢] .

تحدث المسعودي[٣] عن وفاة الإمام أحمد بن حنبل فقال : « وكانت وفاة أحمد بن حنبل في خلافة المتوكل بمدينة السلام وذلك في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين ومائتين ، ودفن بباب حرب ، في الجانب الغربي ، وصلى عليه محمد بن طاهر ، وحضر جنازته خلق من الناس لم ير مثل ذلك اليوم والاجتماع في جنازة من سلف قبله ، وكان للعامة فيه كلام كثير جرى بينهم بالعكس والضد في الأمور منها أن رجلاً منهم كان ينادي : العنوا الواقف عن الشبهات ، وهذا بالضد عما جاء عن صاحب الشريعة عليه السلام في ذلك ، وكان عظيم من

(١) المقريزي : المقفى ص ٢٤١ .
(٢) ابن الجوزي : المناقب ص ٢٦٠ .
(٣) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٠٢-١٠٣ .

عظمائهم ومقدم فيهم يقف موقفاً بعد موقف أمام الجنازة وينادي بأعلى صوته :

وأظلمت الدنيا لفقد محمد   وأظلمت الدنيا لفقد ابن حنبل

يريد بذلك أن الدنيا أظلمت عند وفاة محمد عليه السلام وأنها أظلمت عند موت ابن حنبل ، كظلمتها عند موت الرسول ﷺ .

٧ ـ الاتجاهات الفكرية في عهد المتوكل

لكل عصر ميزاته واتجاهاته الفكرية . ومن أبرز خصائص عصر المتوكل ، توقف محنة خلق القرآن ، وضعف مذهب الاعتزال ، وانتعاش مذهب السنة ، وعلو شأن المحدثين . لقد نهج المتوكل نهج الخليفة أبي جعفر المنصور . ولم ينهج منهج المأمون أو منهج أبيه المعتصم . وكان المنصور أصدق نظراً من المأمون ، فأدرك المنصور ـ حق الادراك ـ مركز الخلافة ، وأنها فوق الأحزاب ، وفوق المذاهب الدينية ، يستعين بكل المذاهب ، ولا يخضع سلطانه لواحد منها . يقرب المعتزلة إذا شاء ، ويقرب المحدثين والفقهاء ما لم تقض تعاليم أحدهم بشيء يمس سلطانه .

ولكن المأمون خلط بين منصب الخليفة ومنصب المعلم ، فأراد أن يكون خليفة ومعلماً معاً ، وفاته أن طبيعة الملك والخلافة إصدار الأوامر الحاسمة التي لا تتحمل جدلاً ولا مناقشة وطبيعة المعلم أن يعرض النظريات ، ثم توضع النظريات على بساط البحث ، فتارة تقبل وتارة ترفض والطبيعتان مختلفتان ، فتتعرض قوانين الدولة وأوامر الخليفة للعبث بها ، والشك فيها مفسد لها . ونظريات العلم إذا اتخذت شكل قانون أفسدت العلم . وهذا ما حدث من المأمون يوم أن أصدر « قانوناً » بخلق القرآن ، فقد صبغ هذه النظرية العلمية بصبغة الأوامر الرسمية ، وعاقب مخالفها معاقبة من يخالف أمراً رسمياً ، فكانت النتيجة إخفاقاً تاماً له ، ثم للمعتصم . وكانت أيضاً إخفاقاً للمعتزلة ، فقد غامروا في الفتنة ، وتولوا أمر المحنة[1] .

---

(١) احمد أمين : ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٢٠٢ .

رسم المسعودي[1] اتجاهات المتوكل الفكرية ، فقال : « ولما أفضت الخلافة إلى المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال ، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق والمأمون ، وأمر الناس بالتسليم والتقليد ، وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة » .

وهكذا أصبح « التسليم والتقليد » أساساً للاتجاهات الفكرية في عهد المتوكل . وقد التزم العلماء والمفكرون بهذا المنهج ، فكان هناك تسليم بالقضاء والقدر وتسليم بما كان وما يكون وتقليد للسابقين وتقليد في الفتاوى والآراء ، ومن ثم تكاد تكون الكتب المؤلفة في الحديث والفقه والتفسير بل والنحو واللغة في عهد المتوكل صورة واحدة ، إن اختلفت في شيء فاختلاف في الاطناب والايجاز والبسط والاختصار . أما الترتيب فواحد ، وأما الأمثلة فواحدة . وأما العبارة الغامضة في الكتاب الأول ، فغامضة في الكتاب الأخير ، كلها خضعت لأمر المتوكل بالتسليم والتقليد وانعدمت فيها كلها الشخصية ، لأن الشخصية عدوة التسليم والتقليد[2] .

وتحول المسار الفكري في عهد المتوكل ، وضاعت آمال المعتزلة . فقد كانوا يؤملون في استمرار اتخاذ الاعتزال مذهباً رسمياً تحت حماية الدولة ، وفي تحول معظم المسلمين إلى معتزلة فيتحررون في أفكارهم ولا يتقيد المشرعون بالحديث تقيد المحدثين إنما يستخدمون العقل ويزنون الأمور بالمصالح العامة ولا يرجعون إلى نص إلا أن يكون قرآناً أو حديثاً مجمعاً عليه . وأرادت المعتزلة أيضاً أن تحرر عقول المؤرخين من المسلمين ، فيتعرضون للأحداث الإسلامية بعقل صريح ونقد حر ، فيضعون أعمال الصحابة والتابعين في ميزان النقد . كما أرادت المعتزلة أن تنهل العقول من فلسفة اليونان والفرس والهند ، مما لا يتنافى مع القرآن والحديث المجمع عليه ، فتتحرر عقول العامة من الخرافات ، ولا يشلها الخوف من الله تعالى ، لأن الله في نظر المعتزلة ليس حاكماً مستبداً بل هو سبحانه وتعالى قد ألزم نفسه بقوانين العدل ثم يؤمن الناس أنهم

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٨٦ .
(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٢٠٣ .

متسلطون على إرادتهم قادرون على الخير والشر فلا يرتكن أحد إلى القدر . فإذا انتشرت هذه التعاليم بين الناس ونفذتها الحكومة ، أصبح العالم الانساني في أحسن حال ، ولا بأس أن تكون هناك محنة أو بعض الضحايا فالغاية تبرر الوسيلة ، ولا بد من الخوض في كثير من الباطل للوصول ـ في رأيهم ـ إلى الحق[1] .

ويكاد السيوطي[2] ينفرد بذكر اعتناق المتوكل المذهب الشافعي ، فيقول : « عن هشام بن عمار أنه قال : سمعت المتوكل يقول : واحسرتا على محمد بن ادريس الشافعي ، كنت أحب أن أكون في أيامه فأراه وأشاهده ، وأتعلم منه ، فاني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول : يا أيها الناس إن محمد بن ادريس المطلبي قد صار إلى رحمة الله وخلف فيكم علماً حسناً فاتبعوه تهدوا . ثم قال : اللهم ارحم محمد بن ادريس رحمة واسعة وسهل حفظ مذهبه ، وانفعني بذلك » .

ثم يقول السيوطي : « استفدنا من هذا أن المتوكل كان متمذهباً بمذهب الشافعي ، وهو أول من تمذهب له من الخلفاء » .

اهتم المتوكل بعلم الحديث ، وقد رأيناه يستقدم المحدثين الى سامراء ، ويجزل لهم العطاء وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرُؤية . وعقد السيوطي[3] فصلاً بعنوان « أحاديث من رواية المتوكل » . كما ذكر السيوطي أعلام الفكر الذين توفوا في عهد المتوكل ، فكان منهم : أبو ثور ، والإمام أحمد بن حنبل ، واسحاق بن راهويه النديم ، وروح المقرىء ، وزهير بن حرب ، وسحنون ، وأبو مسعود العسكري ، وأبو بكر بن أبي شيبة واخوه[4] وديك الجن الشاعر ، وعبد الملك بن حبيب إمام المالكية ، وعبد العزيز بن

---

(١) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٩٧ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٣٥٥ .

(٤) جلس أبو بكر في جامع الرصافة ، وجلس أخوه في جامع المنصور يحدثون الناس ، بأمر من المتوكل .

يحيى الغول أحد أصحاب الشافعي ، وعلي بن المديني ، ويوسف الأزرق المقرىء ، وبشر بن الوليد الكندي المالكي ، وابن أبي دؤاد[1] ، وأبو بكر الهذلي العلاف شيخ الاعتزال .[2] وجعفر بن حرب من كبار المعتزلة ، وابن كلاب المتكلم ، والقاضي يحيى بن أكثم والحارث المحاسبي ، وحرملة صاحب الشافعي ، وابن السكيت ، وأحمد بن منيع ، وذو النون المصري الزاهد ، وأبو تراب التخشبي ، وأبو عمر الدوري المقرىء ، ودعبل الشاعر ، وأبو عثمان المازني النحوي ، وغيرهم .

وأدى الانقلاب الفكري في عهد المتوكل ، إلى اهتمام بالفكر والكتب . وكان الجاحظ والفتح بن خاقان أكثر الأدباء المعاصرين للمتوكل اهتماماً بالكتب . أما الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة . ويذكر المؤرخ أبو الفدا أنه مات في حب الكتب ، إذ سقطت عليه مجلدات ضخمة ، وكان عليلاً ، فقتلته .[3]

أما الفتح بن خاقان ، فكان من كبار رجال دار الخلافة ، وكان يحضر لمجالسة المتوكل فاذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمه أو خفه وقرأه في مجلس المتوكل إلى عوده اليه .[4] وقد أقام علي بن يحيى المنجم وكان منجم المتوكل خزانة كتب عظيمة في ضيعته وسماها خزانة الحكم ، وسمح للناس بالاستفادة من الكتب ، ووفر علي بن يحيى للقراء وسائل الاطلاع وأنفق على المكتبة كثيراً من الأموال .[5]

وكان الناس محتاجين الى الكتب ، فقد مضى عصر الابتكار في الفكر والتشريع ، واعتبر العلماء الأولون كالمعصومين وأصبح الفقيه لا يستطيع إصدار حكمه الخاص إلا في المسائل الصغيرة ، وأمر المتوكل بالالتزام بالسنة القديمة

---

(١) يقول السيوطي عنه : « ذاك الكلب لا رحمه الله » ص ٣٥٦ .
(٢) يسميه السيوطي : « رأس أهل الضلال » .
(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر (أحداث سنة ٢٥٥ هـ) .
(٤) ابن النديم : الفهرست ص ١١٦ ـ ١١٧ .
(٥) ياقوت : الإرشاد ص ٤٦٧ (تنبأ المنجم بأن الخليفة العاشر يقتل) .

فأصبحت الحياة تقاس بمقاييس القرآن الكريم والسنة النبوية.[١]

وكان المتوكل يكرم العلماء ويقربهم ، وقد رأينا كيف حاول المتوكل إكرام الإمام أحمد بن حنبل . ويروي السيوطي[٢] عن تكريم المتوكل لذي النون رغم انه ابتعد عن السلف فيقول : « إن ذا النون أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية فأنكر عليه عبد الله بن الحكم ، وكان رئيس مصر ومن جلة أصحاب مالك وأنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السلف ، ورماه بالزندقة ، فدعاه أمير مصر وسأله عن اعتقاده ، فتكلم ، فرضي أمره ، وكتب به إلى المتوكل ، فأمر باحضاره ، فحمل على البريد ، فلما سمع كلامه أولع به وأحبه وأكرمه حتى كان يقول : إذا ذكر الصالحون فحيهلا بذي النون » .

ورغم انشغال المتوكل بمشاكل الدولة وصراعه مع الأتراك ، ومواجهة الهجمات البيزنطية ، كان يحرص على مجالسة الشعراء والمغنين والندماء الأدباء .[٣] ويذكر السيوطي[٤] أنه ما أعطى خليفة شاعراً ما أعطاه المتوكل .

ومن أشهر الندماء الشعراء المقربين إلى المتوكل علي بن الجهم ، الذي قال عنه المسعودي[٥] : « وكان علي بن الجهم السامي مع انحرافه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وإظهاره التسنن مطبوعاً مقتدراً على الشعر ، عذب الألفاظ ، غزير الكلام » .

وقد عرف علي بن الجهم طريق الوصول إلى المتوكل ، فقد هاجم العلويين في شعره ، وأظهر التسنن وقد استعان المتوكل به خلال فترة صراعه مع العلويين، وقد كان الشعر سلاحاً لكل من المتوكل والعلويين. فقد سخط

---

(١) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٣٦٩ .
(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٥٠ .
(٣) الأصفهاني : الأغاني جـ ٣ ص ١٧٧ .
(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٩ .
(٥) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١١١ .

أهل بغداد حين هدم المتوكل قبر الحسين بن علي ، وهجاه الشعراء ، فقال أحدهم : (١)

بالله إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمري قبره مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبعوه رميما

واشتبك علي بن الجهم في صراع فكري مع شعراء العلويين حتى طعنوا في نسبه ، وتولى تلك الحملة الشاعر العلوي علي بن محمد بن جعفر ، وقد ذكر المسعودي أبيات الشعر التي تبادل الشاعران إنشادها .(٢)

وحين اضطهد المتوكل أهل الذمة ، أنشد علي بن الجهم أبياتاً يؤيد فيها سياسة الخليفة وامتدح أمر الخليفة بارتداء الذميين « الثياب العسلية » ، فأنشد : (٣)

العسليات التي فرقت ... بين ذوي الرشدة والغي
وما على العاقل ان يكثروا ... فانه أكثر للغي

كما وقف علي بن الجهم إلى جانب المتوكل حين نكل ببعض رجاله وصادر أموالهم ، فأنشد ابن الجهم بعد سجن عمر بن فرج الرخجي ومصادرة أمواله :(٤)

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما ... تيه الملوك وأفعال المماليك
أردت شكراً بلا بر ومرزئة ... لقد سلكت سبيلاً غير مسلوك
ظننت عرضك لم يقرع بقارعة ... وما أراك على حال بمتروك

وفي سنة **٢٣٩** هـ غضب المتوكل على شاعره علي بن الجهم ، ونفاه إلى خراسان ولم يعد إلى العراق إلا في سنة **٢٤٩** هـ ، بعد موت المتوكل .(٥)

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٧ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١١١-١١٢ .
(٣) الطبري جـ ٧ ص ٣٥٧ .
(٤) الطبري جـ ٧ ص ٣٤٧ .
(٥) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١١١ .

وقد خلد علي بن الجهم الخليفة المتوكل في شعره ، ومن الأبيات التي مدح بها المتوكل :(1)

بـسـرمـن را إمـام عـدل تـغـرف من بـحـره الـبحـار
الـمـلك فـيـه وفي بـنـيـه مـا اختلف الـليـل والـنـهـار
يـرجى ويخشى لكـل خـطب كـأنـه جـنـة ونـار

وكان للمتوكل جارية شاعرة تدعى (فضل) ، وكان يحلو له أن يستمع إلى شعرها . فكان مما أنشدت :(2)

استقبـل الملك إمـام الهـدى عـام اثـنـيـن وثـلاثـيـنـا
خـلافـة أفضت إلى جـعـفـر وهـو ابن سبع بعـد عشرينـا
إنّـا لنرجـو يـا إمـام الهدى أن تـملك الـملك ثـمـانـيـنـا
لا قـدس الله امرأً لم يقـل عـنـد دعـائي لـك : آمـيـنـا

وأشهر شعراء عصر المتوكل هو ابو عبادة الوليد البحتري (٢٠٦ ـ ٢٨٥ هـ) ، وعاش في سامراء واتصل بالمتوكل ووزيره الفتح بن خاقان والأمراء العباسيين ، ومدحهم ونال جوائزهم . وقد كان البحتري شاهداً عياناً لمصرع المتوكل . وقد اعتمدنا على روايته في تصوير هذه المأساة في الباب الأول ، وقد اتصل البحتري بأبي تمام الذي قال له : « أحسنت ، أنت أمير الشعراء بعدي » وسئل أبو العلاء المعري : أي الثلاثة أشعر : أبو تمام ، أم البحتري ، أم المتنبي ؟ فأجاب : المتنبي وأبو تمام حكيمان ، وانما الشاعر البحتري .(3)

مدح البحتري الخليفة المتوكل بقصيدة عصماء ، في يوم عيد فطر ، فأنشد(4) :

الـله مكـن للخـليـفـة جـعـفـر ملكـاً يحسنه الخليفـة جعفـر

(1) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٧ .
(2) المصدر السابق ص ٣٥٣ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٥ ص ١٦٨ .
(3) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٧٦ .
(4) ديوان البحتري ص ١٠ .

فانعم بيوم الفطر عيداً إنه يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بجحفل لجب يحاط الدين فيه وينصر

ومن أشهر أبيات البحتري في مدح المتوكل : [1]

عن أي ثغر تبتسم وبأي طرف تحتكم
حسن يضيء بحسنه والحسن أشبه بالكرم
قل للخليفة جعفر المتوكل ابن المعتصم
المرتضى ابن المجتبى والمنعم ابن المنتقم
أما الرعية فهي من أمنات عدلك في حرم
يا بانيَ المجد الذي قد كان قُوض فانهدم
اسلم لدين محمد فاذا سلمت فقد سلم
نلنا الهدى بعد العمى بك والغنى بعد العدم

ومن أشهر الأدباء المعاصرين للمتوكل ، الجاحظ ، وقد ذاع صيته في ذلك العصر . وقد كتب الجاحظ في كل شيء ، وكان أسلوب الجاحظ مستحدثاً لم يستحكم في التجربة ، وكثيراً ما يشوب طريقته في الكتابة الثرثرة والاستطراد إلى حد الإملال ، ولكن هذا بعينه هو ما كان موضع الإعجاب بالجاحظ . وكانت العامة تشعر أن الجاحظ ابتكر طريقة تنقذهم من طريقة العلماء السائدة في ذلك العصر ، والتي كانت ثقيلة لكثرة ما فيها من الجد وإظهار العلم . وكان المعجبون بالجاحظ يعتبرون الثرثرة الطبيعية الجميلة فناً تعمد الجاحظ أن يعالجه .[2]

قال المسعودي[3] عن منهج الجاحظ : « وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة ظريفة » . ويمتدح المسعودي كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ ، ويقول عنه انه أشرف كتب الجاحظ . « لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ،

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٩١ .
(٢) متز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٤٢٤ـ٤٢٥ .
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠٢ .

ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به » .

ومن أشهر مفكري عصر المتوكل ، الوزير محمد بن عبد الملك الزيات . ويصفه صاحب كتاب الفخري[1]. بأنه « كان ذكياً بـرع في كل شيء ، حتى صار نادرة وقته عقلاً وفهماً وذكاء وكتابة وشعراً وأدباً وخبرة بآداب الرئاسة وقواعد الملوك ، حتى كانت أيام المعتصم فاستوزره . فنهض بأعباء الوزارة نهوضاً لم يكن لمن تقدمه من أضرابه . وكان جباراً متكبراً فظاً غليظ القلب خشن الجانب مبغضاً إلى الخلق » .

نشأ ابن الزيات في بيت واسع الثراء ، فكان أبوه من وجوه تجار الكرخ ببغداد ، الذين يزودون بلاط المأمون بما يحتاجه ، واشتهر بالذكاء والطموح وطمع في أن يكون له دور في قصر الخلافة فرفض أن يكون تاجراً كأبيه . ومن أجل تحقيق أمنياته ، تحصن بالأدب والعلم وصحب العلماء وأرباب الكتابة في دواوين الدولة في عهد المأمون .[2] وأصبح في عهد المعتصم متعهد القصر والمشرف على المطابخ . ثم تولى الكتابة ، ثم الوزارة .[3] .

وتمتع ابن الزيات في عهد المعتصم بسلطات واسعة إذ لم يكن المعتصم على حظ من العلم أو الأدب أو الثقافة . بل كان لا يجيد الخط . ولذا اعتمد على وزيره اعتماداً كلياً ، مما أدى إلى استبداد وطغيان ابن الزيات . ووصفه الناس بالظلم والقسوة . فقد سجن كل من تقدم بمظلمة ، وعاقب بقسوة كل من تأخر في سداد الضرائب .[4]

واستوزر الواثق ابن الزيات رغم بغضه له ، تقديراً لكفاءته السياسية والإدارية[5] حتى قال الواثق : « إن السلطان إلى محمد بن عبد الملك أحوج

(١) الفخري ص ٢١٣ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١١٧ ، الأصفهاني : الأغاني جـ ٢٠ ص ٣١٢ .
(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ١٠ ص ٢٣٦ .
ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٥٦ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٢٣ .
(٥) الفخري ص ٢١٢ .

من محمد الى السلطان[1] . وقال الوزير الفضل بن مروان عن ابن الزيات : « ولا تعلم وزيراً وزر وزارة واحدة بلا صرف لثلاثة خلفاء متسقين ـ المعتصم والواثق والمتوكل ـ غير محمد بن عبد الملك الزيات » .[2] واستمر ابن الزيات وزيراً في عهد المتوكل ، إلا ان الخليفة كان يبغضه لسوء معاملة ابن الزيات له في عهد الواثق ، فنكبه بعد أربعين يوماً من توليه الخلافة ، وصادر أمواله ، وعذبه حتى مات .[3]

وساهم ابن الزيات في النهضة الفكرية فكان مجلسه حافلاً بالعلماء والأدباء والشعراء ،ومنهم الجاحظ ودعبل الخزاعي وأبو تمام والبحتري والحر بن وهب وغيرهم ، حيث أغدق عليهم الجوائز . وكلف حنين بن اسحق بترجمة كتب الطب وقد أهدى الجاحظ كتاب الحيوان إلى ابن الزيات فمنحه خمسة آلاف دينار . وكان ابن الزيات شاعراً مجيداً وله ديوان شعر .[4] كما له كتاب رسائل .[5]

لم يؤمن ابن الزيات بتعاليم المعتزلة ، ولكنه لم يجهر بذلك . وكان جهمياً يدين بمذهب جهم بن صفوان الترمذي ، وهو مذهب من مذاهب الجبرية ، فالإنسان في هذا المذهب لا يقدر على شيء وإنما هو مجبور في أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار ، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات .[6]

ومن أصحاب الفكر الذين كان لهم دور في عهد المتوكل أحمد بن أبي دؤاد ، وقد كان له دوره في ترشيح المتوكل للخلافة .[7]

---

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٨ ص ١٥ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) اليعقوبي جـ ٣ ص ٢٠٩ ، مسكويه : تجارب الأمم جـ ٦ ص ٥٣٩ .
(٤) الأصفهاني : الأغاني جـ ٢٠ ص ٢٣٦ .
(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٣٣٧ .
(٦) الشهرستاني : الملل والنحل جـ ٢ ص ١١٧ ، المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٣٤٩ ـ ٣٥١ .
(٧) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٥ ص ١٦٥ .

وابن أبي دؤاد عربي من إياد ، أصله من قرية بقنسرين . نشأ نشأة علمية ، فدرس الفقه وعلم الكلام ، وتتلمذ على هياج بن العلاء السلمي وهو من أصحاب واصل بـن عطاء ولذا أصبح ابن أبي دؤاد من أعلام المعتزلة . واتصل بالمأمون بطريق يحيى بن أكثم وشهد مجالس المأمون في الجدل والمناظرة ، وأعجب المأمون بنبوغه وعلمه ، فقربه اليه ، وأوصى به أخاه المعتصم خيراً ، وقال : « وأبو عبد الله احمد بـن ابي دؤاد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك ، فانه موضع ذلك ، ولا تتخذن بعدي وزيراً . ولما تولى المعتصم الخلافة ولى ابن أبي دؤاد منصب قاضي القضاة بدلاً من يحيى بن أكثم[1] .

ويعتبر ابن أبي دؤاد المسئول الأول عن محنة خلق القرآن في عصور المأمون والمعتصم والواثق . وهو الذي كتب كل الكتب التي بعثها المأمون الى ولاته ، يأمرهم بامتحان الناس ، وبالتنكيل بالرافضين من العلماء والعامة . وكان ابن أبي دؤاد يطبق ما اعتنقه من تعاليم المعتزلة[2] .

ولما كان المعتصم محدود العلم والثقافة فقد أصبح قاضي القضاة ابن أبي دؤاد الرجل الأول في الدولة في مجالات العلم والفكر والمذاهب . وكان ابن ابي دؤاد يبني مجداً لذاته ، فبدا شديد التعصب للعرب رغم أنه يعيش في دولة فارسية في عهد المأمون ثم في دولة تركية في عهدي المعتصم والواثق[3] .

واشتهر ابن أبي دؤاد بالكرم الواسع ، فكان يقال : « أكرم من كان في دولة بني العباس البرامكة ثم ابن أبي دؤاد»[4]. حتى ان بيوت المال في الدولة أصبحت خاوية في عهد الواثق ، نتيجة إغداق ابن أبي دؤاد . كما اشتهر باجادة الشعر والبلاغة والفصاحة ، فقال أبو العيناء : « كان ابن أبي دؤاد شاعراً مجيداً ، فصيحاً بليغاً » .[5]

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢١ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٤ ص ١٤٢ .
(٢) أبو زهرة : ابن حنبل ص ٦٠ .
(٣) عبدالحليم الجندي : أحمد بن حنبل ص ٤٥٠ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢١ .
(٥) المصدر السابق .

ومدحه الشاعر أبو تمام بأبيات، منها :

إليك تناهى المجد من كل وجهة يصير فما يعدوك حيث يصير
وبدر أياد أنت لا ينكرونه كذاك إياد للانام بدور

واتصل به الجاحظ بعد أن كان منحرفاً عنه، لأن الجاحظ كان من أتباع محمد بن عبد الملك الزيات، وكان محمد من أعداء احمد بن أبي دؤاد، فلما أوقع بابن الزيات خاف الجاحظ من ابن أبي دؤاد، وتوقع أن يوقع به، ولكنه عفا عنه وأطلقه، فاتصل الجاحظ بعد ذلك بابن أبي دؤاد.[1]

وتولى احمد بن أبي دؤاد في عهد المعتصم محاكمة زعماء الزنادقة، وخاصة الافشين، الذي كان من كبار قواد المعتصم، وهو الذي قبض على بابك الخرمي، وهزم الروم.[2]

وكان ابن أبي دؤاد، من المحرّضين على الإمام أحمد بن حنبل وعلى الثائر أحمد بن نصر. وأمر المعلمين بتعليم الصبيان في الكتاتيب أن القرآن مخلوق.

وهذا النفوذ الكبير، والجاه العريض في قصور الخلفاء وفي أوساط العلماء والأدباء، وعلى قضاة الأمصار، قد أخطأ أحمد بن أبي دؤاد في استغلاله في حمل الناس على الاعتزال، وإكراههم على القول بخلق القرآن، فهو أكبر سبب في هذه المحنة، فاستوجب سخط كثير من الناس، وضاع مجده وعلو شأنه في كثير من الأوساط. حتى قال محمد بن يحيى الصولي: «لولا ما وضع به نفسه من محبة المحنة لاجتمعت الألسن عليه، ولم يضف الى كرمه كرم أحد». فقد كان موصوفاً بالجود والسخاء، وحسن الخلق، كما كان وافر الأدب واسع العلم ولكنه حمل الخلفاء الثلاثة: المأمون، والمعتصم والواثق على أن يمتحنوا الناس بالقول بخلق القرآن، فكانت المحنة، وكانت الكارثة،

---

(١) احمد أمين: ضحى الإسلام جـ ٣ ص ١٥٨.
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٥٩ وما بعدها.

حتى على مذهب الاعتزال نفسه.[1]

وكان من المنطقي أن يتخلص الخليفة المتوكل من أحمد بن أبي دؤاد، فقد أحدث المتوكل انقلاباً دينياً وفكرياً، وأوقف تيار الاعتزال، وأنعش مذهب السنة، وأبطل الجدال وأنهى المحنة. وبدأ المتوكل يعزل ابن أبي داؤد عن المظالم في صفر سنة ٢٣٧ هـ، ثم صادر ضياعه، وسجن ابنه أبا الوليد محمد في ديوان الخراج، كما سجن باقي الأبناء عند صاحب الشرطة. وكان احمد بن أبي دؤاد قد أصيب بالفالج.[2]

ومدح الشاعر البحتري الخليفة المتوكل، وهجا ابن أبي دؤاد، بهذه الأبيات:[3]

أمير المؤمنين لقد شكرنا	إلى آبائك الغر الحسان
رددت الدين فذاً بعد أن قد	آراه فرقتين تخاصمان
قصمت الظالمين بكل أرض	فأضحى الظلم مجهول المكان
وفي سنة رمت متجبريهم	على قدر بداهية عيان
فما أبقت من ابن أبي دؤاد	سوى حسد يخاطب بالمعاني
تحير فيه سابور بن سهل	فطاوله ومناه الأماني
إذا أصحابه اصطحبوا بليل	أطالوا الخوض في خلق القرآن

وكان للمتوكل موقف من الكندي الفيلسوف، الذي يعد استمراراً لمدرسة الاسكندرية الفكرية التي ورثها العرب بعد نقل فكرها إلى اللغة العربية، مما أدى إلى دفع هذا التراث دفعة قوية، وانتهى إلى التوفيق بين الدين والفلسفة.[4] وكان الكندي يستقبل تلاميذه في داره حيث كان يقتني مكتبة كبيرة من أكبر مكتبات العصر حتى سميت بالمكتبة الكندية. وكان للكندي عدوان

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ ٣ ص ١٥٩.

(٢) الطبري جـ ٧ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٥٤.

(٤) أحمد فؤاد الأهواني: المدارس الفلسفية ص ١٢٥.

أخوان هما محمد وأحمد ابنا موسى بن شاكر ، وكان للكندي أيضاً نصير في بلاد الخليفة المتوكل وهو سند بن علي ، فباعده الأخوان عن المتوكل وأشخصاه إلى بغداد ، فلما خلا لهما الجو دبرا للكندي مكيدة ، فحرضا المتوكل على ضربه ، ونهب مكتبته ، غير أن سند بن علي سعى ـ فيما بعد ـ حتى أجبر محمد وأحمد ابني موسى بن شاكر على أن يردوا إلى الكندي جميع كتبه .[1]

وهذه القصة التي يرويها ابن أبي أصيبعة تصور العداء للفلاسفة في هذا العصر كما تدل على ازدياد سلطة المحدثين ، الذين لم يرضوا عن أي نزعة عقلية سواء استخدمت للدفاع عن الدين أم كانت مقصودة لذاتها كما هو الحال عند الفلاسفة . وقد آثر كثير من الفلاسفة ، في ذلك العصر ، الابتعاد عن الصراع مع رجال الدين ، وانصرفوا إلى عالمهم الميتافيزيقي ، فكان سيف رجال الحديث عليهم أخف وطأة .

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٢٨٦

الملاحق

١ ـ كتاب المتوكل إلى العمال
حول معاملة أهل الذمة .

٢ ـ كتاب البيعة بولاية العهد لأبناء
المتوكل الثلاثة : المنتصر ،
والمعتز ، والمؤيد .

١ ـ كتاب المتوكل إلى العمال
حول معاملة أهل الذمة

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد . فان الله تبارك وتعالى بعزته التي لا تحول وقدرته على ما يريد ، اصطفى الإسلام فرضيه لنفسه ، وأكرم ملائكته ، وبعث به رسله ، وأيد به أولياءه ، وكنفه بالبر ، وحاطه بالنصر ، وحرسه من العاهة ، وأظهره على الأديان ، مبرأ من الشبهات معصوماً من الآفات ، محبواً بمناقب الخير ، مخصوصاً من الشرائع بأطهرها وأفضلها ، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها ، ومن الأحكام بأعدلها وأقنعها ، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها . وأكرم أهله بما أحل لهم من حلاله وحرم عليهم من حرامه ، وبيّن لهم من شرائعه وأحكامه وحدّ لهم من حدوده ومناهجه ، وأعد لهم من سعة جزائه وثوابه . فقال في كتابه ، فيما أمر به ونهى عنه ، وفيما حض عليه فيه ووعظ « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » . وقال فيما حرم على أهله مما غمط فيه من رديء المطعم والمشرب والمنكح لينزههم عنه وليظهر به دينهم ليفضلهم عليهم تفضيلا « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة » . إلى آخر الآية . ثم ختم ما حرم عليهم من ذلك في هذه الآية بحراسة دينه مما

عنده ، وبإتمام نعمته على أهله الذين اصطفاهم، فقال عز وجل: (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشوني اليوم أكملت لكم دينكم ـ الآية) ، وقال عز وجل : (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم ـ الآية) وقال : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ـ الآية) فحرم على المسلمين من مآكل أهل الأديان أرجسها وأنجسها ومن شرابهم أدعاه إلى العداوة والبغضاء وأصده عن ذكر الله وعن الصلاة ، ومن مناكحهم أعظمها عنده وزراً وأولاها عند ذوي الحجى والألباب تحريماً . ثم حباهم محاسن الأخلاق وفضائل الكرامات فجعلهم أهل الايمان والأمانة والفضل والتراحم واليقين والصدق ولم يجعل في دينهم التقاطع والتدابر ولا الحمية ولا التكبر ولا الخيانة ولا الغدر ولا التباغي ولا التظالم ، بل أمر بالأولى ونهى عن الأخرى ، ووعد وأوعد عليها جنته وناره ، وثوابه وعقابه ، فالمسلمون بما اختصهم الله من كرامته ، وجعل لهم من الفضيلة بدينهم الذي اختاره لهم بائنون على الأديان بشرائعهم الزكية وأحكامهم المرضية الطاهرة وبراهينهم المضية وبتطهير الله دينهم بما أحل وحرم فيه لهم ، وعليهم قضاء من الله عز وجل في إعزاز دينه حتماً ومشيئته منه في إظهار حقه ماضية وإرادة منه في إتمام نعمته على أهله نافذة ليهلك من هلك عن بينة، ويحيي من حيي عن بينة، وليجعل الله الفوز والعاقبة للمتقين والخزي في الدنيا والآخرة على الكافرين .

« وقد رأى أمير المؤمنين ، وبالله توفيقه وإرشاده ، أن يحمل أهل الذمة جميعاً بحضرته وفي نواحي أعماله ، أقربها وأبعدها ، وأخصمهم وأخسهم ، على تصيير طيالستهم التي يلبسونها من لبسها من تجارهم وكتابهم وكبيرهم وصغيرهم على ألوان الثياب العسلية ، لا يتجاوز ذلك منهم متجاوز إلى غيره ، ومن قصر عن هذه الطبقة من أتباعهم وأرذالهم ومن يقعد به حاله عن لبس الطيالسة منهم أخذ بتركيب خرقتين صبغهما ذلك الصبغ يكون استدارة كل واحدة منهما شبراً تاماً في مثله على موضع أمام ثوبه الذي يلبسه تلقاء صدره ومن وراء ظهره ، وأن يؤخذ الجميع منهم في قلانسهم بتركيب ازرة عليها يخالف ألوانها ألوان القلانس، ترتفع في أماكنها التي تقع بها لئلا تلصق فتستر ، ولا ما يركب منها

على حباك فيخفى وكذلك في سروجهم باتخاذ ركب خشب لها ، ونصب أكر على قرابيسها تكون ناتئة عنها وموفية عليها لا يرخص لهم في إزالتها عن قرابيسهم وتأخيرها إلى جوانبها ، بل تتفقد ذلك منهم ليقع ما وقع من الذي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليه ظاهراً يمينه الناظر من غير تأمل وتأخذه الأعين من غير طلب ، وأن تؤخذ عبيدهم وإماؤهم ومن يلبس المناطق من تلك الطبقة بشد الزنانير والكساتيج مكان المناطق التي كانت في أوساطهم وأن توعز إلى عمالك فيما أمر به أمير المؤمنين في ذلك إيعازا تحدوهم به إلى استقصاء ما تقدم فيه وتحذرهم ادهاناً وميلاً وتتقدم إليهم في إنزال العقوبة بمن خالف ذلك من جميع أهل الذمة عن سبيل عناد وتهوين إلى غيره ، ليقتصر الجميع منهم على طبقاتهم وأصنافهم على السبيل الذي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليها وأخذهم بها إن شاء الله .

« فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين وأمره ، وأنفذ إلى عمالك في نواحي عملك ما ورد عليك من كتاب أمير المؤمنين بما تعمل به إن شاء الله ، وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه أن يصلي على محمد عبده ورسوله ﷺ وملائكته ، وأن يحفظه فيما استخلفه عليه من أمر دينه ويتولى ما ولاه مما لا يبلغ حقه فيه إلا بعونه حفظاً يحمل به ما حمله وولاية يقضي بها حقه منه ويوجب بها له أكمل ثوابه وأفضل مزيده ، إنه كريم رحيم »[1] .

٢ ـ كتاب البيعة بولاية العهد لابناء المتوكل الثلاثة : المنتصر ، والمعتز ، والمؤيد

« هذا كتاب كتبه عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين وأشهد الله على نفسه بجميع ما فيه ومن حضر من أهل بيته وشيعته وقواده وقضاته وكفاته وفقهائه وغيرهم من المسلمين لمحمد المنتصر بالله ، ولأبي عبد الله

(١) من تاريخ الطبري جـ ٧ ص ٣٥٤-٣٥٧ .

لمعتز بالله ، وابراهيم المؤيد بالله ، بني أمير المؤمنين في أصالة من رأيه
ـعموم من عافية بدنه واجتماع من فهمه مختاراً لما شهد به ، متوخياً بذلك طاعة
ـبه وسلامة رعيته واستقامتها ،وانقيادها وطاعتها واتساع كلمتها وصلاح ذات
ينها ، وذلك في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين ومائتين إلى محمد المنتصر بالله
بن جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ولاية عهد المسلمين في حياته
ـالخلافة عليهم من بعده ، وأمره بتقوى الله التي هي عصمة من اعتصم بها ،
ـنجاة من لجأ اليها وعز من اقتصر عليها ، فإن بطاعة الله تتم النعمة وتجب من
لله الرحمن والله غفور رحيم .

« وجعل عبدالله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين الخلافة من
ـعد محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين إلى أبي عبدالله المعتز بالله ابن أمير
لمؤمنين ثم من بعد أبي عبدالله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين ، الخلافة إلى
ـبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين .

« وجعل عبدالله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين لمحمد
المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين على أبي عبدالله المعتز بالله وإبراهيم المؤيد
بالله ، ابني أمير المؤمنين ، السمع والطاعة والنصيحة والمشايعة والموالاة
لأوليائه والمعاداة لأعدائه في السر والجهر ، والغضب والرضا والمنع والإعطاء ،
ـوالتمسك ببيعته والوفاء بعهده ، لا يبغيانه غائلة ولا يحاولانه مخاتلة ولا يمالئان
عليه عدواً ، ولا يستبدان دونه بأمر يكون فيه نقض لما جعل إليه أمير المؤمنين
من ولاية العهد في حياته والخلافة من بعده .

« وجعل عبدالله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين على محمد
المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين لأبي عبدالله المعتز بالله ، وإبراهيم المؤيد
بالله ، ابني أمير المؤمنين الوفاء بما عقده لهما وعهد به اليهما من الخلافة بعد
محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين وابراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين
الخليفة من بعد أبي عبدالله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين والإتمام على ذلك ولا
يخلعهما ولا واحداً منهما ولا يعقد دونهما ولا دون واحد منهما بيعة لولد ولا

لأحد من جميع البرية ، ولا يؤخر منهما مقدماً ولا يقدم منهما مؤخراً ولا ينقصهما ولا واحداً منهما شيئاً من أعمالهما التي ولاهما عبدالله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين . وكل واحد منهما من الصلاة والمعاون والقضاء والمظالم والخراج والضياع والغنيمة والصدقات وغير ذلك من حقوق أعمالهما ، وما في عمل كل واحد منهما من البريد والطرز وخزن بيوت الأموال والمعاون ودور الضرب وجميع الأعمال التي جعلها أمير المؤمنين ويجعلها إلى كل واحد منهما ولا ينقل عن واحد منهما أحداً من ناحيته من القواد والجند والشاكرية والموالي والغلمان وغيرهم . ولا يعترض عليه في شيء من ضياعه وإقطاعياته وسائر أمواله وذخائره وجميع ما في يده وما حواه وملكت يده من تالد وطارف وقديم ومستأنف وجميع ما يستفيده ويستفاد له بنقص ولا يحرم ولا يجنف ولا يعرض لأحد من عماله وكتابه وقضاته وخدمه ووكلائه وأصحابه وجميع أسبابه بمناظرة ولا محاسبة ولا غير ذلك من الوجوه والأسباب كلها ، ولا يفسخ فيما وكده أمير المؤمنين لهما في هذا العقد والعهد بما يزيل ذلك عن جهته أو يؤخره عن وقته ، أو يكون ناقضاً لشيء منه .

« وجعل عبدالله جعفر المتوكل على الله أمير المؤمنين على أبي عبدالله المعتز ابن أمير المؤمنين إن أفضت إليه الخلافة بعد محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين لإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين مثل الشرائط التي اشترطها على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين بجميع ما سمي فيه ووصف في هذا الكتاب ، وعلى ما بين وفسر مع الوفاء من أبي عبدالله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين بما جعله أمير المؤمنين لإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين من الخلافة وتسليم ذلك رضيا فمضيا له مقدماً ما فيه حق الله عليه وما أمره به أمير المؤمنين غير ناكث ولا ناكب بذلك ولا مبدل ، فإن الله تعالى جده وعز ذكره يتوعد من خالف أمره وعند عن سبيله في محكم كتابه « فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم » .

« على أن لأبي عبدالله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين ، ولإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين ، وهما

مقيمان بحضرته أو أحدهما أو كانا غائبين عنه مجتمعين كانا أو متفرقين ، وليس أبو عبدالله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين في ولايته بخراسان وأعمالهما المتصلة بها والمضمومة إليها ، وليس ابراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين في ولايته بالشام وأجنادها ، فعلى محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين أن يمضي ابا عبدالله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين إلى خراسان وأعمالها كلها وأجنادها والكور الداخلة فيما ولي جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين أبا عبدالله المعتز ابن أمير المؤمنين فلا يعوقه عنها ولا يحبسه قبله ولا في شيء من البلدان دون خراسان والكور والأعمال المضمومة اليها وأن يعجل إشخاصه اليها والياً عليها وعلى جميع أعمالها ، مفرداً بها ، مفوضاً إليه أعمالها كلها لينزل حيث أحب من كور عمله ، ولا ينقله عنها . وأن يشخص معه جميع من ضم اليه أمير المؤمنين ، ويضم من مواليه وقواده وشاكريته وأصحابه وكتابه وعماله وخدمه ومن اتبعه من صنوف الناس بأهاليهم وأولادهم وعيالهم وأموالهم ، ولا يحبس عنه أحداً ، ولا يشرك في شيء من أعماله أحداً ، ولا يوجه عليه أميناً ولا كاتباً ولا بريداً ، ولا يضرب على يده في قليل ولا كثير .

« وأن يطلق محمد المنتصر بالله لإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين الخروج إلى الشام وأجنادها ، فيمن ضم أمير المؤمنين ويضمه اليه ، من مواليه وقواده وخدمه وجنوده وشاكريته وصحابته وعماله وخدامه ومن اتبعه من صنوف الناس بأهليها وأولادهم وأموالهم ولا يحبس قبله ولا في شيء من البلدان دونها ، وأن يعجل بإشخاصه إلى الشام وأجنادها ، والياً عليها ، ولا ينقله عنها ، وأن عليه له فيمن ضم اليه من القواد والموالي والغلمان والجنود والشاكرية وأصناف الناس وفي جميع الأسباب والوجود ، مثل الذي اشترط على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين لأبي عبدالله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين في خراسان وأعمالها ، وعلى ما رسم من ذلك ، وبين ولخص وشرح في هذا الكتاب .

« ولإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين على أبي عبدالله المعتز بالله

ابن أمير المؤمنين اذا أفضت الخلافة اليه وإبراهيم المؤيد مقيم بالشام أن يقره بها ، أو كان بحضرته ، أو كان غائباً عنه أن يمضيه إلى عمله من الشام ويسلم إليه أجنادها وولايتها وأعمالها كلها ولا يعوقه عنها ، ولا يحبسه قبله ولا في شيء من البلدان دونها وأن يعجل إشخاصه اليها والياً عليها وعلى جميع أعمالها ، على مثل الشرط الذي أخذه لأبي عبدالله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين في خراسان وأعمالها على ما رسم ووصف وشرط في هذا الكتاب .

« لم يجعل أمير المؤمنين لواحد ممن وقعت عليه وله هذه الشروط من محمد المنتصر بالله وأبي عبدالله المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله ، وبني أمير المؤمنين ، أن يزيد شيئاً مما اشترطنا في هذا الكتاب ووكدنا ، وعليهم جميعاً الوفاء به ، لا يقبل الله منهم إلا ذلك ولا التمسك إلا بعهد الله فيه وكان عهد الله مسئولاً .

« أشهد الله رب العالمين جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ، ومن حضره من المسلمين بجميع ما في هذا الكتاب على إمضائه إياه ، على محمد المنتصر بالله وأبي عبدالله المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله ، بني أمير المؤمنين ، بجميع ما سمي ووصف فيه ، وكفى بالله شهيداً ومعيناً لمن أطاعه راجياً ، ووفى بعهده خائفاً وحسيباً ومعاقباً من خالفه ، معانداً أو صدف عن أمره مجاهداً .

« وقد كتب هذا الكتاب أربع نسخ وقعت شهادة شهود بحضرة أمير المؤمنين في كل نسخة منها ، في خزانة أمير المؤمنين نسخة ، وعند محمد المنتصر ابن أمير المؤمنين نسخة ، وعند أبي عبدالله المعتز ابن أمير المؤمنين نسخة ، ونسخة عند إبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين .

« وقد ولى جعفر الإمام المتوكل على الله أبا عبدالله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين ، أعمال فارس وأرمينية وأذربيجان إلى ما يلي أعمال خراسان وكورها

الأعمال المتصلة بها والمضمومة اليها ، على أن يجعل له على محمد المنتصر
بالله ابن أمير المؤمنين في ذلك الذي جعل له في الحياطة في نفسه ، والوثاق
في أعماله ، والمضمومين إليه ، وسائر من يستعين به من الناس جميعاً في
خراسان والكور المضمومة إليها والمتصلة بها ، على ما سمي ووصف في هذا
الكتاب»[1] .

(١) من تاريخ الطبري جـ ٧ ص ٣٥٨-٣٦٢ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأصلية

الابشيهي : (٨٥٠ هـ) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح
ـ المستطرف في كل فن مستظرف (مطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة)

ابن الأثير : (+ ٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م) علي بن أحمد بن أبي الكرم .
ـ الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءاً (بولاق ، القاهرة ١٢٧٤ هـ) .

الاصطخري : (٣١٨ ـ ٣٢١ هـ = ٩٤٣ م) أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي . ـ مسالك الممالك (طبعة ليدن ١٩٢٧) .

الأصفهاني : (+ ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م) أبو الفرج .
ـ كتاب الأغاني ٢١ جزءاً (القاهرة ١٩٢٧ ـ ١٩٣٦) .
ـ مقاتل الطالبيين (طبعة الحلبي ، القاهرة ١٩٤٦) .

الألوسي : محمود شكري .
ـ بلوغ الأرب في أحوال العرب (المطبعة الرحمانية بالقاهرة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م) .

البغدادي : (+٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) أبو منصور عبد القادر بن طاهر .
ـ الفرق بين الفرق (القاهرة ١٩١٠) .

البكري : (٤٨٧ هـ) أبو عبدالله عبدالله بن عبد العزيز البكري الأندلسي
ـ **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع** (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ٩٤٥ ـ ١٩٥١ م) .

البلاذري : (+ ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م) أحمد بن يحيى بن جابر .
ـ **فتوح البلدان** (القاهرة ١٣١٨ هـ)
ـ **انساب الأشراف** ، الجزءان الرابع والخامس (فلسطين ١٩٣٨) .

البيروني : (+ ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) أبو الريحان محمد بن أحمد .
ـ **الآثار الباقية عن القرون الخالية** (ليبزج ١٨٧٨) .

البيهقي : (٤٥٨ هـ) .
ـ **المحاسن والمساويء** ، جزءان (مطبعة السعادة بالقاهرة ١٢٢٥ هـ ـ ١٩٠٦ م) .

التنوخي : (٣٨٤ هـ) أبو علي الحسن بن أبي القاسم .
ـ **الفرج بعد الشدة** ، جزءان (دار الطباعة المحمدية بالقاهرة)
ـ **كتاب جامع التواريخ المسمى** : نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة (دمشق ١٣٤٨ هـ ـ ١٩٣٠ م) .

الثعالبي : (٤٢٩ هـ) أبو منصور عبد الملك بن محمد اسماعيل .
ـ **لطائف المعارف** (طبعة الحلبي بالقاهرة) .

الجاحظ : (+ ٢٥٥ هـ = ٨٦٩ م) أبو عثمان عمرو بن بحر .
ـ **كتاب البيان والتبيين** ، أربعة أجزاء (القاهرة ١٩٣٨) .
ـ **كتاب الحيوان** (مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧ م) .
ـ **كتاب التاج** (المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٢٢ هـ ـ ١٩١٤ م) .
ـ **كتاب المحاسن والأضداد** (مطبعة السعادة بالقاهرة ٣٢٤ هـ) .
ـ **رسائل الجاحظ** ، ١١ رسالة (القاهرة ١٣٢٤ هـ) .

ابن الجوزي : (٥٩٧ هـ) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي .

- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ، سبعة أجزاء (حيدر أباد ١٣٥٧ هـ) .

ابن حزم : (+ ٤٥٦ هـ = ١٥٦٤ م) أبو محمد علي بن أحمد .
- **الفصل في الملل والأهواء والنحل** - خمسة اجزاء (المطبعة الأدبية بالقاهرة ١٣١٧ هـ) .

ابن حسول : (٤٥٠ هـ) محمد بن أبي العلاء بن حسول .
- **تفضيل الأتراك على سائر الأجناد** (انقرة ١٩٤٠ م) .

الحصري : (٤٥٤ هـ) أبو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني .
- **زهر الآداب وثمر الألباب** ، أربعة أجزاء - مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م .

ابن خرداذبة : (٢٧٢ هـ = ٨٩٥ م) أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله .
- **المسالك والممالك** (ليدن ١٨٩٨) .

الخطيب البغدادي : (٤٦٣ هـ) أبو بكر محمد بن علي .
- **تاريخ بغداد أو مدينة السلام** ١٢ جزءاً ، (دار الكتاب العربي - بيروت) .

ابن خلدون : (+ ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) عبد الرحمن بن محمد .
- **مقدمة ابن خلدون** (المطبعة البهية المصرية) .
- **العبر وديوان المبتدأ والخبر** ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ) .

ابن خلكان : (+ ٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي .
- **وفيات الأعيان** (طبعة مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٤٨) .

الدمشقي : أبو الفضل .
- **الإشارة إلى محاسن التجارة** (القاهرة ١٣١٨ هـ) .

الدميري : كمال الدين .
- **حياة الحيوان** ، جزءان (المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٢٧٤ هـ) .

الدينوري : (٢٧٢ هـ = ٨٩٥ م) أحمد بن داود أبو حنيفة .
- **الأخبار الطوال** (ليدن ١٨٨٨ م) .

ابن رستة : (حوالي ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م) .
- **الأعلاق النفيسة** (ليدن ١٨٩١ م) .

السيوطي : (+ ٩١١ هـ = ١٦٠٥ م) عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين .
- **تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة** (طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة) .

الشابشتي : (+ ٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) أبو الحسن علي بن محمد .
- **الديارات** (مطبعة المعارف - بغداد ١٩٥١ م) .

الشهرستاني : (+ ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) أبو الفتوح محمد بن عبد الكريم .
- **الملل والنحل** (القاهرة ١٣٦٨ - ١٩٤٨) .

الصابي : (٤٤٨ هـ) أبو الحسين الهلال بن الحسين .
- **رسوم دار الخلافة** (بغداد ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م) .

أبو الصباغ : (٨٥٥ هـ) .
- **الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة** (النجف ١٩٥٠) .

ابن طباطبا : (٧٠١ هـ) محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي .
- **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** . (المطبعة الرحمانية القاهرة ١٣٤٠ هـ) .

الطبري : (+ ٣١٠ = ٩٢٢ م) أبو جعفر محمد بن جرير .
- **تاريخ الأمم والملوك** (طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة سنة ١٩٤٨) .

ابن عبد ربه : (٣٢٧ هـ) أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي .
- **العقد الفريد** ، ٧ أجزاء (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٦ - ١٩٥٣ م) .

ابن العبري :
- **تاريخ مختصر الدول** (بيروت ١٨٩٠) .

ابن العربي : (٥٤٣ هـ) القاضي أبو بكر بن العربي .
- **العواصم من القواصم** (القاهرة ١٣٧١ هـ) .

ابن عساكر : (٥٧١ هـ) أبو القاسم علي بن الحسين .
- **تهذيب التاريخ الكبير** (دمشق ١٣٣٢ هـ) .

ابن العماد : (١٠٨٩ م) أبو الفلاح عبد الحي .
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** (مطبعة القدسي ١٣٥٠ هـ) .

العمري : (٧٤٩ هـ) ابن فضل الله العمري .
- **مسالك الأبصار في الممالك والأمصار** (طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٢ - ١٩٢٤) .

فخر الدين الرازي : (٦٠٦ هـ) .
- **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين** (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٣٨) .

أبو الفدا : (٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م) اسماعيل بن علي عماد الدين .
- **المختصر في أخبار البشر** ، أربعة أجزاء (المطبعة الحسينية بالقاهرة) .

الفيروز آبادي : (١٨٧ هـ) مجد الدين محمد بن يعقوب .
- **القاموس المحيط** (المطبعة الأميرية ، بولاق ، القاهرة) .

ابن قتيبة : (+ ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) أبو محمد عبدالله بن مسلم .
- **الإمامة والسياسة** ، جزءان (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
- **المعارف** (القاهرة ١٩٣٥) .
- **عيون الأخبار** ، أربعة أجزاء (طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣ - ١٩٢٥) .

القلقشندي : (٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد .
- **صبح الأعشى في صناعة الانشا** (المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٢٣ - ١٩١٤) .

الكتبي : (٧٦٤ هـ) محمد بن شاكر .
- **فوات الوفيات** (مطبعة السعادة بالقاهرة) .

ابن كثير : (٧٧٤ هـ) عماد الدين أبو الفدا اسماعيل الدمشقي .
- **البداية والنهاية** (مطبعة السعادة بالقاهرة) .

الكندي : (+ ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف .
- **كتاب الولاة والقضاة** (بيروت ١٩٠٨) .

الماوردي : (+ ٤٥٠ هـ = ١٠٥٧ م) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي البصري .
- **الأحكام السلطانية** (مطبعة الوطن بالقاهرة ١٢٩٨) .

المبرد : (٢٨٥ هـ) أبو العباس محمد بن يزيد .
- **الكامل** ، جزءان (مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م) .

مجهول :
- **العيون والحدائق في أخبار الحقائق** (مطبعة ليدن) .

أبو المحاسن : (٨٧٤هـ) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي .
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** (طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٩) .

المسعودي : (+ ٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي .
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر** (طبعة المكتبة التجارية ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م) .
- **التنبيه والإشراف** (القاهرة ١٣٥٧ - ١٩٣٨) .

مسكويه :

- **تجارب الأمم** (مطبعة التمدن بالقاهرة ١٩١٤ م) .

المقدسي : (+ ٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م) شمس الدين أبو عبدالله محمد .

- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** (ليدن ١٩٠٦ م) .

المقريزي : (+ ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) تقي الدين أحمد بن علي .

- **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار** ، جزءان (القاهرة ١٢٧٠ هـ) .

ابن منظور : (٥٣٠ هـ) جمال الدين محمد مكرم الأنصاري .

- **لسان العرب** ، عشرون جزءاً ، (الدار المصرية للترجمة والنشر بالقاهرة) .

ابن النديم : (+ ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) محمد بن اسحاق النديم البغدادي .

- **الفهرست** ، جزءان (المطبعة الرحمانية بالقاهرة ١٣٤٨ هـ) .

النويري : (٧٢٧ هـ) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .

- **نهاية الأرب في فنون الأدب** (طبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م) .

ابن الوردي : (٧٥٠ هـ) زين الدين عمر .

- **مختصر تاريخ الدول** (القاهرة ١٢٨٥ هـ) .

ياقوت : (+ ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبدالله الحموي .

- **معجم البلدان** (مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٣ - ١٩٠٦ م) .

اليعقوبي : (٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح .

- **تاريخ اليعقوبي** ، ثلاثة أجزاء (النجف ١٣٥٨ هـ) .
- **كتاب البلدان** (ليدن ١٨٩١ م) .

أبو يوسف : (+ ١٩٢ هـ - ٨٠٧ - ٨٠٨ م) يعقوب بن إبراهيم .

- كتاب الخراج (المطبعة الأميرية ١٣٠٢ هـ .

ثانياً : المراجع العربية الحديثة

إبراهيم أحمد العدوي : الدكتور .
- **الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم** (مطبعة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٥٨ م) .

أحمد أمين :
- **ضحى الإسلام** ، ٣ أجزاء (مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٥٦ م) .

أحمد برانق :
- **الوزراء العباسيون** (لجنة البيان العربي بالقاهرة) .

أحمد تيمور :
- **التصوير عند العرب** . نشرة الدكتور زكي محمد حسن (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) القاهرة ١٩٤٢ .

أحمد سوسه :
- **ري سامراء في عهد الخلافة العباسية** . (مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٤٨) .

أحمد عبد الجواد الرومي :
- **أحمد بن حنبل** ، بين محنة الدين ومحنة الدنيا (القاهرة ١٩٦١) .

توفيق سلطان اليوزبكي : الدكتور .
- **الوزارة ، نشأتها وتطورها في الدولة العباسية** (بغداد ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م) .

جرجي زيدان :
- **تاريخ التمدن الإسلامي** (طبعة دار الهلال بالقاهرة) .

جهادية القرغولي : الدكتورة .
- **الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في سامراء** (بغداد ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م) .

حسن إبراهيم حسن : الدكتور .
- **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي** ، الجزءان الثاني والثالث ، (مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة) .

حسن الباشا : الدكتور .
- **الألقاب الإسلامية** (مطبعة النهضة المصرية ١٩٥٧) .

روفائيل أبو اسحاق :
- **تاريخ نصارى العراق** (بغداد ١٩٤٨) .

زكي محمد حسن : الدكتور .
- **فنون الإسلام** (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٨) .

زهدي جار الله :
- **المعتزلة** (مطبعة مصر ، القاهرة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م) .

صبحي الصالح : الدكتور .
- **النظم الإسلامية نشأتها وتطورها** (طبعة بيروت) .

طه حسين : الدكتور .
- **حديث الأربعاء** (القاهرة) .

عباس العزاوي :
- **الموسيقى العراقية** (بغداد ١٩٥٠) .

عبد الحليم الجندي :
- **أحمد بن حنبل إمام أهل السنة** (طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٠) .

عبد العزيز الدوري : الدكتور .
- **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري** (بغداد ١٩٤٨) .
- **العصر العباسي الأول** (بغداد ١٩٤٢) .
- **العصور العباسية المتأخرة** (مطبعة العاني ، بغداد) .

عبد العزيز مرزوق : الدكتور .
- **الفن الإسلامي** (بغداد) .

عبد الفتاح السرنجاوي :
- **النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية** (القاهرة ١٩٤٦) .

عبد المنعم ماجد : الدكتور .
- **تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى** . (مطبعة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٦٣) .

علي إبراهيم حسن : الدكتور .
- **التاريخ الإسلامي العام** (مطبعة النهضة المصرية بالقاهرة) .
- **نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب** (مطبعة النهضة المصرية بالقاهرة) .

علي حسني الخربوطلي : الدكتور .
- **الإسلام وأهل الذمة** (طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٩) .
- **أرض فدك** (طبعة دار العلوم بالقاهرة ١٩٧٤) .
- **تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي** (دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٩) .
- **المجوسية والمجوس** (حولية كلية البنات جامعة عين شمس) .
- **الإسلام والخلافة** (بيروت ١٩٧٠) .

علي ظريف الأعظمي :
- **مختصر تاريخ بغداد** (بغداد ١٩٢٦) .

محمد أبو زهرة :
- **ابن حنبل ، حياته وعصره ، آراؤه وفقهه** (دار الفكر العربي بالقاهرة) .

محمد أسعد طلس :
- **عصر الازدهار** (تاريخ الدولة العباسية) بيروت ١٩٦٠ .

محمد جمال الدين سرور : الدكتور .
- **تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق** (دار الفكر العربي بالقاهرة) .

محمد جميل بيهم :
- **العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب** (بيروت ١٣٧٦ - ١٩٥٧) .

محمد حلمي أحمد : الدكتور .
- **الخلافة والدولة في العصر العباسي** (مطبعة نهضة مصر ١٩٥٩) .

محمد الخضري :
- **محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية** (الدولة العباسية) القاهرة .

محمد رجب البيومي :
- **ابن حنبل** (سلسلة مذاهب وشخصيات بالقاهرة العدد ٢٢) .

محمد ضياء الدين الريس : الدكتور .
- **الخراج في الدولة الإسلامية أو التاريخ المالي للدولة الإسلامية** (مكتبة نهضة مصر - الطبعة الأولى ١٩٥٧) .

محمد كرد علي :
- الإدارة الإسلامية في عز العرب (مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٣٤ م) .
- **الإسلام والحضارة العربية** (القاهرة ١٩٥٩) .

محمود الحفني : الدكتور .

- **اسحاق الموصلي** (سلسلة أعلام العرب بالقاهرة) .

المدور : جميل نخلة المدور .

- **حضارة الإسلام في دار السلام** (القاهرة ١٩٠٥) .

مديرية الآثار :

سامراء (بغداد ١٩٤٠) .

يوسف رزق الله غنيمة :

- **نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق** (مطبعة الفرات ، بغداد ١٩٢٤) .

ثالثاً : مصادر افرنجية مترجمة إلى اللغة العربية

أرنولد : توماس و .

- **الدعوة إلى الإسلام** ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوي (طبعة مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٧) .

- **الخلافة** ، ترجمة جميل معلى (دار اليقظة العربية ١٩٤٦) .

بارتولد : ف .

- **تاريخ الحضارة الإسلامية** ، ترجمة حمزة طاهر (مطبعة دار المعارف ١٩٤٢) .

بروكلمان : كارل .

- **تاريخ الشعوب الإسلامية** ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي (بيروت ١٩٤٨) .

ترتون : أ . س .

- **أهل الذمة في الإسلام** ، ترجمة الدكتور حسن حبشي (طبعة دار المعارف بالقاهرة) .

جوزي : بندلي .

- **من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام** (القدس ١٩٢٨) .

جولد تسيهر : (أجناس) .
- **العقيدة والشريعة في الإسلام** . ترجمة علي حسن عبد القادر ومحمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق (دار الكتاب المصري ، القاهرة ١٩٤٦) .
حتي : فيليب .
- **تاريخ العرب** ، ترجمة مبروك نافع (القاهرة) .
خوادبش : (صلاح الدين)
- **حضارة الإسلام** ، ترجمة الدكتور علي حسني الخربوطلي (بيروت ١٩٧١) .
دوزي : ر . ب . أ .
- **نظرات في الإسلام** ، ترجمة كامل كيلاني (طبعة الحلبي بالقاهرة ١٣٥١ - ١٩٣٣) .
ديمو مبين : موريس غودفروا .
- **النظم الإسلامية** ، ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر (مطبعة الزهراء ، بغداد ١٩٥٢) .
رونلدسن : دوايت م .
- **عقيدة الشيعة** ، ترجمة ع . م (مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٤٦ م) .
ريسلر : جاك .
- **الحضارة العربية** ، ترجمة غنيم عبدون (طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة .
سيد أمير علي :
- **مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي** - ترجمة رياض رأفت (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٣٨) .
كوك : ريجارد .
- **بغداد مدينة السلام** ، ترجمة فؤاد جميل (مطبعة شفيق ، بغداد ١٩٦٢) .

لسترنج :
- **بغداد في عهد الخلافة العباسية** ، ترجمة بشير فرنسيس (المطبعة العربية ، بغداد ١٩٣٦) .
لوبون : جوستاف .
- **حضارة العرب** ، ترجمة عادل زعيتر (طبعة الحلبي بالقاهرة ١٩٤٨) .
متز : آدم .
- **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري** ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٧ م) .
هل : جوزيف .
- **الحضارة العربية** ، ترجمة الدكتور إبراهيم أحمد العدوي (سلسلة الألف كتاب بالقاهرة) .

رابعاً : المراجع الإفرنجية

Browne, E. G.:

- **A Literary History of Persia.** (2 Vols., London 1902- 1903).

Dozy, R. :

- **Supplément aux Dictionnaire** detaile des noms des Vetements chez Les Arabes. (Paris 1845).

Galland:

- **Essai Sur Les Motazélites.** (Paris 1906).

Gibb, H. A. R.:

- **Arabic Literature** (London 1928).

Gilman, Arthur:

- **The Saracens from the Earliest Times to the Fall of Baghdad.**

Huart, Clement:

- **Histoire des Arabes,** 2 Vols. (Paris 1912).

Kremer, Alfred Von:

- **The Orient Under the Caliphs.** Translated by Khuda Bukesh, (Calcutta 1920).

Lane- Poole; Stanly:

- **Studies in a Mosque.** (London 1893).

Muir; William Temple:

- **The Caliphate,** Its Rise, Decline and fall. (Edinburgh, 1924).

Nicholson; A. Raynold:

- **Literary History of the Arabs.** (London 1928).

Noldke:

- **Sketches from Eastern History.** Translated by J. S. Black, (London 1892).

Rosenthel:

- **Political Thought in Medieval Islams.** (Cambridge 1958).

Shedd; William Ambrose:

- **Islam and the Oriental Churches.** (Philadelphia 1904).

Le Strange; Guy:

- **The Lands of Eastern Caliphate.** (Cambridge 1930).

Sourdel:

- **Le Vizirat Abbaside.** (Demas, 1960).

Sykes, Percy:

- **A History of Persia,** 2 Vols., (London 1921).

Zaki, M. Hasan:

- **Les Tulunides.** (Paris 1933).


دار الشروق
جدّة